

رفع

عبد الرحمن البخاري  
أسلمه الله لفروعه

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ①

السلام

تفسير القرآن الكريم

# السلام

فضيلة الشيخ العلامة  
محمد بن صالح العثيمين  
غفر الله له ولدته ولمساعدته

طبع ببركان مكتبة الشيخ محمد بن صالح العثيمين المغيرة

دار الشريعة للنشر

رَفْعٌ

عَنِ الرَّحْمَنِ الْجَنَّى  
أُسْكَنَ اللَّهُ لِلْغَرَوْبَى

تَقْسِيرٌ

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

شُورَةُ يَسْرَى

رَفْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أُسْكِنْهُ لِلْجَنَّةِ أَفْرَادَ كَسْكُسِ

سلسلة مؤلفات فضيلة الشیخ محمد بن صالح العثيمین ①

عبد الرحمن الجعفری  
اللہم آتیه الفردوس

## تفسیر

# القرآن الكريم

سورة لیست

لفضیلۃ الشیخ العلامۃ  
محمد بن صالح العثیمین  
غفران اللہ له ولوالدیہ ولasmahin

دار الشریا للنشر

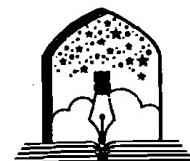
طبع بإشراف مؤسسة الشیخ محمد بن صالح العثیمین الخیریۃ

رفع

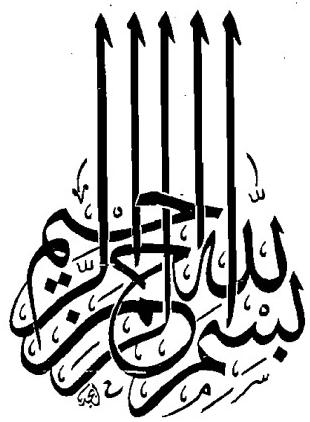
عبد الرحمن البخاري  
السلف لغير الفروع

الطبعة الأولى  
١٤٢٤ م - ٢٠٣ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
الا من اراد طبعه لتوزيعه مجاناً  
بعد مراجعة مؤسسة الشيخ  
محمد بن صالح العثيمين الخيرية



دار الشريا للنشر والتوزيع  
فاكس ٤٠٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١٤١٣  
بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com



رَفِعٌ

بْنُ الْأَعْمَى الْجَنْبِيِّ  
أَسْكَنَ اللَّهُ الْغَرَوْكَسَ

رَفِعٌ

بْنُ الرَّحْمَنِ الْجَنْبِيِّ  
الْكَلْبَانِيِّ الْفَزُوقِيِّ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَقْعَةُ

### المقدمة

جَبَ الْكَرْبَلَةَ (الْيَتَمَيِّدُ)  
أَسْكَنَ لَاهِيَةَ الْمَوْرَكَسَ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا  
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ، وَمَنْ يَضْلِلُ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ،  
وَأَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ  
وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ  
الْدِينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّمَا مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ - سَبِّحَهُ وَتَعَالَى - أَنْ يَسِّرَ لِفَضْيَلَةِ شِيخِنَا  
- تَغْمِدَهُ اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرَضْوَانِهِ - تَفْسِيرُ سُورَةِ «يَسْ» فِي دروْسِهِ  
الْعُلَمَاءِ الَّتِي كَانَ يَعْقِدُهَا رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَامِعِ الْكَبِيرِ فِي مَدِينَةِ عَنْيَزَةِ .

وَقَدْ عَهَدَتْ مَؤْسِسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِيِّ الْخَيْرِيِّ إِلَى  
فَضْيَلَةِ الشَّيْخِ فَهْدِ بْنِ نَاصِرِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ السَّلِيمَانِ، أَثَابَهُ اللَّهُ، بِالْعَمَلِ  
لِإِعْدَادِ هَذَا الْكِتَابِ لِلنَّشْرِ، وَتَخْرِيجِ أَحَادِيثِهِ وَآثَارِهِ، فَجُزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا .

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِ الْكَرِيمِ،  
مُوَافِقًا لِمَرْضَاتِهِ، نَافِعًا لِعَبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِي فَضْيَلَةَ شِيخِنَا عَنِ الإِسْلَامِ  
وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيَضَاعِفَ لَهُ الْمَثُوبَةُ وَالْأَجْرُ، وَيَعْلَمَ درْجَتَهُ  
فِي الْمَهْدِيَّينِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ  
وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

الْجَنَّةُ الْعُلَمَاءِ

فِي مَؤْسِسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِيِّ الْخَيْرِيِّ

رَفِعٌ

بِنْ الْرَّأْمَنِ الْجَنْوَيِّ  
الْسِنَنِ اللَّهُ لِلْفَرْوَانِ

رُقَبَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
اللَّهُمَّ إِنِّي لِأَذْكُرُكَ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ  
شَرِّ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ، وَمَنْ  
يُضِلُّ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ، وَأَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،  
وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ  
وَاصْحَابِهِ وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا كَثِيرًا.  
أَمَّا بَعْدُ :

قال المؤلف<sup>(١)</sup> - رحمه الله تعالى - [سورة (يس) مكية، أو  
إلا قوله : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا» الآية، أو مدنية].

المكي ما نزل قبل الهجرة، وليس ما نزل بمكة، إذ قد ينزل  
بمكة بعد الهجرة ويكون مدنياً، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي،  
وما نزل بعدها فهو مدني، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل  
العلم، والأقوال في هذه السورة ثلاثة:

الأول: أنها مكية.

الثانية: أنها مدنية.

الثالثة: أنها مكية إلا قوله : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا».

والذي يظهر أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي،  
والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة

(١) أخي الكريم: إذا مر بك: قال المؤلف: فالمراد به جلال الدين أبو عبد الله محمد بن  
أحمد بن محمد المحلبي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى  
«تفسير الجلالين» وقد جعلت كلامه - رحمه الله - بين معاوقيتين هكذا [ ].

اللفظ ، بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها ألين ؛ لأنه يخاطب قوماً آمنوا ، ويخاطب أيضاً قوماً فيهم أهل كتاب ، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب ، فالظاهر - والله أعلم - أنها مكية ، وإذا جعلناها مكية فإننا لا نقول باستثناء شيء منها ؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكية ، وأن السورة المدنية كلها مدنية ، فمن ادعى استثناء آية ، أو آيتين ، أو أكثر فعليه الدليل ، أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلاً ، فهذا لا يكفي في الاستثناء ؛ لأن الله تعالى قد يذكر معناً يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيداً حتى يكون الناس على بصيرة ، ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى ؛ لأن فيها اليهود ، أما مكة فليس فيها يهود ، فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدنية ، أو بالأحكام المدنية ذهب يستثنى ويقول : إلا آية كذا ، إلا آية كذا ، وهذا غير مسلم .

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿١﴾ البسمة

آية من كتاب الله مستقلة ، يؤتى بها في ابتداء كل سورة ، ما عدا سورة براءة ، وليس البسمة من الفاتحة ولا من غيرها ، هذا هو القول الراجح ، وأما من قال : إنها من الفاتحة وليس من غيرها ، فقوله ضعيف لوجهين :

الأول : للتفريق بدون دليل .

والثاني : أن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي

نصفين»<sup>(١)</sup> ، يدل على أن البسمة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تذكر في هذا الحديث؛ ولأن النبي ﷺ كان لا يجهر بالبسمة في صلاته، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجهر بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فهي : جار و مجرور ، وصفة و موصوف ، وهذا الجار والمجرور متعلق بمخدوف ، وهذا المخدوف يقدر فعلاً متأخراً مناسباً ، وقدرناه فعلاً ، لأن الأصل في العوامل الأفعال ، ولذلك تعمل الأفعال فعلها بدون شرط ، والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد فيها من شروط ، وقدرناه مناسباً أو خاصاً؛ لأنه أدل على المقصود ، وقدرناه متأخراً لفائدةتين :

الأولى : الترك بتقديم اسم الله عز وجل .

الثانية : إفادة الحصر ، فعندما تسمى على الموضوع فالتقدير : باسم الله أتواضاً ، ولو قلت : باسم الله أبتدئ فيصح ، لكن ابتدائي عام ، وأتواضاً أحسن ، والإitan بالأخصوص أدل على المقصود ، ولو قلت : أبتدئ بـ «بسم الله» ، صح لكن فاتك التأخير ، والتخصيص ، والفعالية ؛ لأنك قلت : أبتدئ ، وإذا قلت : «أبتدئ بـ «باسم الله»» فاتك التأخير والتخصيص ، وإذا قلت : «أتواضاً بـ «باسم الله»» فاتك التأخير فقط .

ولو قال قائل : هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من النص ؟

نقول : نعم ، قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٨٥) .

الناس في عيد الأضحى: «من لم يذبح فليذبح باسم الله»<sup>(١)</sup>، أو «فليذبح على اسم الله»<sup>(٢)</sup>، فشخص الفعل.

**لفظ الجلالة:** (الله) اسم الله رب العالمين، وهو أعلم الأعلام، أعلم حتى من الضمير؛ لأنَّه اسم يختص بالله لا يمكن أن يشاركه فيه أحد، ولهذا قالوا: أعرف المعرف على الإطلاق اسم الله؛ لأنَّه لا يشاركه فيه أحد، والضمير إذا قلت «قمت» فلا يشاركني أحد فيه، لكن صالح أن يستعمله غيري، أما الله فلا تصلح الشركة فيه.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ صفتان لله، والرحمن، والرحيم معناهما ذو الرحمة، لكن الرحمن باعتبارها وصفاً لله، والرحيم باعتبارها فعلًا له، ولهذا كان الرحمن عامًا، والرحيم خاصًا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فالرحمن لوحظ فيه الوصف، والرحيم لوحظ فيه الفعل، ولهذا لما لوحظ في الرحمن الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسرعة، فصارت على وزن (فعلان).

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقة الشابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز، وقد أنكرها أهل التعطيل، ومنهم الأشاعرة، وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وفسروها إما

(١) أخرجه البخاري، كتاب العيد، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٩٨٥) ومسلم كتاب الأضحى، باب وقتها (١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قوله ﷺ: «فليذبح على اسم الله» (٥٥٠)، ومسلم، كتاب الأضحى، باب وقتها (١٩٦٠).

بالإرادة، لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإنما بالفعل؛ لأن الفعل منفصل عن الفاعل، - يعني المفعول منفصل عن الفاعل - فهم يفسرونها: إنما بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإنما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يقررون بالإرادة، ولا شك أن قولهم هذا باطل، وأنه إنكار صفة من أعظم صفات الله عز وجل وهي من أبرز صفاتـه، فقد قال الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»<sup>(١)</sup> والعجب كل العجب أنهم يقولون: إن الإرادة دل عليها العقل، والرحمة دل العقل على انتفائها، قالوا: لأن التخصيص دال على الإرادة، فمثلاً هذه سماء، وهذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر، إلى آخره، يدل على الإرادة لأنه لا مخصص إلا بإرادة، أما الرحمة فيقولون: إن العقل لا يدل عليها، بل يدل على انتفائها.

فنقول: عجباً لكم، دلالة العقل على الرحمة أبلغ وأظهر وأوضح من دلالته على الإرادة، ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواص الناس، فلو سالت طالب العلم بدون أن يعرف البحث ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم، لكن الرحمة كل يعرف أن الله تعالى رحمة، ويستدل عليها بالعقل، تأتي العامي في السوق فنقول: نزل المطر، وانضررت الأرض، ورويت الزروع، وما أشبه ذلك، من أين هذا؟ فيقول لك مبشرة: من رحمة الله، فيستدل بالنعم

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمَنًا لِعِيَادَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٤٥٣) ومسلم، كتاب التوبـة، بـاب في سـعة رحـمة الله تعـالـى وأنـها تـغلـبـ غـضـبـه (٦٩٧٠) (١٥).

التي هي من آثار الرحمة على الرحمة، ولكن نسأل الله لنا ولهم الهدایة، من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

قال الله تعالى: ﴿يَسِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - : [﴿يَسِ﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شك أن الله أعلم بمراده ومراد غيره، وأعلم بكل شيء، ولكن ما المراد بهذه الحرفين الهجائيين؟ في هذا خلاف بين العلماء - رحمهم الله تعالى - :

**القول الأول:** ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله: «الله أعلم بمراده به» أي: لا ندرى مادا أراد الله عز وجل.

**القول الثاني:** أن معنى «يس» يا إنسان فـ«يا» حرف نداء على زعمهم، وـ«س» كلمة يعبر بها عن الإنسان.

وبغضهم أتى بغير ذلك أيضاً مما لا طائل تحته ولا دليل عليه، لكن يبقى النظر، هل نقول كما قال المؤلف: [الله أعلم بمراده] بجميع الحروف الهجائية التي ابتدأت بها السور، أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا﴾ . فإن مقتضى اللسان العربي المبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا﴾ على كل كلمة أو حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن «يس» ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المبين، فـ«يا» حرف هجاء ليس له معنى، وـ«س» حرف هجاء ليس له معنى أيضاً، وهذا القول ذكره ابن كثير - رحمه الله - عن مجاهد - رحمه الله - وهو قول قوي، ويشهد له الآية التي استشهدت بها، إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف.

فيرد علينا إشكال: إذا قلنا لا معنى لها، فكيف يأتي الله عز وجل في كتابه العظيم بكلام لغو لا معنى له؟

والجواب على هذا أن يقال: إن له مغزى عظيماً، هذا المغزى هو أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك، لا لأن القرآن أتى بحروف جديدة، أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكونون منها كلامكم، حروف هجائية، ولهذا قل أن تجد سورة مبدوعة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدل على أن هذا هو المراد بها، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وقبله الزمخشري أيضاً في تفسيره، وغيرهم من العلماء، على أن هذه حروف هجائية جيء بها لأجل إظهار عجز العرب عن معارضة هذا القرآن، مع أنه لم يأت بجديد في كلامهم.

﴿وَالْقُرْءَانُ الْحَكِيمُ﴾ الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظم على صورة مخصوصة، ولا بد أن يكون المحلوف به معظمًا ولو تقديرًا في ذهن المقسم، لأن المقسم المعظم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكدي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه. ولهذا لابد أن يكون المحلوف به معظمًا، وإلا لكان الحلف لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيماً في ذاته حقيقة، وقد يكون معظمًا باعتبار المقسم به، فالذين يحلفون باللات والعزى يحلفون بمعظم لا بعظيم؛ لأنه معظم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يقسمون بالله وأياته، يحلفون بعظيم وبمعظم في قلوبهم،

وهو معظم في نفسه. ﴿وَالْقُرْآن﴾، القرآن المراد هذا القرآن الذي نقرأه كلام الله عز وجل، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا لأنه متلو، أو من قرئ بمعنى جمع؛ لأنه مجموع وجامع، فهو مشتق من المعنيين، من القراءة بمعنى التلاوة، ومن قرئ بمعنى جمع، ومنه القرية لأنها مجتمع الناس، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلو، وجامع ومجموع، كلمات مجموع بعضها إلى بعض، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قوله: ﴿الْحَكِيم﴾ صفة للقرآن وهي بمعنى محكم، أو بمعنى مُحَكَّم، أو بمعنى حاكم كلها تحتمل، فالقرآن حاكم لأنه يجب الرجوع إليه ﴿فَإِن تَنْزَعُمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿هَذَا كِتَابًا يَنْظُرُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كَانَاسْتَنْسَخْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> على القول بأن القرآن مُحَكَّم، لأنه متقن للأشياء ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدَقًا وَعَدَلًا﴾<sup>(٣)</sup> وكذلك أيضاً مُحَكَّم؛ لأن الله تعالى أحکمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْيَالًا فَأَكَثِيرًا﴾<sup>(٤)</sup> وهو أيضاً مشتمل على الحكمة، وفيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

أولاً: حكيم في ترتيبه، فكل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الباجة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

لتقصيرنا، فمثلاً لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الْأَصْكَلَوَاتِ وَالْأَصْكَلَوَةِ الْمُسْطَلِ وَقَوْمًا لِلَّهِ قَنْتَيْنَ ﴾<sup>(١)</sup> جاء في سياق آيات العدد مما هو الارتباط؟

نقول: إنه لابد أن هناك حكمة، لكن قصرت أفهمانا عنها، أو قصرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانياً: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة وللعقل الصريح، ولهذا لا تجد شيئاً من أحكام القرآن مناقضاً للفطرة أبداً، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئاً في القرآن يكذبه العقل، أو يحيله أبداً، بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثاً: حكيم في أسلوبه يستند في مواضع الشدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العرب، في بينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به يتنتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوب إلى آخر، وهو ما يسمى بالالتفاتات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف - مقتضراً على واحد منها - : [المُحْكَم بعجيب النظم، وبديع المعاني]، فأتي بمعنى واحد من معاني الحكيم،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومحكم، ومُحْكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المؤلف.

وأقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحكم، ثم ذكر المقسم عليه فقال: «إِنَّكَ أَيْ يَا مُحَمَّدَ لِمَنْ أَمْرَسَلَنَ» (٢) فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمدًا ﷺ من المرسلين، قوله: «لِمَنْ أَمْرَسَلَنَ» (٢) لأن سبقة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ليتم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته بـرجل بنى قصراً وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: «فَإِنَّا لَبَنَةً، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّنَ» (١)، والجملة «إِنَّكَ لِمَنْ أَمْرَسَلَنَ» (٢) مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: القسم، وإن، واللام.

قال المؤلف: [«لِمَنْ أَمْرَسَلَنَ» (٢) عَلَى] متعلق بما قبله، الذي قبله «أَمْرَسَلَنَ» (٢)، مرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلّق به المعمول، فالمعنى: «إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم» لأن جميع الرسل على صراط مستقيم بلا شك، ولكن يحمل وجهاً آخر أحسن مما قال المؤلف، وهو أن تكون «عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣) خبراً ثانياً لـ(إن)، أي: إنك على صراط

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

مستقيم، وهذا أنساب، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَمْأُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾<sup>(١)</sup> . فالوجه الثاني في إعراب ﴿ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أنها خبر ثان لـ (إن)، وقوله : ﴿ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال المؤلف : [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدي ، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له : لست مرسلًا] ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الظَّالِمُونَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾<sup>(٢)</sup> إذن فالكلام مطابق لمقتضى الحال؛ لأنه يخاطب المنكر ، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمخاطب ثلاث مراحل : أن يكون منكراً ، أو أن يكون متربداً ، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد ، قالوا : فإن كان منكراً وجب تأكيد الخبر له ، وإن كان متربداً حسن أن يؤكد له الخبر ، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء ، فإنك تلقى إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل . فتخاطب إنساناً ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد ، تقول : زيد قائم ، وإذا كنت تخاطب متربداً في صحة الخبر فأكده له استحساناً ، وإذا كنت تخاطب منكراً فإنه يجب أن تؤكده له الخبر . هذا هو الأصل ، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد ، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق . فهنا الكفار يقولون : لست مرسلًا . فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجباً يعني مما توجبه البلاغة ، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه ، بل

(١) سورة الشورى ، الآيات : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٤٣ .

وجوب من حيث البلاغة.

﴿عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط فعال بمعنى مفعول؛ لأن فعلاً تأتي بمعنى مفعول كثيراً، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش، فصراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصراط: المرور بسرعة، ومنه قولهم: «صراط اللقمة» أي ابتلعها بسرعة، وفي اللهجة العامية عندنا نقول: «زرط». وهي لغة عربية في صراط، و«سراط» بالسين و«زراط» بالزاي فكلها لغة عربية، والصراط لا يكون صراطاً إلا إذا كان طريقاً واسعاً يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضاً من صفاته أن يكون مستوياً ليس فيه طلوع ولا نزول ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراط مستقيم، لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضاً صراط واسع لا يمكن أبداً أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بعث الرسول ﷺ إلى يوم القيمة لابد أن يوجد حل لمشكلتها - إن كانت مشكلة - فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضاً واسع لا يمكن أن يضيق بأي جزئية تقع إلى يوم القيمة، إذن ليس هناك مشكل في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قبل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقدير في طلب العلم والهدى، أو الأشياء رأت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تبصر الحق، فقد يكون

الإنسان غير مقصراً ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنه آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تحول بينه وبين رؤية الصواب، ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مستنيراً، وربما يستبسط هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ إِمَّا أَرَيْكَ اللَّهُ أَوْ لَا تَكُنْ لِلْخَائِفِينَ خَصِيمًا﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١﴾ (١) ويستدل له أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِذَا ثُلِّيَ عَلَيْهِ إِيمَانُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ كَلَّا بَلْ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ (٢) . فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقيـة هذا الكتاب حتى قال القائل: إنها ﴿أَسْاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهذا الدين صراط مستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقديرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

### \* في الآيات الكريمة فوائد منها:

- ١ - بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم، وإنما من الحروف التي يركبون منها كلامهم، يشير إلى هذا قوله: ﴿يَس﴾ (١) ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أول السورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

(١) سورة النساء، الآيات: ١٠٥، ١٠٦.

(٢) سورة المطففين، الآيات: ١٣، ١٤.

٢ - ومن فوائدها: عظمة القرآن العظيم؛ لأن الله تعالى أقسم به، ولا يقسم إلا بشيء معمظ. والقرآن الكريم عظيم في نفسه.

٣ - ومن فوائدها: الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها عند قوله: ﴿ وَالْقُرْءَانُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

٤ - من فوائدها: العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها، وأكدها زيادة على القسم بإأن واللام.

٥ - ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

٦ - من فوائدها: إثبات الرسل وأن ثمة رسلاً غير محمد ﷺ لقوله هنا: ﴿ لَمَنِ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) يعني لست أول رسول فإنه قد سبقه رسل من قبله.

٧ - من فوائدها: أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المستقيم، لقوله: ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) والصراط المخالف للشرع فيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.

\* \* \*

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٥) ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ خبر مبتدأ محدوف تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن متنزّل يعني ينزل شيئاً فشيئاً كما قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا

فَرْقَتْهُ لِنَقْرَاءِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلَنَاهُ نَزِيلًا ﴿١﴾ فَإِنَّهُ يَنْزَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَعْبُرُ أَحْيَاً نَّا عن الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ بِالْعُتْبَةِ الْمُهَايَةِ، فَإِنَّهُ بِالْعُتْبَةِ الْمُهَايَةِ يَكُونُ نَزَّلَ كُلَّهُ، وَبِالْعُتْبَةِ الْمُهَايَةِ يَكُونُ مَنْزِلًا، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ نَزُولُ الْمَطَرِ، أَحْيَا نَّا يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرِّكًا﴾<sup>(١)</sup> وَأَحْيَا نَّا يَقُولُ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> فَبِالْعُتْبَةِ الْمُهَايَةِ يَنْزَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا يَقُولُ: «نَزَّلَنَا» وَبِالْعُتْبَةِ الْمُهَايَةِ وَاجْتِمَاعِهِ كُلِّهِ يَقُولُ: «أَنْزَلَنَا» وَقُولُهُ: ﴿الْعَزِيز﴾ قَالَ الْمُؤْلِفُ: [فِي مُلْكِهِ] يَعْنِي الْغَالِبِ فِي مُلْكِهِ الَّذِي لَا يُغْلِبُ فِيهِ، وَقَدْ مَرَ عَلَيْنَا فِي بَابِ الْعِقِيدَةِ أَنَّ الْعَزِيزَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لَهَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ: عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ الْامْتِنَاعِ.

فَعِزَّةُ الْقَدْرِ بِمَعْنَى أَنَّهُ ذُو قَدْرٍ عَظِيمٍ رَفِيعٍ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَاهِرٌ غَالِبٌ، وَعِزَّةُ الْامْتِنَاعِ أَيُّ أَنَّهُ قَوِيٌّ لَا يَنْالُهُ شَيْءٌ،

قَالَ ابْنُ الْقَيْمَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - :

وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَمْ يَرَمْ جَنَابَهُ  
أَنَّى يَرَمْ جَنَابَ ذِي السُّلْطَانِ  
فَإِنَّهُ عَزٌّ وَجَلٌ عَزِيزٌ مُمْتَنَعٌ أَنْ يَنْالَهُ السُّوءُ، وَمِنْهُ (الْأَرْضُ  
الْعَزَّازُ) لَقْوَتُهَا وَشَدَّتُهَا فَقُولُ الْمُؤْلِفُ: [الْعَزِيزُ: فِي مُلْكِهِ] فِيهِ  
قَصْوَرُ، قَالَ الْمُؤْلِفُ: [الرَّحِيمُ: بِخَلْقِهِ] وَهُنَا نَقُولُ: إِنَّ الرَّحِيمَ  
عَامَّة، لَا إِنَّهَا لَمْ تَقِيدُ، فَالْمَرَادُ بِهِ الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ، فَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة ق، الآية: ٩.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

وتعالى رحيم بخلقه كلهم، ﴿وَمَا مِنْ دَبَّابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رُزْقُهَا﴾<sup>(١)</sup> حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الأسمين، ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإن أمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى - بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، وفيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارة إلى أن هذا القرآن من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المؤلف رحمه الله: [خبر مبتدأ مقدر، أي: القرآن] يعني بخبر مبتدأ مقدر ﴿تَنْزِيلٌ﴾ بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وعلى هذه القراءة يكون منصوباً على أنه مصدر عامله ممحوظ، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

### \* الفوائد:

١ - أن القرآن منزل من عند الله لقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ﴾

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

## الرَّحِيمُ

- ٢ - يستفاد منها أن القرآن كلام الله غير مخلوق.
  - ٣ - إثبات علو الله لقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ﴾ والنزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عز وجل دل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفترة، كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على علو الله عز وجل.
  - ٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله، وإثبات ما تضمناه من الوصف، وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم، والعزيز في بعض معانيه وهو الغالب.
  - ٥ - ومن فوائد الآية: إنذار المخالفين لهذا القرآن وذلك بإضافة ﴿تَنْزِيل﴾ إلى العزيز؛ لأنه إذا قيل: جاء هذا من عزيز، دل على إنذار من خالقه وتحذيره، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المنزل؛ لأنه نزل من عزيز.
  - ٦ - أن القرآن بل أن الشرع كله من آثار رحمة الله لقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.
- فإن قلت: أين الرحمة في قطع يد السارق؟ وفي رجم الزاني المحسن؟ وفي قتل القاتل؟ وما أشبه ذلك.
- فالجواب: أن الرحمة في ذلك واضحة جداً، فقطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وغيره، رحمة بالسارق لتردعه عن السرقة مرة أخرى، ولتكون كفارة للذنب؛ لأن الحدود كفارة، يكفر بها عن فاعلها، وفيها أيضاً إصلاح المجتمع وحمايته من

الفوضى، فهذه رحمة، وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص إنه من رحمة الله عز وجل.

\* \* \*

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ قال المؤلف: [﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل]. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هذه تسمى لام التعليل، والفعل بعدها منصوب باللام، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى متعلق، ومتعلقتها قوله: ﴿تَنْزِيل﴾ يعني إنما نزل لتنذر قوماً ما أنذر آباءُهم فهم غافلون. «تنذر»: قال العلماء: الإنذار هو الإخبار المقررون بالتخييف، أو المتضمن للتخييف، فالإنسان مثلاً يأتي إلى قوم يصبح بهم: العدو، العدو. يقال: هذا منذر ونذير، فالنذير عن شيء يخوف، فهو إعلام متضمن للتخييف، هذا القرآن أنزله الله عز وجل لينذر النبي ﷺ به ﴿قَوْمًا مَا أُنذِرَ أَبَاؤُهُمْ﴾ أي: لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا فـ(ما) نافية، يعني: لتنذر قوماً لم ينذروا ولم يخوفوا، لكن هذا في زمن الفترة، وأما قبل فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهمما الصلاة والسلام، فإنه مرسلاً إلى العرب إلى قومه، وبعد ذلك لم ينذر هؤلاء، قال بعض المعربين الذين يجمعون الأقوال - صحت أو لم تصح أي منهم يقولون أي احتمال - قالوا: ويجوز أن تكون «ما» موصولة، أي: (لتنذر قوماً الذي أنذره آباءُهم) فيجعلون ما موصولة، ويجعلون العائد محدوداً تقديره (الذي أنذره آباءُهم) أي: لتنذرهم الذي أنذره آباءُهم، ولكن هذا وإن كان محتملاً من

قبل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعنى، لأن الآيات الكثيرة المتعددة تدل على أن قريشاً الذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ لم يتذر آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿لِتُنذَرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ إِنْ فَتَّلَكَ﴾<sup>(١)</sup> وهذا صريح في أن «ما» هنا للنبي لا غير. قال المؤلف - رحمة الله - ﴿فَهُمْ﴾ أي: القوم ﴿غَافِلُونَ﴾ عن الإيمان والرشد] غافلون لأنهم ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه، ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاهم واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكأنهم ما خلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله، ويرکعون لها، ويسبدون، وينذرون ويوفون، فهم غافلون لعدم من يوقظهم، ولكن من هؤلاء الذين في زمن الفترة من عنده علم من الرسالة لكنه عائد وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة ولو لا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

ونوع لا ندرى عنهم شيئاً، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.

وأصح الأقوال فيهم أنهم ممتحنون يوم القيمة بتکاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

\* \* \*

### \* الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ منذر، أي معلم إعلاماً يتضمن التخويف.  
فإن قيل: وهل هو مبشر؟

فالجواب: نعم، مبشر، ولكن لم ذكر هنا ذكر الإنذار دون البشارة؟ والجواب على ذلك أن يقال: إما لأن المقام يقتضي ذلك، لأنه يخاطب قوماً طاغين، فالألق في حقهم الإنذار والتخويف؛ لأنهم مخالفون وطاغون.

وإما أن يقال: إن هذا من باب ذكر أحد المتقابلين استغناه بذكره عن ذكر الآخر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيرًا تَقِيمُكُمُ الْحَرَّ﴾<sup>(١)</sup> يعني والبرد.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ مرسلاً إلى العرب خاصة لقوله: ﴿مَا أَنذَرَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهي نكرة مقصودة، والذين ما أذنروا آباءهم هم العرب، إذن اليهود والنصارى ما أرسل إليه لأنهم أذنروا آباءهم، ولكن نقول: إن الآيات الأخرى تدل على عموم رسالته ﷺ مثل قوله: ﴿فُلْ يَكَيْتَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup> ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

**لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴿١﴾ وقوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»<sup>(١)</sup> والنصوص في هذا كثيرة متوافرة، ومن كذبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضاً؛ لأن الجنس واحد.

لكن قد يقال: لماذا خص العرب؟

فيقال: خصهم لأمرين:

**الأول**: أنه منهم، كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ خَلْقًا مِّنْهُمْ﴾**<sup>(٢)</sup>

**والثاني**: أنه باشر دعوتهم بنفسه، وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثم انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير - رحمة الله - هنا قاعدة وهي: «أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه لا يقتضي التخصيص» كما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي - رحمة الله - في تفسيره وغيره، وأن هذا هو رأي الجمهور، وهو الحق، فذكر بعض أفراد العام بحكم لا يقتضي التخصيص إذا كان يطابق حكم العام، فإذا قلت: أكرم الطلبة. ثم قلت: أكرم زيداً. وهو منهم، فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العام، وذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام ليس تخصيصاً له.

**٣ -** ومن فوائد الآية الكريمة: سب هؤلاء الذين غفلوا عن الرسالات لقوله: **﴿فَهُمْ غَفِلُونَ﴾** وأن الغفلة عن البحث عن

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً» (٤٣٨) ومسلم، كتاب المساجد، باب المساجد ومواضع الصلاة ٥٠٢٣).

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الرسالة يعتبر ذمًا، وكذلك نقول فيمن غفل عن البحث في جزئيات الشريعة، فمثلاً من غفل عن البحث في أحكام الصلاة فإنه يذم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو يحتاج لذلك نقول: إنه يذم، ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادة من العبادات كان تعلم أحكامها فرض عين، وبناء على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائمون بفرض كفاية، ولهذا يحسن بهم أن يستحضروا هذا الأمر، وأننا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية ثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه»<sup>(١)</sup> . وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الطلبة، لا في المجالس الذكر والعلم ولا في المجالس الأخرى مجالس المراجعة، تجد الإنسان يراجع الكتاب لكنه لا يستحضر أنه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يفوت خيراً كثيراً، لهذا نسأل الله أن يعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكتسب خيراً بما نقرأه أو نراجعه.

٤ - ومن فوائد الآية: إثبات الحكمة لله المستفاد من قوله ﴿لِتُنذَر﴾.

\* \* \*

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٧)</sup> اللام موطنة للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسمًا محذوفاً تقديره: والله لقد حق. و«قد» للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

كثيراً وطريقه ما أشرنا إليه. «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ» أي وجب «القول» هو القول بالعذاب كقوله تعالى: «كَذَّلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»<sup>(١)</sup>. في الآية الأخرى: «وَكَذَّلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْبَحُوكَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدى منها أوتى من آية، ولكن لا تتحقق كلمة العذاب إلا على من استحقها حتى لا يقال: إن الله تعالى قد أجبره على العمل، لقوله تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»<sup>(٣)</sup> والله عز وجل ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلاً للهداية هداه، ومن لم يكن أهلاً لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيف - والعياذ بالله - فإنه لا يؤمن، وقوله: «عَلَى أَكْثَرِهِمْ» يعني على أكثر الذين بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب، وليس على كلهم، ولذا فقد كذب النبي ﷺ من قريش أمم كثيرة و Mataوا على الكفر، ولا سيما الصناديد منهم والأشراف، «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»<sup>(٤)</sup> (هم) الضمير يعود على أكثر، لا على «الهاء» في «فَهُمْ» «فَهُمْ» أي: الأكثر لا يؤمنون؛ حتى وإن جئت بالأيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون، لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

### \* الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن

(١) سورة يونس، الآية: ٣٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦.

(٣) سورة الصاف، الآية: ٥.

المخاطب منكراً؛ لأن الله سبحانه هنا يخبر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهم لا ينكرون ذلك، لكن لأهميته أكمل.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من حقت عليه الكلمة العذاب فإنه لا يؤمن، كما في قوله: «أَفَنَحَقَ عَلَيْهِ كَلْمَةُ الْعَذَابِ أَفَإِنَّ تُنْقِدُ مَنْ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup> أي فقد ثبت أنه في النار فلا تنقذه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قریش الذين كذبوا الرسول ﷺ من لم تتحقق عليه الكلمة فيؤمن لقوله تعالى: «عَلَىٰ أَكْثَرَهُمْ» .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنه ينبغي بل يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده ملوكوت السموات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرّب إليك هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائماً لاجئاً إلى الله تعالى سائلاً الثبات لقوله: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ» فالأمر كله بيده الله.

\* \* \*

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَقِهِمْ أَغْلَالًا فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَسُونَ﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا، ولهذا نصبت مفعولين، المفعول الأول: أغلالاً، والمفعول الثاني: مقدم، «في أَعْنَقِهِمْ» وقوله: «أَغْلَالًا» الغل يكون باليد، كما قال تعالى: «عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ»<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الزمر، الآية: ١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وهنا قال: **﴿فِي أَعْنَقِهِمْ﴾** فمعنى أن اليد سوف تشد إلى العنق، وهذا قال المؤلف: [بأن تضم إليها الأيدي؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، **﴿فَهِيَ﴾** أي: الأيدي مجموعة **﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾**، قوله: «مجموعة» أخذها من قوله: **﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾** ويجوز أن نقدر بدل «مجموعة» منتهية أو باللغة **﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾** جمع ذقن، وهو مجمع اللحين، واللحيان هما العظامان اللذان عليهما الأسنان، ومجملها يسمى الذقن، **﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾** يقول المؤلف - رحمه الله -: [رافعون رؤوسهم]، والأحسن أن يقال: مرفوعو الرؤوس، لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس قال: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها] لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداه بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لا بد أن يرتفع رأسه اضطراراً، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مغمضة أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، فالهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم، وبالنسبة لرؤوسهم لا يستطيعون تنزيلها، فهي دائماً مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المكذبين كما قال المؤلف: [وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان، ولا يخضون رؤوسهم له].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ قال المؤلف: ﴿سَكَّا﴾ [بفتح السين وضمها في الموضعين]، قراءتان سبعitan، أي: سُدًّا وسَدًّا ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر، ولهذا قال المؤلف: ﴿فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ [تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم] ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلاً، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان - والعياذ بالله - وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدموه، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتاخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ فتأمل أيضاً حالهم الآن، أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

**فنسفيد من هاتين الآيتين الكريمتين فوائد:**

١ - أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولة يده إلى عنقه لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ .

٢ - أن هذا الذي جعلت يده إلى عنقه على سبيل الغل كأنه مكره أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يقعه في الهلاك كأنه مكره على ذلك، ألم تروا إلى ما حرى

للأبوبين حين جاء إليهما الشيطان ووسوس إليهما، ولم يكتفي بمجرد الوسوس بل قاسمهما وصار يحلف لهما بشتى الأيمان أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يغويه.

- ٣ - ومن فوائد الآيتين الكريمتين: أن هؤلاء قد حجب عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.
- ٤ - ومن فوائدها أيضاً: أن أبصارهم قد أغشيت وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

٥ - ومن فوائد الآيتين: تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه وحيل بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت من نفسك أن الهدى ينفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير، نحن نقيس هذا بحال هؤلاء جعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر فتداركها.

- ٦ - إن من بлагة القرآن الكريم تمثيل المعقول بالمحسوس.

\* \* \*

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَسَوَاءٌ﴾  
خبر مقدم بمعنى مستوٍ، و﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوك بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبك وما بعدها بمصدر، وتقدير الكلام: «إنذارك وعدمه سواء عليهم» ﴿وَسَوَاءٌ﴾ هنا لم يقل

فيها: «سواء ان» لأنها مصدر، والمصدر لا يشتمل ولا يجمع. قال المؤلف في بيان القراءة في قوله تعالى: ﴿أَنذرْتَهُم﴾ [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفاً وتسهيلاً، وأدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل يجعل فيها ألفاً أو تمحى ألف إدخال ألف بين الهمزة المحققة والمسهلة ﴿أَنذرْتَهُم﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى محققة، والألف، والهمزة الثانية مسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستتحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المؤلف من عادته إذا جاءت قراءة شادة غير سبعية يقول: (وَقُرِئَتْ)، وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.

والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بين وجه التسوية فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>v</sup> هذا معنى التسوية، يعني معناه: إنذرت أم لم تنذر فإنهم لا يؤمنون، ولهذا فالجملة هنا استئنافية بيان للجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء إنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مشاهد أن الإنسان الذي قد قضي عليه بالضلاله - والعياذ بالله - تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى وتبيّن له وتحذره ولكن لا يزداد إلا نفوراً - والعياذ بالله - حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزء، فعلى كل حال هذا الذي ينذر ولا يتأثر بالإإنذار يخشى عليه، كما أسلفنا من أن يكون قد طبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبداً.

## \* الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لا يبالون ولا تغير حالهم، سواء أذرهم أم لم ينذرهم.

٢ - ومن فوائدها: تسلية النبي ﷺ حيث إنه يتاثر بعدم الإيمان فسلاه سبحانه وتعالى بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، سواء أذرهم أم لم ينذرهم. والرسول ﷺ إذا لم يهتد الناس فإنه يشق عليه ذلك ويضيق به صدره، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِتَحْكُمِنَا لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>. أي لعلك مهلكها إذ لم يؤمنوا، وهذا ليس عليه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ كان ينذرهم مع أنه قد أيس منهم، فيستفاد منه الإنذار حتى وإن يئست، وهذا أحد القولين في المسألة، فإن من أهل العلم من يقول: إذا أیست فلا تنذر ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الْذِكْرَى﴾<sup>(٢)</sup>. وإن لم تنفع فلا تذكر.

وقال بعض العلماء: بل تذكر وتنذر، سواء نفع أم لم ينفع، بل يقولون: إنه لا يخلو من النفع مهما كان؛ لأن أقل ما فيها من النفع أن يتبيّن للناس أن العمل الذي عليه هذا الرجل منكر، وأنه ربما يهديه الله عز وجل، فكم من أنسٍ كانوا أئمة في الكفر ثم هداهم الله عز وجل فكانوا أئمة في الدين.

٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة

(١) سورة الشعرا، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٩.

العذاب، ومن حقت عليه الكلمة فلا يمكن أن يؤمن، سواء أندر أم لم ينذر.

٥ - أن الأمر كله بيد الله عز وجل، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ولكن هذا مترون بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يهتدي هداه الله، ومن اقتضت حكمته أن يضل أضلها الله، وهذا مبني على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ أَرَأَغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> وحيثند يكون حرمان الله الهدایة للشخص، يكون الشخص هو السبب في حرمان نفسه الهدایة؛ لأنه ليس أهلاً لها، فالله عز وجل ينظر في قلوب العباد من وجد في قلبه صلاحية للهدايى هداه، ومن وجد في قلبه عدم الصلاحية لم يهده، فأصل بلائك من نفسك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الضال - والعياذ بالله - الذي كتبت عليه الضلال لا يبصر الحق وإن كان الحق بيناً واضحاً فإنه لا يصره، يكون على بصره غشاوة، كما أنه لا يعقله أيضاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا ثُنِلَ عَلَيْهِ مَا يَنْتَهِي إِلَى أَسْطِيرِ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> كلاماً بل ران على قلوبهم مَا كَافُوا يَكْسِبُونَ<sup>(٣)</sup> الذي يعتقد أن القرآن أساسطير الأولين وأنه لا يفيد، وأنه بمنزلة سواليف العجائز، يرى هذه الرؤية في كتاب الله عز وجل، لأنه فاسد القلب، قلبه قد ران عليه ما كان يكسبه من الأعمال السيئة فلم ير الحق حقاً.

ومن يكُ ذافم مر مريض يجد مراً به الماء الزلا

(١) سورة الصاف، الآية: ٥.

(٢) سورة المطففين، الآيات: ١٣ ، ١٤.

الماء الزلال الصافي الحلو العذب يجده المريض مرّاً، فإذا مرض الإنسان ذاق الماء الذي كان عذباً في مذاقه من قبل يجده الآن مرّاً، لأن الماء مر، ولكن لأن المحل غير قابل، فيجد هذه العذوبة مرارة.

\* \* \*

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبِشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقه: «إنما» والتقدير: «لا تنذر إلا من اتبع الذكر» قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المراد بذلك إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإذارك إلا من اتبع الذكر، ولهذا قال المؤلف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن]. والمراد بالاتباع في قوله: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المراد باتباع الذكر شيئاً:

الشيء الأول: تصدق الخبر، واعتقاد مقتضاه.

والثاني: امثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر فمن استكباره بما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومن لم يصدق بأخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصدق الأخبار، واتباع الأحكام: فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور، قوله: ﴿الذِّكْرَ﴾ المراد به القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾<sup>(١)</sup> وسمى القرآن ذكراً:

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرَنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهُلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾<sup>(١)</sup>.

ثانياً: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُفْلِي الْأَلَبَّى ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيمة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِذِكْرٍ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشَتَّلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم هم الأمة الذين ترجع إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم، فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم.

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي، لأن هذا هو عدل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل. فلهذا سمي القرآن ذكراً.

قال الله عز وجل: ﴿ وَخَشِئَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ «خشى»: يقول المؤلف: [خافه ولم يره]، وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فسر بمراده، فتفسير الشيء بمراده يسمى حدّاً لفظياً، فإذا

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

قلت : القمح هو البر . فهذا حد لفظي ، و تفسير الخشية بالخوف فيه نظر ؛ لأن هذا الحد غير مانع ؛ لأن الخشية ليست مجرد الخوف ، بل الخشية هي : الخوف عن علم بالمخوف و عظمته ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمُوْا﴾<sup>(١)</sup> فالخوف قد لا يكون لعظم المخوف ، ولكن لضعف الخائف . لكن الخشية لا تكون إلا لعظم المخوف إذا عرفها الخاشي عظم هذا المخشي فخشيه ، إذن بينهما فرق ، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر ، والصواب أن يقال : الخشية هي الخوف عن علم بعظم المخوف ، فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي ، أما الخوف فقد يكون ناشئاً عن ذلك ، وقد يكون ناشئاً عن ضعف الخائف .

وقوله : ﴿الرَّحْمَن﴾ اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل ؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم ، فطمأن الله الخائف والخاشي بأنه إنما يخشى رحманاً يرحمه ، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك ؛ لأن الله - عز وجل - إذا خافه الإنسان وخشيه ، فإنه يرحمه ؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره ، ويتجنب نواهيه ، وحيثند يكون متعرضاً للرحمة ، هذه المناسبة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة : (الله) والله أعلم .

وقوله : ﴿يَالْغَيْبِ﴾ قال المؤلف : (ولم يره) كأنه يفسر أن المراد بالغيب : أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه ، فيكون بالغيب حالاً من المخشي ، يعني يخشى الله والله غائب عنه ، هذا أحد

الوجهين في الآية.

**الوجه الثاني:** يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالاً من الخاشي، يعني أن هذا الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب حال كونه غائباً عن الناس، خشي الله بالغيب أي بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقة؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مراءة الناس، ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في مكان لا يطلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاشي ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها. فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله عز وجل؛ لأن الذي يخشى الله لابد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضورة الناس، أو بغيبة الناس، أيضاً يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأ بصار نظراً، وعن الأذان سمعاً، وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم ملاحظة من خشية الجوارح. لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مراقباً لله عز وجل ولحقه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يصلی ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يراقبها الإنسان

ويحرص عليها حرصاً تاماً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَخَشِنَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾ إذاً الراجح من القولين أن قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي أي يخشى الله تعالى غائباً عن الخلق، ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الأذان، وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: [ولم يره] واعتبر أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله عز وجل لا يرى في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة كأن الإنسان يرى ربه، ولهذا قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>. فآيات الله سواء الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاتة، ظهوراً بينما كأنما يشاهد الله عز وجل، فالصواب إذا المعنى الأول لأننا نقول: وإن لم نر الله لكن نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته، قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿تَنْذِرُ﴾ من باب المتقابلات تنذر فينتفع بالإذنار، وإذا انتفع بالإذنار حصل له الثواب فاستحق البشاره ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنة بمغفرة للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكرم يتضمن:

- ١ - كرم الذات العيني.
- ٢ - وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) (٨).

«إياك وكرائم أموالهم»<sup>(١)</sup>. يعني الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نسبت هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته، وبصفاته أيضاً، طعمه ورائحته وغير ذلك هو أيضاً أكرم.

٣ - كريم أيضاً من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تبيع علي سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة أجر الآخرة أكرم وأعظم، لأنك تبذل واحداً وتُعطى عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه في: عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا [وأجر كريم هو الجنة] هذا تفسير للمراد، لا للمعنى، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

### \* الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية: أنه لا ينتفع من إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من اتصف بهذين الوصفين «إِنَّمَا يُنذَرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ».

٢ - ومن فوائدها: صحة نفي الشيء إذا كان لا ينتفع به وإن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهدتين وشرائع الإسلام (٢٩١٩).

كان موجوداً، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذَرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْر﴾ فإن إنذاره لغيرهم حاصل، لكن لما لم يتذمروا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أما المنذر فقد قام بما يجب عليه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن كان أشد تأثراً به، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذَرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْر﴾ وبهذا نعرف القاعدة التي ذكرها بعض العلماء: (الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تجلب المعصية)؛ لأنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن صار أشد تأثراً به، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذَرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْر﴾.

٤ - ومن فوائد الآية: الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر، وسبقت الأوجه في كونه ذكراً.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخشية الله سبب عظيم للتاثير بالقرآن والانتذار به، لقوله: ﴿وَخَشِئَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾.

٦ - ومن فوائدها: بيان فوائد الخشية الله، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشع لربه كان أفهم بكلامه.

٧ - ومن فوائدها: أن الخشية إنما تكون خشية حقيقة إذا كانت بالغيب، أما من خشي الله تعالى بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة، قد يكون خشي الله عز وجل من أجل أن الناس يرونها، لكن إذا كان بالغيب كان أدل على الإخلاص.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن تبشر من اتصف بهذه الوصفين: وهو اتباع الذكر، والخشية الله عز وجل بالغيب فبشره بالجنة ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (١١). ولكن هل تنطبق هذه

## البشرة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العموم، وكل شخص اتصف بما ثبت به الجنة على سبيل العموم فإننا لا نشهد له بعينه ولكن يرجى له ذلك؛ لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سبب الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار»<sup>(١)</sup>. لهذا نقول في كل من ينطبق عليه وصف يستحق به دخول الجنة نقول: إننا لا نشهد له بعينه؛ لأن الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل معين، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظاهر الأمر أنه يستحق؛ لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهد لأنه يخشى أن يكون باطنه غير ظاهره. وهذه القاعدة مهمة مفيدة، مثلاً: قتل رجل من يجاهد مع جيش، ظاهر جميع المجاهدين أنهم يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، فهل إذا قتل على أيدي الأعداء نشهد بأنه شهيد؟ لا نشهد بأنه شهيد، ولكن نقول: يرجى أن يكون شهيداً، يعني من الشهداء عند الله عز وجل، لأن ظاهر فعله ينطبق على الشهداء عند الله عز وجل، ولكن لا نشهد له بعينه، ولهذا ترجم البخاري - رحمه الله - على هذه المسألة في الصحيح قال: «باب: لا يقال فلان شهيد» ولكن كلمة (شهيد) صارت الآن رخصة تبذل بأبخس الأثمان، فأي واحد يقتل ولو في قتلة جاهلية يقولون: هو شهيد. وهذا لا يجوز، أتدرى ما

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب: لا يقال: فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم قتل الإنسان نفسه (١٧٩) (١١٢).

يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم بأنك شهدت له بأنه من أهل الجنة، وهذه مسألة صعبة، لكن كما قلنا آنفاً في القاعدة النافعة: (إن من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجوا له ذلك) أما أن نجزم فلا .

فهذا الذي اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب، هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم؟ نقول: نعم، من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم، لكن على سبيل التخصيص نرجوا له ذلك .

٩ - من فوائد الآية الكريمة: أن البشرة تكون بانتفاء ما يكره وبحصول ما يحب ﴿يَمْغَفِرَة﴾ انتفاء ما يكره ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حصول محبوب، فيهنا الإنسان ويشير بزوال المكرور عنه، وبحصول المحبوب، اجتماعاً وانفراداً، يعني سواء حصل له الأمان، أو حصل له أحدهما فإنه يبشر بانتفاء الشر عنه، كما يبشر بحصول الخير له .

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم، فإن ﴿يَمْغَفِرَة﴾ في مقابل الذنوب ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة .

\* \* \*

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْكِمُ الْمُؤْمَنَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ . مناسبة هذه الآية لما قبلها، لها مناسبتان :

المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من يتتفع بذكرى الرسول

وَمِنْ لَا يَتَفَعَّلُ وَمِنْ كُلًاً مِنْهُمْ سُوفَ يَحْيَا بَعْدَ مَوْتِهِ وَسُوفَ يَجَازِي عَلَى عَمَلِهِ فَالْمُنَاسِبَةُ ظَاهِرَةٌ فِيهَا بُشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِ الْمُتَنَذِّرِ وَفِيهَا إِنْذَارٌ وَتَحْوِيفٌ لِمَنْ خَالَفَ.

**ال المناسبة الثانية:** أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادر على إحياء الموتى إحياء حسيًا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنوياً. قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَأَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ ضمير جمع، والله عز وجل واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعاً. ﴿نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَأَ﴾ ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فعل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنا نحيي الموتى» استقام الكلام، فهي ضمير فعل للتخصيص يعني: نحن لا غيرنا، ﴿الْمَوْتَأَ﴾ جمع ميت، ويشمل الموتى من بني آدم وغيرهم، لكن قوله: ﴿وَنَكَتَبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُمْ﴾ يدل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفراده، فهل هذا يخصص العموم أو لا يخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرف العلماء - رحمهم الله - وجدنا أنهم أحياناً يجعلونه مخصصاً للعموم، وأحياناً لا يجعلونه مخصصاً للعموم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرِبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةٌ قِوْسَةٌ وَلَا يَحْلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمُنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْبَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدْهَنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾<sup>(١)</sup> هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله

تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتِ يَرْبَصُنَ بِأَنفُسِهِنَ تَلَكَّثَةٌ قُرُوعٌ﴾ يشمل من لها رجعة ، ومن ليس لها رجعة ، فهذا العموم ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَبِعَوْلَتِهِنَ﴾ أي بعولة المطلقات ﴿أَحَقُّ بِرَدْهَنْ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ هذا الحكم يختص بالرجعيات فهل نقول : إن المراد بالمطلقات في قوله : ﴿الْمُطَلَّقَاتِ يَرْبَصُنَ﴾ المراد بها الرجعيات أو هو عام ؟ أكثر العلماء على أنه عام . ومن السنة قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم ، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة»<sup>(١)</sup> في هذا عموم ، وفي هذا حكم تعقبه يختص بعض أفراد هذا العموم ، فهل نأخذ بالعموم ، أو نأخذ بما يتضمنه الحكم المعقب ؟ فقوله : «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم» يشمل كل ما لم يقسم حتى لو كان بينك وبينه سيارة تبيع نصيبك منها ففيها الشفعة ، أخذنا بالعموم «بكل ما لم يقسم» قوله : «إذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة» هذا يختص بالأراضي ، فهل نقول : إن قوله : «في كل ما لم يقسم» يختص بالأراضي بدليل الحكم المفروع ، ونقول : إذا كان شريكك في سيارة وباع أحدهما نصيه فلا شفعة للثاني ، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به ؟ فيه أيضاً خلاف في هذه المسألة ، والذي نحن فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْكِمُ الْمَوْقَعَ﴾ يشمل كل ميت حتى البهائم ﴿وَنَكَّبْتُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُم﴾ هذا خاص بالمكلفين فهل نقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْكِمُ الْمَوْقَعَ﴾ أي : من المكلفين

(١) آخر جه البخاري ، كتاب البيوع ، باب بيع الشريك من شريكه (٢٢١٣).

بدليل قوله: ﴿وَنَكِتُبْ مَا قَدَّمُوا﴾ أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ يبني على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموه وأثارهم؛ بدليل قوله: ﴿وَنَكِتُبْ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُم﴾.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم ﴿الْمَوْتَ﴾ كل ميت ﴿وَنَكِتُبْ﴾ ما قدم بعضهم وهم المكلفوون.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلف: [وكل شيء نصبه بفعل يفسره: أحصيناه] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ (كل) هذه مفعول لفعل محدود يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلى هذا فيكون التقدير: «أحصينا كل شيء» ولا تجمع بين المفسّر والمفسّر، ولا تقل التقدير: «أحصينا كل شيء أحصينا» لأنه لا يجمع بين المفسّر والمفسّر، فإذا أردت أن تقدر فقل التقدير: وأحصينا كل شيء في إمام مبين، لكن جعلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المسند إليه مرتين لأن ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ والضمير في ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعودان على شيء واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وهذا التركيب يسمى عند النحوين الاشتغال، والاستغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكرابة، والمنع، لكن هذا وجوب نحوه وليس وجوباً شرعاً، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يتراجع نصبه، وتارة يتراجع رفعه، وتارة يستوي

الأمران، وفي مثل هذا التركيب يتراجع النصب؛ لأن قوله: ﴿أَحَصَّيْتَهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَنَكِتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُم﴾ إِذَا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية ﴿أَحَصَّيْتَهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفينا - والرفع هنا جائز - وقلنا: «وكل شيء أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأقرب أن نعطى جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تناسب الجملتين أولى من تضادهما. ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكل شيء أحصيناه، ولهذا لو قلنا: زيد ضربته، يجوز أن أقول: «زيداً ضربته» لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: «ضربت زيداً وعمرو أكرمته» يجوز في «عمرو أكرمته» النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتناسب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة: إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة إسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

﴿وَنَكِتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُم﴾ هل الذي يكتب الله عز وجل، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحْفَظِينَ ﴾١٠﴾ كِرَاماً كَثِيرَينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ .

وإسناد الكتابة إلى الأمر موجود في اللغة العربية كثيراً، يقول السيد: (كتبت كذا وكذا) والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَنَحْكُمْ﴾ والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ۖ وَلَيَانَ عَلَيْكُمْ لَهُفْظِينَ ۖ كِرَاماً كَثِيرِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۖ﴾ وقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أي: ما قدموه في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملاً صالحاً في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يقدم الثمن، فأنت الآن مقدم للثمن، والمثمن يكون يوم القيمة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيمة جميماً، فأنت الآن إذا عملت عملاً صالحاً فقد قدمت لنفسك ثمناً تأخذ عوضه يوم القيمة، ثق بهذا وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقوله: ﴿وَنَحْكُمْ مَا قَدَّمُوا﴾ يقول المؤلف - رحمه الله -: [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم] هذا ما مشى عليه المؤلف أن المراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله: ﴿وَنَحْكُمْ﴾ فعل مضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ(لم) مثلاً: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضياً، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المراد ﴿وَنَحْكُمْ﴾ في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْزَّيْبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِيْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۚ﴾ فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ ﴿وَنَحْكُمْ﴾ بشيء

انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون الملائكة بأمر الله - عز وجل - ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون. لأن الخير لا يمكن أن يهدى منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَن يُشَرِّكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، ﴿وَأَثَارَهُم﴾. الآثار جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المراد بآثارهم؟ قال المؤلف: [ما استن به بعدهم] وهذا التفسير كمثال وليس حصرياً؛ لأن الذي يكتب بالأثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوه له»<sup>(٢)</sup>. فمثلاً الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بستانًا على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد صالح أيضاً من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولداً صالحًا يدعوه لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدى به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضاً من الآثار، بما ذكره

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

المؤلف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المؤلف - رحمه الله -  
أن المراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآثار: الآثار التي  
يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات، فإن الله تعالى  
يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عندها بها  
خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبني  
سلمة: «دياركم تكتب آثاركم»<sup>(١)</sup>، فجعل الرسول عليه الصلاة  
والسلام الآثار تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول  
الرسول «تكتب آثاركم» هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سماه  
أثراً لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال  
المؤلف أن المراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في  
حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وأثارهم ما كان بعد  
موتهم. قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup> قال المؤلف:  
[﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه]، والإحصاء بمعنى الضبط مأخذ من  
الحصى، لأن العرب أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء  
بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرعون ولا  
يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا  
كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا  
بكثيرين، ويضرب المثل فيقال: جاء قوم كثُر الحصى، فأحصينا

ضيطناء، وسمى الضبط إحصاء؛ لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى، قوله: ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(١)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - : [كتاب مبين]، هذا صحيح ﴿فِي إِمَامٍ﴾ الإمام يطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، لإمام الصلاة مثلاً إمام؛ لأنه مرجع للماومين يقتدون به، وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَنٌ أَزْمَنَهُ طَهِيرٌ فِي عُنْقِهِ وَخُرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَهُ مَنْشُورًا﴾<sup>(٢)</sup> أقرأ كتبك كفني بنفسك **الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** **﴿إِذَا﴾**<sup>(٣)</sup> . إذا ﴿فِي إِمَامٍ﴾ في كتاب، وقوله: **﴿مُبِينٍ﴾** يقول المؤلف - رحمه الله - [بين]؛ لأن مبين هنا من الرباعي، من أبان يبين فهو مبين . أما بين فهي من الثلاثي، من بان يبين، فهو بين، وكلمة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنى واحد فيقال: بان الصبح، وأبان الصبح . وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه . فإذا جاءت الكلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلاح بأن تكون بمعنى (بين) وتصلاح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح) لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلاح للوجهين جميعاً، قد تكون في موضع لا تصلاح إلا بين، فمثلاً: **﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**<sup>(٤)</sup> معناها بين ظاهر، قوله: **﴿حَم﴾**<sup>(٥)</sup> بمعنى الموضح المظهر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مبين بمعنى مظهر، أبين في

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٣، ١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة الدخان، الآية: ١.

المعنى، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر، لأن المظاهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل. وقول المؤلف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ] وهذا صحيح يعني محتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف بين، أو مبين بمعنى مظاهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمور موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بين فهي صالحة لما يقول المؤلف: [هو اللوح المحفوظ] لأنه يقول: ﴿أَحَصَّنَتْهُ﴾ أي أنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأَكُتبَكَ كُفَنِ يَنْفِسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾<sup>(١)</sup>

الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بأدلة عقلية، وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهونُ عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup> فهذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى، وجده أن الإعادة أهون من الابتداء، فال قادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

**بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ.** ﴿١١﴾

هذا مثله أيضاً استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة.

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بـإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى، مثل قوله تعالى : **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَيْشَعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُ مَوْقِعُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ﴿٢٩﴾ . وقال تعالى : **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَّكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخلَ بِاسْقَنَتِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدُ﴾** ﴿٣٠﴾ **رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحَيَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيَّتَنَا كَذَلِكَ الْخَرُوفُ** ﴿٣١﴾ . والآيات في ذلك كثيرة، فقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية، والحسية، لتكون لذوي العقول دليلاً، ولذوي الأ بصار، والأدلة الظاهرة دليلاً أيضاً، فالإنسان العقلاً كما يقولون تستدل له أو عليه بالعقل، والإنسان السطحي الذي لا يستدل إلا بما يشاهد تستدل عليه بالأدلة الحسية.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن من لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يحيي قلبه فيخشى الله ويتابع الذكر، ووجه الدلالة أن الله تعالى ذكر هذا بعد أن ذكر انقسام الناس إلى من يخشى الله بالغيب ويتبع الذكر، ومن لم يكن كذلك، فيه إشارة إلى أن الله قادر على أن يرد هؤلاء إلى الحق.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) سورة ق، الآيات: ٩-١١.

- ٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل شيء مكتوب للإنسان إما له وإما عليه لقوله: ﴿ وَنَحْكُمُ عَمَلَهُمْ وَأَثْرَهُمْ ﴾ .
- ٤ - ومن فوائدتها: أن الله تعالى يكتب كل شيء القليل والكثير؛ لقوله: ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ وما اسم موصول، والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرًا وَلَا كِبِيرًا إِلَّا أَحْصَنَاهَا ﴾<sup>(١)</sup> ويدل عليه أيضاً في آخر الآية: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٢)</sup> .
- ٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال لا تنقطع بالموت لقوله: ﴿ وَأَثْرَهُمْ ﴾ والآثار ذكرنا أنها أنواع: العلم، والصدقة الجارية، والولد الصالح يدعوه، وسنة يحييها فيتبعه الناس عليها.
- ٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله عز وجل في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء لقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٢)</sup> .
- ٧ - ومن فوائدتها: أن ما يكتب على الإنسان فإنه حق بين واضح لا يمتري فيه أحد، لقوله: ﴿ مُبِينٍ ﴾<sup>(٢)</sup> والشيء المبين هو الذي يوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه وهو كذلك، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وَنَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَهُ مَنْ شُورًا ﴾<sup>(٣)</sup> أَفَرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٣، ١٤.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (اضرب) قال المؤلف: [اجعل]، وهذا لا شك أنه معنى مقرب للمعنى أي اجعل مثلاً، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتماً، وضرب الذهب حليةً، وضرب الذهب سكة، يعني نقوداً، بمعنى اتخاذ حليةً، اتخذ سكة وما أشبه ذلك، فشُبه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالباً على هيئة متكاملة مركبة من أجزاء متعددة، ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مشتملة على أجزاء متعددة بصورة. فلهذا سمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المؤلف - رحمه الله -: ﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مفعول أول، ﴿أَصْحَاب﴾ مفعول ثان، وهذا الظاهر أنه سهو من المؤلف، والصواب العكس، لأن المضروب هو أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و﴿مَثَلًا﴾ هو المفعول الثاني، ففي إعراب المؤلف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المكذبين لك اجعلهم مثلاً يعتبرون به، والمثل والمثل كالشبيه والشبيه، أي: جعله أمراً مشابهاً حتى يتعظوا.

وكلمة ﴿وَاضْرِبْ﴾ الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتلقى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحاً؛ أنه عام، وتارة يكون صريحاً أنه خاص بالرسول

وَتَارَةٍ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ .

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿أَلَّا نُشَرِّحَ لَكَ صَدَرَكَ﴾<sup>(١)</sup> فهنا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام قطعاً.

ومن الأشياء الصريحة أنه عام مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾<sup>(٢)</sup> ولم يقل: «إذا طلقت» فدل على أن الخطاب الأول يراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصاً بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عاماً فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عاماً؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عاماً شمل الرسول ﷺ وغيره، إذاً نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلاً للمكذبين بهذه القرية ﴿أَصَحَّبَ الْقَرْيَةِ﴾ . قال المؤلف: [أنطاكية] فجعل (ال) للعهد الذهني يعني كأنها قرية معروفة مفهوماً، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتبع أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة - مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهللت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم) <sup>(٣)</sup> .

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير - رحمه الله - آخر تفسير الآية رقم (٢٩) من سورة (يس).

وعلى هذا فيكون المراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني ، يعني: اضرب مثلاً لهم في قرية غير معينة وهذا هو الصحيح، وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبيتها ، وليس المقصود كما مر علينا كثيراً تعين الأشخاص ، أو الأماكن ، أو الأزمان ليس فيه كثير فائدة في الغالب ، المقصود العبرة في القصة وما وقع ، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلفون مثلاً فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مبهم يتتكلفون في طلب تعينه ، وليس هذا بلازم ، إلا أن يترتب على تعينه اختلاف للحكم ، أو إظهار للمعنى فهذا شيء آخر ، وهنا لا يعنينا أن نعرف ما هي القرية ، ومن هم أهلها ، الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصة ، فالصواب عدم تعينها بأنطاكية ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ [بدل اشتغال من أصحاب القرية] ، فتكون في محل نصب ؛ لأن أصحاب منصوب ، والبدل يتبع في الإعراب المبدل منه ، فيكون ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> في محل نصب على أنه بدل من أصحاب القرية ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي أصحاب القرية ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> قال المؤلف - رحمة الله - : [أي رسول عيسى] وهذا القول ليس بصحيح ، ولا دليل عليه ، بل جاءها المسلمون الذين من جنس قوله في أول السورة ﴿إِنَّكَ لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(١٤)</sup> جاءها المسلمون الذين هم من جنس هؤلاء ، وعلى هذا فهم رسول من عند الله عز وجل ، وليسوا من قبل عيسى صلى الله عليه وسلم ، قال في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَثْنَيْنِ﴾ وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسول

عيسى، مع أن الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وعلى هذا فيتبعه أن يكون المراد بالرسل المرسلون هنا رسلاً من عند الله، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم﴾ أي: إلى أصحاب القرية ﴿اثْنَيْنِ﴾ من هؤلاء الثلاثة ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ التكذيب رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع هذا هو التكذيب، فهو لاء كذبهما و قالوا: هذا أمر ليس ب صحيح، ولستم برسلي، فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا إِثَالِثٍ﴾ قال المؤلف: [بالتحقيق والتشديد]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التشديد (عززنا) التحقيق، والقراءتان سعيتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حد سواء، معنى (عززنا) قال: [قوينا الاثنين بثالث] يعني لما كذب الاثنين أرسل الله ثالثاً معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي﴾<sup>(٢٩)</sup> أَشْدَدُ بِهِ أَزْرِي<sup>(٣٠)</sup> وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي<sup>(٣١)</sup> فزيادة الواحد يقوى بلا شك، ونحن نشاهد حتى في أمرنا الواقع إذا قال شخص قوله، ثم أيده آخر ازداد قوة ونشاطاً في تقرير هذا القول وتبنته، ﴿فَقَالُوا﴾ الضمير يعود على الثلاثة ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾<sup>(٤٤)</sup> أتوا بالجملة المؤكدة بـ(إنـا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كذبوا وأنكروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

ولكن لو قال قائل: لماذا لم تؤكـد بأكـثر من مؤـكـد؟  
قلـنا: هي أكـدت بأكـثر من مؤـكـد، أكـدت بـمؤـكـد واحد لـفـظـي

ولو قال قائل: هل المقام مقام تأكيد على سبيل الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

قلنا: على سبيل الوجوب، فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بـإيـانـ، واللامـ، والقسمـ، فـلـنـاـ: هـذـاـ المؤـكـدـ مـكـرـرـ، لـكـنـهـ منـ نـوـعـيـنـ: تـأـكـيدـ بالـلـفـظـ (إـيـانـ) وـتـأـكـيدـ بـالـمـعـنـىـ تـقـويـتـهـمـ بـشـالـثـ: ﴿فَقَالُوا إِنـا إِلـيـكـمـ مـرـسـلـوـنـ﴾ (١٤) مـرـسـلـوـنـ مـنـ قـبـلـ اللهـ عـزـ وـجـلـ، وـهـمـ يـعـلـمـوـنـ ذـلـكـ أـنـهـمـ مـاـ دـعـوـاـ الرـسـالـةـ مـنـ شـخـصـ إـنـاـمـاـ هـيـ مـنـ اللهـ، فـكـانـ جـوابـ هـؤـلـاءـ جـوابـ غـيرـهـمـ مـنـ الـمـكـذـبـيـنـ، وـالـمـكـذـبـوـنـ يـرـدـوـنـ أـقـوـالـ الرـسـوـلـ، أـحـيـاـنـاـ بـنـفـيـ، وـأـحـيـاـنـاـ بـإـثـبـاتـ، فـفـيـ النـفـيـ يـقـولـوـنـ: ﴿مـاـ أـنـتـمـ إـلـاـ بـشـرـ﴾ وـكـمـاـ قـالـ تـعـالـيـ: ﴿فـقـالـوـاـ إـنـ أـنـتـمـ إـلـاـ بـشـرـ مـثـلـنـاـ تـرـيـدـوـنـ أـنـ تـصـدـدـوـنـاـعـمـاـ كـانـ يـعـبـدـءـاـبـأـوـنـاـ فـأـقـوـنـاـ سـلـطـنـاـ مـيـنـ﴾ (١٥) قـالـتـ لـهـمـ رـسـلـهـمـ إـنـ تـخـنـ إـلـاـ بـشـرـ مـثـلـكـمـ﴾ يـعـنـيـ نـسـلـمـ إـنـاـ بـشـرـ مـثـلـكـمـ ﴿وـلـكـنـ اللهـ يـمـنـ عـلـيـ مـنـ يـشـاءـ مـنـ عـيـادـهـ﴾ (١٦) هـذـاـ جـوابـ بـالـنـفـيـ. يـعـنـيـ أـنـتـمـ بـشـرـ لـسـتـمـ مـلـائـكـةـ حـتـىـ نـقـبـلـ، وـأـحـيـاـنـاـ بـإـثـبـاتـ ﴿كـذـلـكـ مـاـ أـقـيـ أـلـذـيـنـ مـنـ قـيـلـهـمـ مـنـ رـسـوـلـ إـلـاـ فـقـالـوـاـ سـاحـرـ أـوـ بـجـنـونـ﴾ (١٧) فـصـارـوـاـ أـحـيـاـنـاـ يـتـهـمـوـنـ الرـسـلـ بـالـسـاحـرـ وـالـجـنـونـ، وـأـحـيـاـنـاـ بـالـنـفـيـ يـقـولـوـنـ: مـاـ أـنـتـمـ مـلـائـكـةـ حـتـىـ تـكـوـنـوـاـ رـسـلـاـ إـلـيـنـاـ، مـاـ أـنـتـمـ إـلـاـ بـشـرـ مـثـلـنـاـ، فـلـيـسـ بـيـدـعـ أـنـ يـقـولـ أـصـحـابـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ لـهـؤـلـاءـ الرـسـلـ: ﴿مـاـ أـنـتـمـ إـلـاـ بـشـرـ﴾

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ١٠ - ١١.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

﴿مِنْنَا﴾، ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول، وأنه بشر، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الذي يمنع فلم يذكروا حجة قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذه الجملة نفي و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ(من) الزائدة، لأن قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بمعنى (شيئاً)، قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ قوله ﴿إِن﴾ بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقة: النفي والإثبات ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ يعني ما أنتم إلا تكذبون، وهذا الحصر - والعياذ بالله - حصر هم يرونه إضافياً، بمعنى ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعون من الرسالة، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة، فصار إنكارهم مبنياً على أمرين:

الأول: أنهم بشر، يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رسلاً لكتنم ملائكة.

الثاني: النفي الذي لم يبن على شيء، وإنما هو مجرد إنكار ومكايدة ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكَذِّبُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا لا شك من سفههم، لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلاً عن الشرع، لأن العباد لا يمكن أن يتبعدوا الله سبحانه وتعالى إلا بشيء شرعاً ونصبه لهم دليل عليه وإلا فكيف يتبعدون؟! فإنزال الله عز وجل الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه، مع أن الله قد أوجبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى﴾<sup>(٢)</sup> فالله أوجب على نفسه أن يبلغ

عباده سبحانه وتعالى ما يوصلهم إليه، وإنما لضلوا، إذاً هذه المكابرة وهي : دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيء يكذبها العقل والشرع ؛ لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتبعون بها له لتوصيلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لِلآخرَةِ وَالْأُولَى﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى في القرآن الكريم : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾<sup>(٢)</sup> حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لا هتدى كل أحد.

قوله : ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. الكذب هو : الإخبار بخلاف الواقع ، إذاً أنتم أخبرتمونا إنكم رسل ، والواقع إنكم لستم برسل ، ماذا قالوا لهم ، قال الله عز وجل : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكّدات : الأولى : ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ لأن هذا جاري مجرى القسم . والثاني : ﴿إِنَّا﴾ .

والثالث : اللام . لشدة إنكارهم .

فإذا قلنا : إن هذه ثلاثة مؤكّدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث ، صار أكدت الرسالة بأربع مؤكّدات . ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ﴾ . قال المؤلف : [جاري مجرى القسم ، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار] أربع مؤكّدات ، لكن المؤلف

(١) سورة الليل ، الآيات : ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة القيمة ، الآية : ١٩ .

لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنه بلا شك مؤكد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - [التبلیغ المبین]<sup>(١)</sup> الظاهر، بالأدلة الواضحة، هذا حصر حقيقي أي: ما عليهم في جانب الرسالة إلا البلاغ المبين في جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة) يقتضي أن يكون حسراً إضافياً، لأن عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبلیغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم إلا البلاغ المبين، قال المؤلف: [التبلیغ] كلمة بلاغ بمعنى تبلیغ، فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يقال: كلام يكلم، المصدر كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يبلغ تبليغاً هذا مصدر، واسم المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين فهذا قد يقال: إن فيه نظراً؛ لأن الظاهر أن المبين بمعنى المظہر، يعني البلاغ المظہر لحقيقة الأمر الواقع، وهو أننا رسول من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا المبين بالمظہر على وجه صحيح صار متضمناً لكونه بيناً، إذ لا يكون الشيء مبييناً إلا وهو بين في نفسه، أما قوله - رحمه الله -: [التبلیغ البین الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأکمه، والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى] هذا ليس بصحيح؛ لأن هذا مبني على أنهم رسول عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البین بالرسالة فيبلغون تبليغاً بيناً.

في القصة فوائد كثيرة منها:

١ - بيان ضرب الأمثال ليعتبر بها لقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ

(١) في بعض النسخ (البين).

مَثَلًا ﴿١﴾ ، والخطاب كما سبق إما للرسول ﷺ أو لكل من يتلقى خطابه .

٢ - أن العبرة بما في القصة من ضرب الأمثال ، وأنه ليس من الضروري أن يعين المثل المضروب فهنا قال : ﴿وَأَضَرْتُ لَهُم مَثَلًا أَصْحَبَ الْقَرْيَةِ﴾ . ولم يعين القرية ، ولم يعين أولئك الأصحاب بأعيانهم ؛ لأنه ليس هذا محل عبرة ، بل العبرة في القصة كلها .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة : بيان أن الله عز وجل لن يدع الخلق بلا رسول لقوله : ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴽ١٢﴾ وقوله : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ .

٤ - ومن فوائدها : بيان رحمة الله عز وجل في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد ، لأنه قال : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزَنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴽ١٤﴾ ﴾ فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية ، والتأكيد بـ ﴿إِنَّا﴾ تقوية لفظية .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة : جواز تعدد الرسل مع اتحاد المرسل إليه ؛ لأن الله أرسل لهذه القرية اثنين ثم عززهما بثالث .

٦ - ومن فوائدها : أن الذين يكذبون الرسل ليس عندهم إلا المكابرة ، وليس عندهم حجة عقلية أو نقلية لقولهم : ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴽ١٥﴾ ﴾ كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حجة تسوغ تكذيب هؤلاء الرسل ، لأنك إذا رأيت هذه الحجج الثلاث أو الشبه لم تجد فيها حجة :

**الأولى** : أنهم روهم لأنهم بشر مثلهم ، وقد سبق في التفسير بيان الرد عليها ، وأنه لا يمكن أن يرسل للبشر إلا بشر

مثلكم، حتى لو أنزل إليهم ملائكة فإن الملائكة لابد أن يكونوا على صورة البشر، وحينئذ تعود الشبهة.

الثانية: ما أنزل الرحمن من شيء، فهذا نفي مجرد بدون ذكر حجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقاً؛ لأن نفي قول الخصم بدون حجة ما هو إلا مكابرة.

الثالثة: وكذلك قوله: ﴿إِنَّ أَنْتَمْ لَا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥).

٧ - فوائد الآية الكريمة: بيان أن المعاندين للرسل ليس عندهم إلا المكابرة الممحضة كقولهم: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ لَا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥).

٨ - أن حكمة الله عز وجل تقتضي أن يرسل للبشر بشراً مثلهم.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بما يشبه القسم لقولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦). وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوى؟ الظاهر أن هذا أقوى من التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) وإن لم يكونوا مرسلين استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم يكونوا مرسلين، معناه: أن الله علم الحال على خلاف ما كانت عليه، إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مرسلون وهم غير مرسلين في الواقع، لزم من ذلك أن يكون الله جاهلاً بحالهم، وأن يكون الله تعالى عاجزاً عن الانتقام منهم وبيان كذبهم؛ لأنهم سيقولون: إنا مرسلون، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة، والله تعالى يعلم

أنهم غير مرسلين، وهذا يستلزم الجهل، إذاً فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة، ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: الله يعلم أنني ما فعلت كذا وهو فاعل قالوا: إن هذا يقتضي الكفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله، ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلاً وعاجزاً.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بعده مؤكّدات في جانب المنكر، بل قد نقول: إن التأكيد واجب إلا لفائدة، لقوله هنا: ﴿فَالْأُولُو رِبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) وقد سبق أن الجملة مؤكّدة بثلاث مؤكّدات.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسول عليهم الصلة والسلام ليس عليهم هداية الخلق، وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط، لقولهم: ﴿وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا أَبْلَغُ الْمُمْبِينَ﴾ (١٧).

١٢ - ومن فوائدها أيضاً: أنه يلزم الرسول أن يكون بلاغهم مبيناً مظراً للأمر على حقيقته.

١٣ - ويتفّرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع، وأن الشرائع كلها واضحة، فإن جاء إبهام في نص، فهو مبين موضّح في نص آخر، وإن بقي الإبهام قائماً فالعلة في فهم المخاطب، إما لقصوره، أو لتقديره، أما ما جاءت به الرسالـ فإنـ يحصلـ به البلاغ المبين المظاهر لكلـ ما تحتاجـ إليهـ الرسالـةـ، لقولـهـ: ﴿وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا أَبْلَغُ الْمُمْبِينَ﴾ (١٧).

﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرَنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْهُوا لَرَجْمَنَّكُمْ وَلَيَمْسِكُمْ مَّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿نَطَّيْرَنَا﴾ أي تشاءمنا، وأصل التطير مأخوذه من الطير؛ لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاعلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاعلوها على اختلاف بينهم فيما يكون التشاوم أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر إلى أن تكون الطيرة في كل شيء وهي: «التشاوم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان»، وهذا التطير قد يكون له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لو لا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنما هو دعوى مجردة من هؤلاء المكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤماً وتضيقاً، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهم يهودون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون: ضيقنا علينا العبادة، فيجعلون هذا التضيق بزعمهم شؤماً، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاثة حالات:

**الأولى:** تطير بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم، فيقولون: هذا تضيق علينا، وهو شؤم في زعمهم.

**الثانية:** تطير بما يصيغ لهم من العقوبات بسبب المخالفة فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة: دعوى مجردة لا أصل لها فيقولون: إننا تطيرنا بكم مجرد التشويه لما جاءت به الرسل.

وقول المؤلف - رحمة الله - : [انقطاع المطر عَنّا بِسَبِّبِكُم] هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفًا، بأنهم يتظرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتظرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم وشهواتهم ومعاملاتهم وأموالاتهم ومشروعاتهم، فيقولون: ضيق علينا. الوجه الثالث: تطير المدعى الذي ليس له أصل، وقولهم: لانقطاع المطر عنا بسببيكم. لتنفير الناس عن متابعتهم. يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون أرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضًا.

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنْجُنَّكُمْ وَلَيُمْسِكُمْ مَنَّاعَذَابُ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه ﴿لَنْجُنَّكُمْ﴾ الجملة هذه جواب القسم، وليس جواب الشرط، لأنها قرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم، لا جواب الشرط، ولهذا أشار ابن مالك رحمة الله في الألفية حيث قال:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم  
 ﴿لَنْجُنَّكُمْ﴾ الرجم هو الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني

الممحصن أي يرمى بالحجارة حتى يموت ﴿وَلَيُمْسِنُكُمْ مِّتًا﴾ ليصيئنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المكذبين المعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضاً فإنه عذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ (١٨) بمعنى مؤلم فهو فعل، بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

(السميع) بمعنى المسموع، لا بمعنى السامع، فأليم بمعنى مؤلم، لا بمعنى آلم، قوله: ﴿وَلَيُمْسِنُكُمْ﴾ هل هذا على سبيل التنويع، أو على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرجمونهم ويعذبونهم قبل الرجم، أو أنه على سبيل التنويع، وأن الواو بمعنى «أو» أي: نرجمنكم حتى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب، لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع، لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أو» للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَهِّرُوكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩) ﴿قَالُوا﴾ الضمير يعود على الرسل، يخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوا لهم ﴿طَهِّرُوكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي شؤمكم ملازم

لهم، وذلك بسبب كفرهم فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء ولو شاءوا لامنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقض، ﴿أَيْنَ ذُكِرْتُ﴾ قال المؤلف - رحمة الله - [همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهها وبين الأخرى]، سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيقال «إن» هذا التحقيق، والتسهيل، «إن» بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول إن ذكرتم، وبالتسهيل إن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعية<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿أَيْنَ ذُكِرْتُ﴾ قال المؤلف: [وعظتم وخوفتم، وجواب الشرط ممحض، أي: تطيرتم وكفرتم]، قوله: ﴿أَيْنَ﴾ حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله: ﴿ذُكِرْتُ﴾ أما جواب الشرط ممحض، تقديره يقول المؤلف رحمة الله: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير لنعرف جواب الشرط ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيِّرُنَا إِنَّمَا لَيْسَ لَمَّا تَنَاهُوا لَرَجْمَنَكُمْ وَلَيَمْسِكُمْ مَنَا عَذَابُ الْأَلِيمُ﴾<sup>(١٨)</sup> فالذى حصل منهم أنهم طيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مطابقاً للمذكور أي: ﴿أَيْنَ ذُكِرْتُ﴾ تطيرتم، وتوعدمتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم، قال

(١) يمكن الرجوع إلى الشريط المسجل وهو الشريط الثاني آخر الوجه الثاني.

المؤلف : [وهو محل الاستفهام . والمراد به التوبیخ] وهو أي : جواب الشرط المحدوف محل الاستفهام ، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذکیر ؛ لأن التذکیر ثابت وليس فيه إنكار ، إنما الإنكار والتوبیخ بالتطییر بهم ، واعتدائهم على الرسل ، فهو محل الاستفهام الذي يراد به التوبیخ ، يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم قالوا : أتشاءمون وتتوعدون ؟ لأننا ذكرناكم ، فهذا هو محل الاستفهام ، وإنما نص المؤلف على ذلك لأنه قد يظن الظان أن محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام وهي قوله : ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُ﴾ ، الواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط ، لا الشرط المذكور وهو أي الاستفهام للتوبیخ .

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩) هذا إضراب انتقال ، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطیرون بهم إلى وصفهم الحقيقی وهو أنهم قوم مسرفون ، والإضراب يكون لإبطال ، ويكون للانتقال ، فإذا قلت : جاء زید بل عمرو ، فهذا إضراب إبطال ، وإذا قلت : زید في شك بل هو منکر ، فهذا إبطال انتقال ، ومنه قوله تعالى : ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ (٢٠) ومنه هذه الآية الكريمة ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٢١) قوله : ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ أي متجاوزون للحد ، ووجه التجاوز : أولاً : أنهم كذبوا الرسل بلا بینة وبلا دلیل ؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجۃ لهم ، ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ لَا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقالوا : ﴿وَمَا

**أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ** ﴿١٥﴾ وَقَالُوا: **إِنْ أَنْتَ رَبٌّ إِلَّا تَكْذِبُونَ** ﴿١٦﴾ هَذَا إِسْرَافٌ جَاوَزَ الْحَدَّ.

ثانيًا: أنهم طيروا بالرسل، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقَرَىٰ مَاءَمَنُوا وَاتَّقُوا فَتَحَانًا عَلَيْهِمْ بَرَكَتٌ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَنِكَنْ كَذَّبُوا فَأَخَذَنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٩٦﴾ وهؤلاء طيروا بالرسل وليسوا محل ليتطير بهم.

ثالثًا: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم يتنهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله: **لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجُمْنَكُمْ وَلَيَمْسِكُمْ مِّنَاعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿١٨﴾ فكل هذا من الإسراف.

وهو كذلك من العداون أيضًا، ووجه ذلك:

أولاً: أنه لا يجوز للإنسان عقلاً أن يرد شيئاً بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل لا شك أنهم أتوا بآية تدل على صدقهم، ما بعث الله رسولًا إلا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانيًا: طيرهم بالرسل، وحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: «طائركم معكم» فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة؛ لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل **لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجُمْنَكُمْ وَلَيَمْسِكُمْ مِّنَاعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿١٨﴾.

## الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين :

- ١ - أن هؤلاء المكذبين تشاءموا بالرسل ، وهذه دعوى باطلة ، يدعىها كل مكذب بالرسل .
- ٢ - أن المكذبين بالرسل يدعى عليهم ما لم يكن منهم ، تشويهاً وتنفيراً .
- ٣ - يستفاد منها : بيان عدوان هؤلاء المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام ، حيث توعدوا الرسل إن لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرجم المؤدي إلى الهلاك ، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجموهم . وهذا فيه غاية العدوان العظيم على عباد الله ، فهو لاء الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿أَنْقَلَتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّ اللَّهِ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِيبًا فَعَلَيْهِ كَذِيبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فهو لاء المكذبون للرسل الذين يتهدونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم من أشد الناس عدواً ، لأنهم اعتقدوا على الحق وعلى حامل الحق .
- ٤ - ومن فوائدها : أن الإنسان شوّه بعمله ، وليس بدعوته إلى الحق ، لقوله : ﴿طَهِّرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ .
- ٥ - ومن فوائدها : أن الذنوب والتکذيب للرسل يكون سبباً للحق والبلاء لقوله : ﴿طَاهِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وهذا هو سنة الله عز وجل في جميع المكذبين للرسل ، أن الله يتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون .

(١) سورة غافر ، الآية : ٢٨ .

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإنكار على من ذكر فأعرض، لقوله: ﴿أَئِنْ ذُكْرَمْ﴾.

٧ - ومن فوائدها: جواز حذف ما علم بالسياق، ولا يعد هذا نقصاً في الكلام وبلاعته؛ لأن جواب الشرط ممحض لدلالته عليه، وربما يكون الحذف أبلغ.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم كانوا مسرفين على أنفسهم متباوزين للحد لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩). وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد.

\* \* \*

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَتَيْمُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) قال المؤلف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسل ومنزله بأقصى البلد]. قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ أي من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسل والمكذبون لهم، وهو وسط المدينة، لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسل - وكان رحمة الله - قد آمن فجاء ينصح قومه، والله عز وجل يقول ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير معرف، والممؤلف يقول [حبيب النجار] وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ ولعله متلقى عنبني إسرائيل، و موقفنا في مثل هذا ألا ننكر وألا نثبت، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وهنا بدء بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى حين قتل القبطي ذكر

الرجل قبل مكانه فقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَنْمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ ﴾<sup>(١)</sup> وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمناً فسهل عليه أن يأتي من المكان بعيد، فذكر مكانه لبعده ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله عز وجل : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ وفي أول الآية قال الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ وهذا يدل على أن القرية تسمى مدينة، والمدينة أيضاً تسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أم القرى، ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ فُوَّةً مِنْ قَرْيَةِ الَّتِي أَخْرَجْنَا أَهْلَكُهُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، ولذلك لأن أصل القرية معناه مأخذ من القرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سميت في عرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط .

قوله : ﴿ يَسْعَى ﴾ أي يشتغل يركض لثلا تفوته الفرصة حين سمع بتكميلهم ﴿ قَالَ يَقُولُ أَتَبَيَّعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ قَالَ ﴾ هذا جملة مفصولة عما قبلها، أي أنها أتت بدون حرف العطف كأنها

(١) سورة القصص، الآية : ٢٠.

(٢) سورة محمد، الآية : ١٣.

جواب عن سؤال مقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟! ﴿قَالَ يَنْقُومُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) و﴿قَوْم﴾ منادي منصوب بالنداء؛ لأنه مضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلّم، وأصلها (يا قومي) ولكن حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوعة بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: ﴿يَنْقُومُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) ولم يقل يا أيها السفهاء، يا أيها الجهال، بل قال: ﴿يَنْقُوم﴾ تودداً وتعطفاً لهم، ولم يقل: يا إخواني، لأنه لا أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن ﴿يَنْقُوم﴾، يصح أن يقال: يا قوم ولو كانوا كفاراً. قال الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (٣) قال: ﴿يَنْقُومُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤) اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ (٥) (٢)، فهم دعوا إلى هذا، إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ كرر الأمر بالاتّباع من باب التأكيد ﴿أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) ﴿أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ﴾ ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجراً، لصح الكلام لكن كرت للتأكيد؛ لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المرسلين ﴿مَن﴾ أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس أجراً، لكنهم يرجون من الله الأجرا، أما من الناس فلا يأخذون أجراً، فهم لا يتخذون أجراً على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير فإنما يرجون الأجرا والثواب من الله ﴿أجرا﴾ هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذا المفعولان من باب مفعولي، كسا وأخواتها ﴿وَهُمْ مُهَتَّدُونَ﴾ ﴿٢١﴾ فيبين هنا أن هؤلاء الرسل على هدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجراً على ما دعوا إليه، قوله: ﴿وَهُمْ مُهَتَّدُونَ﴾ ﴿٢١﴾ يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدعاة أنهم على هدى، ويحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجراً مع كونهم مهتدين. ثم قال المؤلف: [فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وما لي لا أعبد الذي فطريني] ما قدره المؤلف - رحمة الله - من أنه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: «وَهُمْ مُهَتَّدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» على أن المراد به هؤلاء القوم كأنه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) لكن وأضافه إلى نفسه من باب التلطف بالخطاب، هذا هو الأقرب للأمور:

أولاً: أن ما ذكره المؤلف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزم، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزم فالالأصل عدمه.

ثانياً: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلاً أن يقول: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) قال: ﴿وَمَا لِي﴾ فأضاف الأمر

هنا إلى نفسه تلطفاً.

وقوله **﴿وَمَا لِي﴾** الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده، ولهذا قال: **﴿لَا أَعْبُدُ﴾** أي لا أتذلل للذي **﴿فَطَرَنِ﴾** قال المؤلف: [أي خلقني أي لا مانع لي من عبادته الموجود مقتضيها، وأنتم كذلك] قوله: **﴿لَا أَعْبُدُ﴾** تقدم لنا أن العبادة هي التذلل لله عز وجل بفعل أوامرها، واجتناب نواهيه، محبة وتعظيمها، وأن العبادة تطلق على التبعد الذي ذكرناه، وعلى المتبعد به وهي الأفعال التي يتبعدها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حدثاً شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بأنها هي: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة). قوله: **﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِ﴾** ولم يقل: لأعبد الله ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: «أعبد الذي فطريني» مقتضى لكونه هو المعبد. إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبد وهذا كقوله تعالى: **﴿يَنَاءِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقُوكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> قوله: **﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾** كتعليق للأمر بعبادته وحده، كما أنه الخالق وحده، فيجب أن يكون المعبد وحده، ولهذا قال المؤلف [الموجود مقتضيها] وما مقتضيها أنه هو الذي فطر الخلق، وابتدا خلقهم، فلزم أن يكون هو المستحق للعبادة وأن يعبد، قوله: **﴿الَّذِي فَطَرَنِ﴾** أي خلقني لأول مرة، والفتور والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾****

**وَالْأَرْضِ<sup>(١)</sup>** وَقَالَ: **«بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>**» فالذى فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذاً يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق كما قال الله عز وجل: **«لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُحَكَّمُونَ<sup>(٣)</sup>**» فكيف يصح أن يعبد هؤلاء، فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحسن دعوته أنه قرن الحكم بالدليل، **«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: **«وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي<sup>(٤)</sup>**» كما تخطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: مالي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضاً، قال المؤلف - رحمه الله -: **«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٥)</sup>**» [بعد الموت فيجازيكم بكفركم] لو قال المؤلف: بعملكم، لكن أشمل؛ لأنه يجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويجازيهم بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المؤلف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكن أولى.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان نصيحة هذا الرجل لقومه

من وجهين:

الوجه الأول: أنه جاء من مكان بعيد، **«وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ<sup>(٦)</sup>**» .

(١) سورة فاطر، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٠.

**الوجه الثاني:** أنه جاء يشتد ﴿يَسْعَى﴾ فيستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفرص في إنذار قومه ومناصحتهم، وأن لا يتوانى، فيقول: غداً أذهب إليهم، أو في آخر النهار، أو ما أشبه ذلك، فيبادر بالنصيحة والموعظة؛ لأن هذا الرجل جاء يسعى.

**٢ - من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يبادر بالإنذار قبل أن يقدم له مقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، لقوله: ﴿أَتَّبِعُوا﴾ أمرهم من أول الأمر، ولم يأت بمقيدة تهيئهم للقبول. لأن الحال تستدعي ذلك.

**٣ - ومنها أيضاً:** أنه ينبغي التلطف بالقول في دعوة الغير لقوله: ﴿يَنَّقُومُ﴾ فإن هذا يستوجب اتباعه، وقبول نصحه؛ لأن الإنسان حديباً وشفقة على قومه.

**٤ - من فوائد الآية الكريمة:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً على ما أتوا به من الدلالة والهدایة لقوله: ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْكُنُ لَهُ أَجْرًا﴾.

**٥ - ومن فوائدها:** أنه ينبغي أن يقدم الوصف الموجب للقبول، قبل الوصف المفضل للقبول. فهنا قال: ﴿أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ والرسالة وصف يقتضي وجوب قبول المرسل. ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْكُنُ لَهُ أَجْرًا﴾ هذا من باب الكمال.

**٦ - ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص متزلته إذا قبل ما يعطى من أجل دعوته وموعيته؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً لا بلسان

الحال، ولا بلسان المقال، وبه نعرف قبح ما يعمله بعض الناس - وإن كان والحمد لله قد قل - يقوم ويعظ الناس موعظة قد تكون بليغة، فإذا انتهى قال: إني في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك، فصارت الموعظة للدنيا.

فهل يستفاد منه هذا أنه لا يجوزأخذ الأجر على تعليم العلم، لما فيه من المخالفة لطريق الرسل، أو يقال لا. لأن الذي لا يجوز الأخذ عنه الدعوة لله عز وجل، وهذه لا يجوزأخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان، أما التعليم الذي يحتاج إلى معاناة وإلى تعب وإلى تفهم خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»<sup>(١)</sup>.

هل يستفاد من الآية: أنه لا يجوزأخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يستفاد، ولكن لا شك أن التنزيه عن ذلك أولى، فكون الإنسان يذهب يدعوا إلى الله عز وجل بدون أن يأخذ مقابلًا ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الخلاص وأشد وقuaً في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يلقي ذلك في قلوب الناس، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لا يأخذ شيئاً.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (٢٧٦) ومسلم، كتاب السلام، باب: جوازأخذ الأجرا على الرقية بالقرآن والأذكار (٦٥) (٢٢٠١).

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من طريق الدعوة أن يذكر الإنسان حال الداعية بوصفه بما يوجب قبول قوله؛ لقوله: ﴿وَهُمْ مُهَتَّدُونَ﴾ (١) وقد ذكر ما يوجب قبول قولهم في أول الدعوة ﴿أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُمْ مُهَتَّدُونَ﴾ (٣).

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا هو وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون إلى الله على هدى منه، وأما من يدعو على غير هدى فإنه قد يفسد أكثر مما يصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً، والحلال حراماً وهو لا يدرى، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا بأس للإنسان أن يضييف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفاً، لقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِ﴾ يعني على فرض أنني أتخذ من دون الله آلهة فما الذي يمنعني أن أعبد الله عز وجل وحده؟!

١٠ - ومن فوائداتها: الإرشاد إلى وجوب الإخلاص في العبادة لقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِ﴾ فإن الله تعالى منفرد بفطر الخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، فلا يدعى أحد أن الآلهة تخلق، فإذاً لا يجوز أن تعطى شيئاً من العبادة التي يختص بها من يخلق وهو الله عز وجل.

١١ - ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِ﴾ فإن هذا كتعليل قوله:

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ﴾ ولهذا عدل عن قوله: (ما لي لا أعبد الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ اللَّذِي فَطَرَنِي﴾ ليكون هذا كدليل والتعليق لوجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا في القرآن الكريم والسنة كثير.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يذكر ما يكون الترغيب والتحث لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه، وأنه كله إلى الله عز وجل، وهنا نجد الفرق بين التعلييل الأول ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ اللَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل «وإليه أرجع» لأنـه - كما قلنا - إنما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه، لكنه أضافه تلطفاً وتوبيناً لهم، وكأنه يقول: «أنا لا أعبد إلا الذي فطريني» فلماذا تعبدون أنتـم معه غيره وإليـه ترجعون؟ ! .

\* \* \*

﴿أَتَنْخَذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يُرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِصَرِّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ قال المؤلف: [أتـخذ في الهمـزتين منه ما تقدم في ﴿أَنْذِرْتَهُم﴾ هو استفهام بمعنى النفي] فيـكون معنى ﴿أَتـخذ﴾ أي: لا أـتخاذ، وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أـتـى بمعنى النـفي فإـنه يـفيد معنى التـحدـي، ولكنـه هنا يـفيد معنى الـامـتنـاع، غـاية الـامـتنـاع، يعني أنه لا يمكن أن أـتـخذ من دونـه - أيـ غيرـه - إـلهـةـا ﴿أَتَنْخَذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ معـروفـ أنـ أـتـخذـ تـنصـبـ مـفعـولـين ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ المـفعـولـ الثـانـي ﴿إِلَهَةً﴾ المـفعـولـ الأولـ، ويـجوزـ أنـ نـجـعـلـ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فيـ مـوـضـعـ النـصـبـ عـلـىـ الـحـالـ مـنـ

﴿إِلَهَكُمْ﴾ ويكون الثاني محدوداً أي : (أَتَخْذُ أَصْنَامًا آلهة) وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف لقوله : [أَصْنَاماً] قال : ﴿إِنْ يُرِدُنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ صفة آلهة [ يريد المؤلف في الإعراب أن قوله : ﴿إِنْ يُرِدُنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا﴾ هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة ، يعني لا تأخذ آلهة هذا شأنها ، وهو أن الله لو أراده بضر لم تنفع شفاعتهم ﴿لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا﴾ ، هذا معنى كلام المؤلف .

وقيل : إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلة ، أي : أَتَخْذُ من دونه آلة ثم قال : هذه آلة لا تغني شفاعتها شيئاً من دون الله ، ولا تنقذ .

ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظهر ، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلة قال : ﴿إِنْ يُرِدُنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني إن يردن الله عز وجل ، وذكر الرحمن ، لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة ، ولما كان الضر قد يفهم منه من يفهم من الناس انتفاء الرحمة عن المريد ، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان ، أو يتوهם الواهم هذا الوهم ، أن إرادة الله الضر للإنسان تنافي الرحمة ، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان .

قال الله تعالى : ﴿ظَاهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> مما يصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة وهي الرجوع إلى الله عز وجل ، والاعتبار

(١) سورة الروم ، الآية : ٤١ .

بما جرى، ﴿لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضره. فهذه الأصنام التي تبعد من دون الله يدعى عابدوها أنهم إنما عابدوها لتقربهم إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اخْدُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا يُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفَةً﴾<sup>(١)</sup> إذاً فهم يدعون أنهم يعبدونها لتشفع لهم، وهل هذا الوهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: لا، لأنهم عابدوها ولم يتخدواها وسيلة، بل جعلوها غاية، ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التبعد لها إلا التعظيم لهذه الأصنام وينسون الخالق عز وجل، ﴿وَلَا يُنْقَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

#### الفوائد:

١ - بيان الإنكار والتسفيه والتوبیخ للذين يتخدون مع الله آلهة، لأن المراد من الاستفهام: الإنكار والتسفيه والتوبیخ لهؤلاء.

٢ - ومن فوائدها: أنه ينبغي قرن الحكم بالتعليق لأنه قال: ﴿أَنَّحَدُّ مِنْ دُونِهِ إِلَهَكَهُ إِنْ يُرِدُّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ . . .﴾ إلى آخره، فهذه الآلهة لا تنفع، ولا تضر، ولا تدفع، فهي لا تنفع من عبدها، ولا تضر من عدل عنها، ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير، يقول عز وجل: ﴿إِنْ يُرِدُّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا﴾ فهم لا يستطيعون دفع ضرر الغير، وهم - أي الآلهة - لا ينفعون عابديهم، ولا يضرون من عدل عن عبادتهم فهي فاصلة بنفسها لا

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تجلب نفعاً ولا ضرراً، ولا تدفع الضر عن عابديها فتكون عبادتها خسان.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل معبد فهو آلهة لقوله: ﴿أَنَّكُنْدِ مِنْ دُونِهِ إِلَهٌ كُلُّهُ﴾ لكن إن كان يستحق العبادة فهو إله حق وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، وإن كان لا يستحق العبادة وهو من سوى الله فعبادته باطلة وألوهيته باطلة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإرادة لله - عز وجل - لقوله: ﴿إِنْ يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ وإرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية.

القسم الثاني: إرادة شرعية.

فالإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المراد، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله تعالى.

والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، ولا يتعين فيه وقوع المراد، ويتعين أن يكون فيها محبوباً لله عز وجل.

فإذا قال قائل: ﴿إِنْ يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ والضر شر على الإنسان فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «الشر ليس إليك»<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الندب الأكيد إلى قيام ليلة القدر ٢٠١ (٧٧١).

**فالجواب:** أن النبي ﷺ لم يقل: «الشر ليس منك»، بل قال: «الشر ليس إليك» والله عز وجل قد يريد الشر، لكن إرادته الشر خير، فالشر في مفعوله، لا في فعله، فقد يريد الله وقوع الشر، لكنه لمصلحة عظيمة، هذه المصلحة نفت نسبة الشر لله، ولهذا يفرق بين الشر منك، والشر إليك، فالشر لا يضاف إلى رب، ولكن يضاف إلى المفمولات والمخلوقات، مع أن هذه المفمولات والمخلوقات شر من وجهه، وخير من وجهه، ففعله سبحانه وتعالى كله لحكمة وغاية محمودة، وانظر مثلاً إلى المرض إذا أصاب الإنسان، فلا شك أنه شر بالنسبة لصحته، ولكن لا تشعر بنعمة الصحة، لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة، (وبضيدها تبين الأشياء)، فأنت الآن تنفس النفس، تنفس وأنت تأكل، تنفس وأنت تتكلم، تنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مضطجع، لا تحس بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك، ويصبح عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس، فالحاصل أن هذا الشر شر نسبي في الواقع حتى بالنسبة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفيضانات، والزلزال، والجدب، شرور، لكن بالنسبة إلى تقدير الله لها هي خير، فهي شر بالنسبة لمن أصابتهم، لكن خير بالنسبة للآخرين يتعظون ويحافظون، وقد تكون خيراً لأولئك المصابين بحيث يرجعون إلى الله عز وجل، ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيُ النَّاسِ لِيُذَيْقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

**يَرْجِعُونَ** ﴿١﴾ إِذَاً فَلَا مُنافاةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكُ» وَبَيْنَ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ **إِنْ يُرِدُنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرِّ** .

٦ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: إِثْبَاتُ صَفَةِ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُؤْخَوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: **أَلَرَّحَمَنُ**؛ لِأَنَّ الرَّحْمَنَ وَصَفَ مُشَتَّقٌ، وَالْوَصْفَ الْمُشَتَّقَ يَدْلِي عَلَى الْمَعْنَى الْمُشَتَّقِ مِنْهُ، وَلَا بَدَّ، بِخَلَافِ الْأَسْمَاءِ الْجَامِدَةِ، كَأَسْدٍ، وَحَجَرٍ، وَتَرَابٍ، وَمَا أَشْبَهُهَا هَذِهِ لَا تَدْلِي عَلَى مَعْنَىٰ، لَكِنَّ الْأَسْمَاءِ الْمُشَتَّقَةِ لَابْدَأَنْ تَدْلِي عَلَى مَعْنَىٰ، هَذِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَكِتَابِهِ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ مِنْ تَسْمِيَّةِ بَهَا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ فَقَدْ تَدْلِي عَلَى الْمَعْنَىٰ وَقَدْ لَا تَدْلِي، فَقَدْ تَسْمِيَّ شَخْصًا عَبْدَ اللَّهِ وَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ، وَقَدْ تَسْمِيَّ شَخْصًا مُحَمَّدًا وَهُوَ مَذْمُومٌ، وَقَدْ تَسْمِيَّ خَالِدًا وَهُوَ سَيِّمُوتُ، وَقَدْ تَسْمِيَّ صَالِحًا وَهُوَ مِنْ أَفْسَدِ النَّاسِ .

٧ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ عَابِدِيَ الْأَصْنَامِ يَمْوَهُونَ عَلَى النَّاسِ بِعِبَادَتِهِمْ، فَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا لِتَكُونَ شَفِيعًا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذَا عِنْدَمَا يَسْمَعُهُ السَّامِعُ يَظْنُ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَلَهَةَ فِي مَرْتَبَةِ دُونِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الشَّافِعِ دُونَ مَرْتَبَةِ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ .

فَيَقُولُونَ: (إِنَّهُمْ شَفَاعَاءُ لَنَا إِلَى اللَّهِ)، وَالْحَقْيَقَةُ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوهُمْ شَفَاعَاءَ، بَلْ جَعَلُوهُمْ شَرَكَاءَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ كَمَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَيَسْتَفَادُ مِنْهُ الْحَذَرُ مِنَ التَّلْبِيسِ فِي الْأَسْمَاءِ أَوْ بِالْتَّسْمِيَّةِ، وَأَنَّ صَاحِبَ الْبَاطِلِ قَدْ يُسَمِّي نَفْسَهُ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ عَلَى حَقٍّ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَالْمُعْتَزِلَةُ - مَثَلًاً - يَسْمُونَ أَنفُسَهُمْ «أَهْلَ

التوحيد»، والمعطلة يسمون أنفسهم «أهل التنزية»، يقولون: نحن ننزع الله، أما أنتم أهل السنة لا تنزعون الله جعلتموه صنماً فمثلكم بالخلق في إثبات الصفات. وهؤلاء أيضاً المعتزلة يقولون: نحن نفينا الصفات لنوحد الله، لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، فهذا تمويه، والمعتزلة ينكرون أن يكون الله تعالى تعلق بفعل العبد، فيسمون أنفسهم أهل العدل، ويقولون أنت يا أهل السنة أهل الظلم جعلتم الله ظالماً حيث هو الذي يقدر المعاشي على العبد ثم يعاقبه عليها، أما نحن فنحن أهل العدل نقول: الإنسان هو المستقل بنفسه وعمله، فإذا جوزي على معصيته فقد استحق الجزاء، لأنه فعله. والنصارى سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفاً لحالهم، ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إذ لو كانوا على دينه وقابلين له لقبلوا بشارته بمحمد ﷺ فإن عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به، وقال: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَ مِنَ التَّورِيهِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولِ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحَمَّ﴾<sup>(١)</sup> ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله يقول: ﴿الَّذِي يَحِدُّونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورِيهِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(٢)</sup> فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل، لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفاً لما هم عليه من الباطل؛ ليصبغوا

(١) سورة الصاف، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

نحلتهم بصبغة القبول، فيجب الحذر من التلبيس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون: نعبد الآلهة ليكونوا شفعاء لنا. وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا أحد ينقذ من أراده الله تعالى بضر لقوله: ﴿وَلَا يُنْقِذُونَ﴾.

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه، فهذا أنقذه مما أراده الله عز وجل به من السوء؟

فالجواب أن نقول: أن إنقاذه بتقدير الله عز وجل، لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك هذا الرجل لم يكن عنده أحد، ولو شاء الله أن يهلك لكان عنده من لا يجيد السباحة، ولو أراد الله أن يهلك لكان عنده من لا يريد الإحسان، فإذا قيض الله له شخصاً قادراً على إنقاذه محبًا للإحسان أنقذه بقدر الله عز وجل، ونحن نؤمن بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنها مستقلة، فنكونُ وسطاً بين الذين ينكرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثرة لكن يجعل الله لها تأثيراً، ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها، فالنار محرقة، وقال الله تعالى لها حين ألقى فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كُوفِ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup> فصارت بردًا وسلامًا ولم تكن سبباً للإحرق، والماء جوهر سيال لا يمكن حجزه إلا بحاجز، ولما ضرب موسى

عليه الصلاة والسلام البحر صار الماء كالجبال، بدون حواجز، وهذا خلاف الأسباب المعتادة، لكنه بقدر الله عز وجل، وبه نعرف أن الأسباب مؤثرة يجعل الله تعالى لها تأثيراً، وإنما لسقوط تأثيرها؛ لأن الكل بيد الله.

وبمناسبة ذكرنا نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال بعض المفسرين: إن الله لما قال لها: ﴿قُلْنَا يَنَارٌ كَوْفِيَّ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>٦٩</sup> صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك وقالوا: ما لهذه النار ما غلا القدر عليها، ولكن هذا لا شك أنه قول خاطئ بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَا نَار﴾ ونار نكرا مقصودة، ولهذا بنيت على الضم فهي كالعلم يراد بها شيء معين، وهي النار التي ألقى فيها، ثم قال: ﴿كَوْفِيَّ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>٦٩</sup> فهذا القول خلاف الآية الكريمة، وسبحان الله بعض الناس - رحمة الله عليهم وعفا عنهم - يذهبون المذاهب بقول: كيف تقع هذه من عالم، والغالب أن هذه تجدها عنبني إسرائيل فتأخذ مسلمة ولا يتتبه لمعارضتها لأي الكتاب.

\* \* \*

﴿إِنَّ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>٧٤</sup> ﴿إِنَّ إِذَا﴾ هذه الجملة مؤكدة بيان؛ لأن المقام يقتضي التوكيد وقوله: ﴿إِذَا﴾ قال المؤلف: [أي]: أن عبدت غير الله] لقوله ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَ فِي﴾ ويجوز أن نقدر ﴿إِذَا﴾ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، لقوله: ﴿أَتَخْدِّمُ

دُونِهِ ءَالْهَكَةَ ﴿٤﴾ و(إذا) هذا ظرف يدل على الحال، و(إذا) تدل على المستقبل و(إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذا) للحال و(إذا) للمستقبل و(إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلاً.

﴿إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدين يعني إن اتخذت معه آلهة، أو عبدت غيره ﴿إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ قال المؤلف: [بين] والضلال هو أن يتبع الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة فقال تعالى: ﴿أَهَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الدِّينِ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ والمغضوب عليهم هم الذين جانبو الصواب عن علم، والضاللون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالاً مبيناً أنه حيدة عن الواجب شرعاً وعقلاً، فالواجب شرعاً أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلاً أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر ﴿إِنْ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴾٢﴾﴾ أعلن - رحمة الله - أنه آمن بالله عز وجل فقال: ﴿ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهناك قال: **وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي** ﴿﴾ إشارة إلى أنه ليس الله ربّا

له وحده يل هو رب الجميع. والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

**الأول: الإيمان بوجوده.**

**الثاني: الإيمان بربوبيته،** وهنا صرخ به في قوله: ﴿أَمَّنْتُ  
بِرَّتِكُم﴾ فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

**الثالث: الإيمان بألوهيته.**

**الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.**

أي أنه متفرد بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وقوله: ﴿أَمَّنْتُ﴾ الإيمان في اللغة: التصديق عند كثير من المفسرين الذين يفسرون الإيمان، وقيل: إن معناه الإقرار والاعتراف، فهو أخص من التصديق. قال: ﴿فَأَسْمَعُونَ﴾ الفاء هذه عاطفة على قوله: ﴿أَمَّنْتُ بِرَّتِكُم﴾ أو على الجملة كلها، وقول: ﴿فَأَسْمَعُونَ﴾ أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه - رحمة الله - بإيمانه مراوغة لقولهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه، و قال المؤلف: [فرجموه فمات ﴿قِيلَ﴾ له عند موته ﴿أَدْخُلْ لَجْنَةً﴾ وقيل: دخلها حيًا].

لما أعلن - رحمة الله - هذا الإعلان، وراغبهم ولم يأبه بهم، ولم يهمه والظاهر - والله أعلم - أنهم توعدوه، حينئذ رجموه فقتلواه، فقيل له بعد موته ﴿أَدْخُلْ لَجْنَةً﴾، الأمر هنا للتكرير، والجنة هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿أَدْخُلْ لَجْنَةً﴾ بعد موته لأن الإنسان يعذب في

قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه ينعم، وإن كان من أهل الشر فإنه يعذب قال: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢٦)</sup> لما قيل له: ادخل الجنّة، ﴿فَالَّذِي لَيْلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢٧)</sup>، قال المؤلف: [حرف تنبية] يعني (يا) حرف تنبية وليس حرف نداء، لأنها دخلت على حرف و(يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون للنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتتبّيّه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢٨)</sup> أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتتبّيّه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢٩)</sup> نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان: أحدهما: أنها للتتبّيّه.

والثاني: أنها للنداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق. قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣٠)</sup> ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحياناً لعل وأحياناً ليت، بحسب قربه من التعذر أو من القرب.

قال ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

قال المؤلف: [بغفرانه] أي: بما حصل لي ﴿بِمَا غَفَرَ لِي﴾

رَبِّي﴾ الباء هنا متعلقة بـ(يعلمون) والعلم هنا بمعنى المعرفة ، فلا تتعدى إلا إلى مفعول واحد ، و(ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه] . وهنا نذكر معاني (ما) ، معاني (ما) عشرة :

١ - استفهامية . ٢ - شرطية . ٣ - موصولة . ٤ - تعجبية . ٥ - نكرة .  
 ٦ - كافية . ٧ - نافية . ٨ - زائدة . ٩ - للتعظيم . ١٠ - مصدرية .  
 والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه ، لأنها مأخوذة من المغفر ، والمغفر فيه شيئاً :  
 أحدهما : الستر لأنه يستر الرأس .

والثاني : الوقاية ؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام ، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط .  
 ثم قال : ﴿يَمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية ، وهي من الربوبية الخاصة ، لأن الربوبية نوعان : ربوبية عامة ، وربوبية خاصة ، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق ، التي مقتضاهما التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته ، والخاصة هي التي يكون فيها عنابة بهذا المربيوب ، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه ، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة : ﴿فَالْوَاءَ امَّا يُرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ (١٢٢)﴾ الأولى : ﴿يُرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عامة ، والثانية ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ﴾ خاصة ، ويقابل ذلك العبودية فإنها عامة ، وخاصة ، فالعامة كقوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ

(١) سورة الأعراف ، الآيات : ١٢١ ، ١٢٢ .

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَعْلَمُ بِالرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١﴾ )<sup>(١)</sup> والخاصة كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنًا ﴾ )<sup>(٢)</sup> والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ )<sup>(٣)</sup> .

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ ﴿٤﴾ جعلني من المكرمين لدخوله الجنة ؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان من قبل الله تعالى ، وإكرام من قبل الملائكة ؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وإكرام من جهة الولدان المخلدون الذين هم خدم لأهل الجنة ، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هن قاصرات الطرف لم يطmethen إنس قبلهم ولا جان ، وإكرام من جهة بعضهم البعض ، فإنهم إخوان على سرر متقابلين ، قد نزع الله ما في قلوبهم من غل ، ومثل هذا لابد أن يكون فيه إكرام من بعضهم البعض ، فأهل الجنة مكرمون ، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المخلص فإنه مكرم بدخول الجنة ، قال الله عز وجل لما ذكر المصليين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله : ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّتِ مُكَرَّمُونَ ﴾ )<sup>(٥)</sup> ولهذا قال هنا : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ ﴿٦﴾ .

(١) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ١ .

(٤) سورة المعارج ، الآية : ٣٥ .

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن من أعظم الضلال وأشدّه تيّهاً أن يتّخذ الإنسان مع الله آلهة لقوله: ﴿إِنَّمَا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ﴾.

٢ - ومنها: أنه ينبغي التأكيد إذا كان المخاطب منكراً، أو حاله حال المنكّر؛ لأنّه يخاطب قومه الذين اتّخذوا مع الله آلهة ويقول: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يُرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِصَرِّ لَا تَعْنِي شَفَاعَتَهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾<sup>(١)</sup> إِنَّمَا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ<sup>(٢)</sup>». ولهذا أكد الجملة بمؤكدين (إن، واللام).

وربما يأخذ من الآية الكريمة أن كل من ضل عن الحق، أو كل من خالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق؛ لقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ﴾<sup>(٣)</sup> فيفيد أن الضلال قد يكون خفياً، وقد يكون بيناً واضحاً.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال نصح هذا الرجل لأنّه قرر وحدانية الله عز وجل بعدة أمور، منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لَيْ لَا أَعْبُدُ إِلَّا ذِي فَطَرَفٍ﴾<sup>(٤)</sup> ومنها: التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلال مبين، وهكذا ينبغي للداعية لله عز وجل إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء، حتى يجمع بين الترغيب والترهيب.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من وحد الله فهو على هدى مبين، بين واضح؛ لأنّه أصحاب الفطرة، وأصحاب ما جاءت به الرسل.

٥ - يستفاد من هذه الآية ﴿إِنَّمَا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ يَرَيْكُمْ﴾

**فَاسْمَعُونَ** ﴿٢٥﴾ فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله عز وجل، فكل إنسان يؤمن ويعلن إيمانه بالله فإن ذلك له ميزة وفضيلة، قال الله تعالى: **«وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مَمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴿٢٦﴾<sup>(١)</sup> أعلن أنه من المسلمين ولم يخف أحداً سوى الله .

٧ - منها: قوة شخصية هذا الرجل، حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن، وأمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مخلصين له بالعبادة إذا كان رباً لهم، كأنه أقام الحجة عليهم بذلك، فإذا كان الله ربكم فواجب أن توحدوه، ولا تخذلوه معه الله، وهذا يدل على قوة شخصيته، زد على ذلك أنه تحداهم فقال: **«فَاسْمَعُونَ** ﴿٢٥﴾ فأنا لا أبالي بكم فاسمعوا إني آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه؛ لأنه ربكم .

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان ربوبية الله تعالى العامة حيث قال: **«إِرَبِّكُمْ** ﴿٢٦﴾ مع كونهم مشركين كفاراً، وهذا من الربوبية العامة .

٩ - يستفاد من هذه الآية الكريمة: **«قِيلَ أَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَالَ يَأْتِيَتْ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴿٢٧﴾. إثبات نعيم القبر لقوله: **«قِيلَ أَدْخُلُ الْجَنَّةَ** ﴿٢٨﴾ مع أن الساعة لم تقم بعد، ولم يدخل الناس الجنة، ويدلل ذلك آيات من القرآن لقوله تعالى: **«الَّذِينَ نَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ** ﴿٢٩﴾ توافق الملائكة **«طَيِّبِينَ** حال من الها

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة التحل، الآية: ٢٢.

و﴿يقولون﴾ حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين توفاهم ادخلوا الجنة فيستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر. ومثل قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> وَمَنْعَنْ أَقْبَابِ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَنْكُنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> إلى قوله: ﴿فَمَآءِنَ الْمُفَرَّيْنَ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيْمٌ﴾<sup>(٣)</sup> فهنا قال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتَ﴾ حين الموت، ثم قال: ﴿فَمَآءِنَ كَانَ مِنَ الْمُفَرَّيْنَ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيْمٌ﴾<sup>(٤)</sup> ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ أَدْخُلْ لَجَنَّةً﴾ لأن هذا قيل له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ولم تقم الساعة الآن، فهو دليل على أن الميت ينعم في قبره كأنه دخل الجنة، لأنه يلبس من الجنة، ويفرش من الجنة، ويفتح له باب من الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها فكأنه دخلها.

١٠ - من فوائدتها: أن هذا الرجل ناصح في حياته وبعد مماته، في حياته دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وهذا دليل أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحاً حتى بعد موته يكون ناصحاً، وهذا الرجل تمنى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات وجود الجنة، وقد دل على ذلك آيات، وأحاديث كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ زَيْنَكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٩.

أُعِدَتْ لِلْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup> وَالْإِعْدَاد بمعنى التهيئة، والنصوص في هذا كثيرة، وقد عرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يصلّي صلاة الكسوف . وهل تبقى الجنة أبداً؟

الجواب : نعم، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، والنار موجودة الآن وهو متفق عليه، بين أهل السنة، وهل تفني؟ الصحيح المقطوع به أنها لا تفني؛ لأن الآيات صريحة في ذلك فقد ذكر الله تعالى تأييد الخلود فيها في ثلات آيات من كتابه، في سورة النساء، والأحزاب، والجن، في سورة النساء قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ أَهْلَلِهِ لِيغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴾<sup>(١٦٨)</sup>

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا<sup>(١٦٩)</sup><sup>(٢)</sup>. في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنِ الْكَافِرِينَ وَأَعْدَهُمْ سَعِيرًا<sup>(٣)</sup> خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَحْدُونَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا<sup>(٤)</sup> ﴾<sup>(١٧٠)</sup> الثالثة في سورة الجن :

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارًا جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا<sup>(٥)</sup> ﴾<sup>(١٧١)</sup> فهذه ثلاث آيات صريحة في تأييد أهل النار، ومع التصريح التأييد ذكر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفني، ولكن هذا القول لا شك - مهما قاله من قاله - فإن قوله مردود عليه.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة : منة الله عز وجل على من آمن بالمغفرة والإكرام ، فيتفرع على هذه الفائدة : أن الإيمان سبب المغفرة ، وسبب لإكرام الله تعالى للعبد .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة النساء ، الآيات : ١٦٩ ، ١٦٨ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيات : ٦٤ ، ٦٥ .

(٤) سورة الجن ، الآية : ٢٣ .

- ١٣ - ومن فوائدها: أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكرور، ويستفاد هذا من قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.
- ١٤ - ومنها: ما أشار إليه بعض الأدباء أن التخلية قبل التحلية لقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وهذا تخلية وإزالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup> هذا تخلية ولهذا قيل: التخلية قبل التحلية.
- ١٥ - يستفاد منها: أن المغفرة تسبق الإكرام، والرحمة؟ ويدل لهذه القاعدة التتابع، فإن الغالب أن الله عز وجل إذا قرن بين الاسمين: الغفور والرحيم، يقدم الغفور على الرحيم.
- ١٦ - ومن فوائد الآية أيضاً: إثبات الربوبية الخاصة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهذا من الربوبية الخاصة.
- ١٧ - ومن فوائدها: أن إكرام الله عز وجل لا يختص بهذا الرجل، بل هناك عالم يكرمهم الله تعالى لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup> ففيه حث على أن يفعل الإنسان ك فعله لينال ما ناله ولم يقل (بما غفر لي ربى وأكرمني) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup> ليبين أن الإكرام ليس خاصاً به، بل الإكرام موجود لكل من قام بعمل كعمله.

\* \* \*

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كَنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٢٨)</sup> قال المؤلف - رحمة الله - : [(ما) نافية: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد أن هلك ومات على أيديهم، قوله: ﴿مِنْ جُنُدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ملائكة، فإن

الملائكة جنود الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنُودَنَا لَهُمُ الْغَلِيلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فجنده الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> قال المؤلف [ملائكة لإهلاك أحد] وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء؛ لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصاً بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحًا وجندًا لم تروها ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> أي جنوداً لهؤلاء احتقاراً لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف من أن المراد بالجند الملائكة هو الصحيح، خلافاً لقول بعض العلماء: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي من وحي ورسل؛ لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المؤلف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال: ﴿إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِهَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿إِنَّ﴾ قال المؤلف: [أي: (إن) بمعنى (ما)] وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن):

١ - تأتي نافية.

٢ - وشرطية كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر).

٣ - وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن.

٤ - تأتي زائدة كقوله:

بني غданة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أنت بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ يَهْنَدَأ﴾<sup>(١)</sup> أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنه إذا أنت بعدها إلا فهي نافية، قال الله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ قال المؤلف: [عقوبتهم]، يعني ما كانت عقوبهم التي عاقبهم الله بها لكرفهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَجَهَةً﴾ قال المؤلف: [صاح بهم جبريل] ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> يعني ما احتاجوا إلى عناء ولا جند، ما هي إلا صيحة، ولم يبين الله سبحانه وتعالى الصائح، والممؤلف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نفهم ما أبهمه الله، إلا أن يرد تعينه بدليل صحيح، ولم يرد تعين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صحيح بهم، ولا نجزم من هذا الصائح، المهم أنها صيحة واحدة، صحيح بهم فهلكوا عن آخرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> (إذا) هنا فجائحة تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرة، ولهذا سميت فجائحة؛ لأنها تفاجيء وتأتي فوراً فحين صحيح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم لأن ﴿هُم﴾ ضمير يفيد الجمع والشمول.

### الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن الله عز وجل قد ينزل الملائكة لإهلاك المكذبين،

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.

ووجهه أن نفي إنزال الملائكة على هؤلاء القوم يدل على إمكانه في غيرهم، وإنما صح النفي.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الملائكة جند الله عز وجل قوله: ﴿مِنْ جُنْدِهِ﴾.

٣ - ومن فوائدها: أن الملائكة محلهم السماوات لقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾<sup>(١)</sup> وكاملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يكتبون أعمالهم، والذين يكتبون المتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد وما أشبه ذلك.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حقارة هؤلاء القوم المكذبين لهؤلاء الرسل الثلاثة لقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَتِ الْأَصَيْحَةُ وَحْدَةً﴾.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عظمته الله عز وجل وذلك لذكره بصيغة الجمع ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كَانَ مُنْزَلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ولا يقال إن هذا يفيد التعدد كما استدللت بذلك النصارى، وقالوا: إن الآلة متعددة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ مُنْزَلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وما أشبه ذلك من الآيات، ويقال لهم: إن هذا التعدد للتعظيم، وكيف تستدللون بهذه الآيات المتشابهة وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ

(١) سورة القدر، الآية: ٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧١.

الَّذِينَ قَاتُلُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَالِثَةٍ»<sup>(١)</sup> لكن النصارى كغيرهم من أهل الزيف يتبعون ما تشابه من القرآن ابتعاد الفتنة، وابتعاد تأويله، ومن رأى اتباع المتشابهات من النصارى وغيرهم في نصوص الكتاب والسنة تبين له العجب العجاب، وأنه يجب علينا وجوباً مؤكدًا طلب العلم لدفع شبهات هؤلاء؛ لأن هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: «آخر جوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»<sup>(٢)</sup> هؤلاء يبثون في الناس سموهم، وهم الآن كما سمعنا يصلون نشرات تدعوا إلى النصرانية، ويرسلون أشرطة تدعوا إلى النصرانية؛ لأنهم بدأوا يعرفون المحلات، ويعرفون العناوين ثم يرسلون إليها، وعندها من هذا عدد، يؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مسجلة تدعوا إلى النصرانية، هذه إذا وقعت في أيدي أناس لا يعرفون جهلاً، على الأقل تركن نفوسهم، وإن كنت أستبعد جداً أن يتنصر أحد من المسلمين، لأن دين النصارى الذي هم عليه الآن كله ضلال، لكن لا شك أنه يقع الشبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أنه يجب على شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني على الأثر والنظر؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لابد من أثر ونظر، فالآثار إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه:

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ «آخر جن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً». كتاب الجهاد، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (١٧٦٧).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحِيَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> لكن المكذب لا يكفيه الأثر؛ لأنَّه لا يؤمِّن أصلًاً بالأثر ويحتاج إلى نظر وعقل تدحض به حجته، والمهم أنَّ مثل هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنْزَلَنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> يشبه بها النصارى على أنَّ الله سبحانه وتعالى متعدد أكثر من واحد، وقد ذكرنا أنَّهم غفلوا بل عمدوا عن الآيات الواضحة الصريحة أنَّ الله إله واحد، وأنَّ الله كافرٌ من زعم أنَّ الله متعدد ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَالِثَةٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

٦ - في هذه الآية دليل على أنَّ الله أهلك هؤلاء القوم بصيحة واحدة لم تكرر مرة أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها، لكن لو قال قائل : ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل أهلكوا؟ نقول : الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصيحة أبهمها الله، يتحمل أنها صرخة، ويتحمل أنَّهم أمرُوا بالهلاك، المهم أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

٧ - بيان قدرة الله عز وجل، وأنَّ من عارض الله أو ضدَّ الله مهما عظم فإنَّ إهلاكه يسير على الله عز وجل، كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَيَحْدُثُ﴾<sup>(٥)</sup> وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ﴾<sup>(٦)</sup> لا يتباطأ ولا يتأنَّ، فلمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئاً قال له : كن. فيكون كلمح البصر، وهذا يدل على عظمة الله وقدرته.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٣) سورة القمر، الآية: ٥٠.

٨ - بيان قدرة الله تعالى وأنه قادر على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقط بدون أي فعل، بل صوت مزعج يقطع القلوب، لقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَحْدَةً﴾.

٩ - ومنها بيان ذل كل شيء لعظمته بحيث لا يكرر ولا يعيد ما أراده لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَحْدَةً﴾ لهذا أكدتها بـ﴿وَحْدَةً﴾ لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية، وهكذا جميع ما أمر الله تعالى به كوناً فإنه لا يحتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً كُلُّمَنْجِيلَبَصِرٍ﴾.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة أهلكتهم جميعاً لم ينج منهم أحد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾ وعلي هذا ترتيب قائدة أخرى وهي:

١١ - أن قبض ملك الموت لأرواحبني آدم أكبر مما نتصور، فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض هذه الأرواح وهي تموت في آن واحد؟

فنقول: إن كيف في الأمور الغيبية لا ترد؛ لأن هذه أمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبى لا تقل فيه: كيف؟ ولهذا لما قيل للإمام مالك - رحمه الله تعالى -: كيف استوى؟ قال: «الكيف غير معقول» أي: لا يمكن أن ندركه بالعقل حتى نسأل عنه.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل الثلاثة هلكوا جميعاً لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾ وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة هي أنطاكية فإن زعمه باطل؛ لأن رسل عيسى عليه الصلاة والسلام

الذين أرسلوا إلى أنطاكية، كانوا بعد موسى عليه الصلاة والسلام ولم يهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة، هكذا قال كثير من العلماء، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾<sup>(١)</sup> قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة، وهذه الآية ﴿إِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> تدل على أنهم هلكوا.

\* \* \*

﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا يَهْسِهِنَّ وَنَوْنَ﴾<sup>(٣)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - : [هؤلاء ونحوهم من كذبوا الرسل فأهلكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التالم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوائل فاحضري] ، قوله: ﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾<sup>(٤)</sup> الحسرة هي: شدة الندم والتالم والحزن على ما مضى ، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تَبَرَّا الَّذِينَ أَتَيْعُوا مِنَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾<sup>(٥)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا لَوْلَا كَنَّا كَرَّهَ فَنَتَبَرَّا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّهُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٦)</sup> - أي ندمات وعناء - قوله: ﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾<sup>(٧)</sup> قيل: إن القائل هم المكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، قالوا: يا حسرة على العباد، ثم بيان السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من اتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

(١) سورة القصص، الآية: ٤٣ .

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٦٦ ، ١٦٧ .

وقيل: إن التحسر من الله عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصرف به، بل المعنى أنه يبين حسرة العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون **﴿عَلَى﴾** قريبة من معنى **﴿مِن﴾** يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم وهذا أقرب إلى السياق، لقوله: **﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجَدَهُ فَإِذَا هُمْ خَتَمُونَ ٢٩ يَحْسَرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾** فالكلام كلام الله عز وجل، لكن لما كان التحسر ندماً وألماً صار الله تعالى مترهاً عنه، فوجب أن يكون المراد: يا حسرة واقعة عليهم، أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبيه آخر الآية، وقوله تعالى: **﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾** المراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليس الخاصة، لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة، فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسل، قال المؤلف: [ونداوها مجاز] يعني ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى من يعقل، وما لا يعقل فليس ندائها على سبيل الحقيقة، ولهذا قالوا في قول الشاعر:

**ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي**

بصبح وما الإصباح منك بأشمل

أن هذا يراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور،

لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه

لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء يأتي ويذهب يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ (٢٣) (ما) نافية و(من) زائدة لوقعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظاً، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة) وليس في القرآن حرف واحد لا يفيد معنى أبداً، فكل ما في القرآن فإنه يستعمل على المعاني، ولكن قد يكون زائداً من حيث الإعراب فقط، ولهذا فإن إعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضميمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائتها التنصيص على العموم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعم، فإذا جاءت (من) صارت أنص وأدل على العموم مما لو حذفت، ولهذا قالوا: إن فائتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، قوله: ﴿مِنْ رَّسُولٍ﴾ الرسول عند عامة أهل العلم هو بشر أوحى إليه بشرع وأمر بتبلیغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمي جبريل عليه الصلاة والسلام رسولاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِقَوْلِ رَسُولِيْ كَوْفِيرٌ﴾ ذي قوفة عند ذي العرش مكين (٢٤) (١) قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ (٢٥) أي: إلا كانوا يستهزءون به ولكن قدم المعمول وهو (به) لافادة الحصر، ول المناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائتين: فائدة لفظية، وهي مراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، بأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا

الرسول)، وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزئون إلا بالرسل والاستهزاء هو السخرية والهزء.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على شدة تحسر العباد المكذبين للرسل لقوله: ﴿يَحْسِرُ﴾، ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يفيد أحياناً التعظيم والشدة.

٢ - ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين للرسل سيجدون أعمالهم حسرات عليهم، لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عدل الله عز وجل وهو أنه لا يؤخذ أحداً إلا بذنبه لقوله: ﴿يَحْسِرُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فلن يعاقب الله أحداً إلا بذنب، بل إنه عز وجل قد يغفو عن الذنب إذا كان دون الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ، وَغَفْرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾<sup>(٣)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرسالة لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ﴾ وأن الرسالة عامة في كل أمة؛ لأنه قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ﴾ فكل العباد قد قامت عليهم الحجة ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسول فأهلكوا جمیعاً ثم قيل: ﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا يَهُونُونَ﴾<sup>(٢٠)</sup> فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسل كفر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فُلِّ أَيَّالَهُ وَأَيَّالَهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهِزُونَ﴾<sup>(٢١)</sup> لَا تَعْنِدُوا فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَنِكُمْ﴾<sup>(١١)</sup> فالاستهزاء بالكتب كفر، لقوله: ﴿وَآيَاتِهِ﴾ والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعرية واحدة كفر؛ لأن الاستهزاء بالشعرية الواحدة استهزاء بكل الشريعة، كما أن الكفر بالشعرية الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِسَعْيِنَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِسَعْيِنَ﴾<sup>(٢٢)</sup> وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِسَعْيِنَ وَنَكُفُرُ بِسَعْيِنَ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَيِّلًا﴾<sup>(٢٣)</sup> أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾<sup>(٢٤)</sup> ، فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعرية واحدة منها، فقد كفر كفراً تاماً بالجميع، ومن استهزأ بشيء من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب، حتى بالشيء المندوب لو استهزأ فقد كفر؛ لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض، بل من كره ما أنزل الله فقد كفر، والدليل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْجَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾<sup>(٢٥)</sup> ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر،

(١) سورة التوبة، الآياتان: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٣) سورة النساء، الآياتان: ١٥٠، ١٥١.

(٤) سورة محمد، الآية: ٩.

لقوله تعالى: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمْتَثِّلْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَيَّطْتُ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَنَدِلُونَ»<sup>(١)</sup>. فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهينة، ولهذا يجب على المرء الرضى بكل ما شرع الله تعالى، فيفرضى مثلاً بوجوب الصلاة، وتحريم الخمر، ووجوب الزكاة، وتحريم الربا، وعلى هذا فقس، فكل شيء يجب أن ترضى به وتقبيله، ثم إن عملت به أثبتت، وإن لم تعمل به عوقبت واستحققت العذاب إذا كان واجباً، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنه إذا تركته كفرت، فمثلاً يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه كفر، وإذا آمن بتحريمه وقبله وزرضى بتحريم ولكن فعل الربا فلا يكفر، وحكمه حكم العصاة.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من رسول أرسل إلا وجد من يستهزئ به ومن يؤمن به، ولكن منهم من لا يجد من يؤمن به لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث السبعين ألفاً: «والنبي وليس معه أحد»<sup>(٢)</sup>. فالاستهزاء حاصل لكل رسول. مسألة:

واختلف العلماء فيمن سب الله تعالى أو رسوله ﷺ هل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٣٧٤) (٢٢٠).

تقبل توبته؟ على قولين:

**القول الأول:** إنه لا تقبل توبته، بل يقتل قتل المرتد فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وفي الآخرة أمره إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يعذبه، وإن كان الله تعالى علم منه كذبها فإنه يعذب في الآخرة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - .

**والقول الثاني:** تصح توبة من استهزأ بالله تعالى أو رسوله ﷺ، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يقتل، وأما من سب الله تعالى أو استهزأ به فإنه لا يقتل، وهذا هو الصحيح أن الإنسان إذا سب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فإن تاب قبلت توبته، لكنه يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالله تعالى، والفرق بينهما: أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه حق شخصي، وأما الاستهزاء بالله تعالى وسبه فهو حق الله عز وجل، وقد أخبرنا الله عز وجل أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب، وإذا قبل الله توبته ارتفع عنهم مقتضاه وهو القتل، أما الساب للرسول عليه الصلاة والسلام فإننا لا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفى عن حقه، لذا وجب علينا أن نأخذ به.

\* \* \*

﴿أَلَّمْ يَرَوْا كُمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - : [أي : أهل مكة القائلون

للنبي ﷺ لست مرسلاً، والاستفهام للتقرير أي: [علموا]، الرؤية هنا فسرها المؤلف برؤيه العلم؛ وذلك لأنهم لم يشاهدوا هذا بأعينهم، وإنما علموه بما بلغهم من الخبر، قوله: [أي أهل مكة] الصحيح أن هذا ليس خاصاً بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المؤلف - رحمه الله - جعله خاصاً بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يقال: حتى وإن كانت الآية مكية، فإن المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أبداً إلا بعد فتح مكة **﴿أَلَّمْ يَرَوْا كُمَر﴾** يقول المؤلف: [(كم)] خبرية بمعنى: كثيراً، معمولة لما بعدها، معلقة لما قبلها عن عمل] **﴿يَرَوْا﴾** بمعنى العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله علقتها عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظاً؛ لأن التعليق يبطل العمل لفظاً فقط لا محلاً، والإلغاء يبطله لفظاً ومحلاً، والأفعال القليلة إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وأما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يسمى إلغاء، والثاني: يسمى تعليقاً، والأول: يسمى إعمالاً، فكم هنا علقت **﴿يَرَوْا﴾** عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي **﴿يَرَوْا﴾** ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدير كما قال المؤلف [بمعنى: كثيراً]، ثم قال: [والمعنى إن **﴿أَهْلَكَنَا قَبْلَهُم﴾** كثيراً **﴿مِنَ الْقَرُون﴾** الأمم]. قوله سبحانه

وتعالى : ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ ﴿مِنَ﴾ هذه لبيان الإبهام الواقع في كم و﴿الْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكون دون ذلك ، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يهلكها الله عز وجل قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين ، لكن الضابط أن نقول : القرن هم الأمة التي اشتراك في عصر ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المؤلف - رحمة الله - : [أي المهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكذبين] وفي نسخة ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكذبين] ، لأن الخطاب لأهل مكة ، فالمكذبون هم المكيون ، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين أعم ، فهو لاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا ، بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها .

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال المؤلف : [أفلا يعتبرون بهم ، وأنهم . . . إلى آخره - بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور] الذي قبله قوله : ﴿كَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ﴾ كأنه قال : «الم يروا أنهم لا يرجعون» ، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى ، أي : لا من حيث الإعراب ؛ لأنها جملة مستقلة ، وليس تابعة لها في الإعراب ، ولكنها تابعة لها في المعنى .

والخلاصة : أن الله بين في هذه الآية بياناً يقرر به هؤلاء المكذبين بأنه أهلك كثيراً من الأمم السابقة ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المكذبين ، لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الرجوع إليها حتى يستعيروا ، فالواجب على هؤلاء المكذبين أن يعتبروا بهم .

## الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: تقرير المكذبين بما يقررون به، أنه أهلك من سبّهم لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقَرُونِ﴾.
- ٢ - ومن فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة؛ لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مفيد للتوبّع، لأن الواجب على من نظر في عاقبة المكذبين أن يرتدع عن الكذب.
- ٣ - من فوائد الآية أيضاً: أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيمة لقوله: ﴿أَنَّهُمْ لِيَوْمٍ لَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٢١)</sup> فلا أحد يبعث قبل يوم القيمة، اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصة بنى إسرائيل الذين أخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله الدجال ثم يكلمه ويخاطبه فيقوم حياً، وإنما فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبداً، لقوله: ﴿أَنَّهُمْ لِيَوْمٍ لَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٢١)</sup>.

\* \* \*

﴿وَإِنْ كُلَّ لَمَّا جَاءَهُمْ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾<sup>(٢١)</sup> قال المؤلف: [إن نافية، أو مخففة]، قوله نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن) لكنها خفت و(أو) في كلام المؤلف ليست للتخيير بل هي

للتنويع، لأنها على حسب القراءة الآتية في ﴿لَمَّا﴾. ﴿كُلُّ﴾ أي: كل الخلائق، وهي مبتدأ على التقدير، أي على أنها نافية وعلى أنها مخففة؛ لأن المخففة تعمل في الجملة، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ على كلا الوجهين أي على أن (إن) نافية، أو مخففة ﴿لَمَّا﴾ قال المؤلف: [بالتشديد بمعنى إلا، أو بالتحفيف فاللام فارقة و(ما) مزيدة] ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا، وعلى هذا تكون إن نافية، والتقدير: «وما كل إلا جميع لدينا محضرون»، وبالتحفيف فاللام فارقة بين «إن» النافية و«إن» المخففة و(ما) مزيدة، والتقدير على هذا «وإن كُلُّ لجميع لدينا محضرون» لأن (ما) زائدة، فإذا أردنا أن نعرب هذه الآية نقول: (إن): نافية على قراءة التشديد، و(لما) بمعنى إلا.

الإعراب الثاني: (إن) مخففة على قراءة التخفيف، واللام فارقة وهي للتوكيد، و(ما) زائدة، والتقدير على هذا «وإن كُلُّ لجميع لدينا» ﴿جَمِيع﴾ قال المؤلف: [خبر المبتدأ أي: مجموعون] المبتدأ ﴿كُلُّ﴾.

فإن قال قائل: كيف يكون خبر لـ(كل) و(كل) تدل على الشمول؟

فالجواب: أن (كلاً) تدل على الشمول، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع، فتقول: أكرم كل القوم، وقد يكون القوم متشتتين كل واحد بجانب، لكن ﴿جَمِيع﴾ تدل على الاجتماع فيها زيادة على الشمول وهي جمع الناس، فكل الناس يحضرون إلى الله عز وجل، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية ﴿ جَمِيعٌ ۚ إِذَا فَلَّا  
يَقُولُ قائلٌ : إِنَّ الْمُبْدأً هُوَ نَفْسُ الْخَبْرِ ; لَأَنَّ كَلْمَةَ ﴿ كُلٌّ ۚ تَدْلِي عَلَى  
الشَّمْوَلُ وَ ﴿ جَمِيعٌ ۚ تَدْلِي عَلَى الشَّمْوَلِ ، نَقُولُ : لَا ، لَأَنَّ الْفَرْقَ  
بَيْنَهُمَا أَنَّ (كُلٌّ) تَدْلِي عَلَى الشَّمْوَلِ ، وَإِنْ كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ وَ (جَمِيعٌ)  
تَدْلِي عَلَى الشَّمْوَلِ مَعَ الْاجْتِمَاعِ .

قال المؤلف: [مجموعون ﴿ لَدِينَا ۚ عِنْدَنَا فِي الْمَوْقِفِ بَعْدِ  
بَعْثَتِهِمْ ﴿ مُحْضَرُونَ ۚ لِلْحَسَابِ خَبْرَ ثَانٍ ] أَيْ : خَبْرُ ثَانٍ لـ (كُلٌّ)  
فَصَارَ ﴿ كُلٌّ ۚ لَهَا الآنُ خَبْرَانِ الْأُولَى : ﴿ جَمِيعٌ ۚ وَالثَّانِي :  
﴿ مُحْضَرُونَ ۚ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةُ : مَا كُلٌّ وَاحِدٌ مِّنْ هُؤُلَاءِ إِلَّا  
مُحْضَرٌ لِدِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالنَّاسُ جَمِيعٌ .

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث لقوله تعالى:  
**﴿ وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدِينَا مُحْضَرُونَ ۚ ۲۳﴾**
- ٢ - ومن فوائدها: كمال قدرة الله عز وجل حيث يجمع هذه  
الخلائق جميعاً في مكان واحد؛ لقوله: **﴿ لَمَّا جَمِيعٌ لَدِينَا ۚ ۲۴﴾**.
- ٣ - ومن فوائد الآية: وجوب الاستعداد لهذا اليوم؛ لأن الله  
تعالى لم يخبرنا به لمجرد الإطلاع، ولكنه أخبرنا به من أجل أن  
نستعد له حتى نكون على أهبة لما سنحاسب عليه.

\* \* \*

**﴿ وَإِيَّاهُ لَهُوَ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَنَّاهَا وَأَخْرَجَنَا مِنْهَا حَيَا فَمِنْهُ  
يَأْكُلُونَ ۚ ۲۵﴾** قال المؤلف - رحمه الله - : [ ﴿ وَإِيَّاهُ لَهُوَ ۚ ۲۶﴾ على

البعث خبر مقدم «الأَرْضُ الْمَيَتَةُ» بالتخفيض والتشديد «أَحَيَّنَهَا» بالماء، مبتدأ الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء، وقول المؤلف: [خبر مقدم]، المبتدأ الأرض، قوله: «الْمَيَتَةُ» بالتخفيض والتشديد يعني أن فيها قراءتين (الميّة) و(الميّة)، وهذا دليل على أن الميّة كما يطلق على الميت الذي قد فارق روحه جسده، يطلق أيضاً على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن الميّت لمن سيموت) و(الميّت لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميّة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميّة، والميّة «الأَرْضُ» مبتدأ و«الْمَيَتَةُ» صفة و«أَحَيَّنَهَا» صفة للأرض، ولهذا قال المؤلف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها) ليبين أن الميّة وأحياناها كلاماً صفة للأرض، ولكن الصحيح أن «أَحَيَّنَهَا» جملة استثنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض، لأن محظ الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحياناها بعد موتها، أما على رأي المؤلف فإذا جعل «أَحَيَّنَهَا» صفة، فإنه يشكل علينا أن هذا مخالف للقاعدة المعروفة: «أن الجمل بعد المعرف أحوال». والجواب على ذلك أن يقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني  
فمضيت ثمت قلت لا يعنيني  
قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني)،  
ومنه أيضاً على قول بعض المعربين «كَمَثِيلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

أَسْفَاراً<sup>(١)</sup> على أن جملة **﴿يَحْمِل﴾** صفة الحمار؛ لأن المراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمار يحمل أسفاراً، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة **﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾** استثنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحياها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَيْمَنَهُ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَيْسَعَةً فَإِذَا أَزَّلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَقْتَ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْحِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>** وعليه فنقول: وجه الآية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى.

**﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّاً﴾** معطوف على **﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾** يعني الأرض ميتة أحيناها بالزرع، فقام الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعاً لا يفيد الأدمي، وإنما يفيد البهائم، ويفيد الأدمي عند الضرورة لكن الفائدة العظمى منه **﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّاً﴾** **﴿مِنْهَا﴾** أي: من الأرض **﴿حَبَّاً﴾** كالحنطة **﴿فِيمَنْهُ يَأْكُلُونَ﴾** **﴿فِيمَنْهُ﴾** أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله: **﴿فِيمَنْهُ يَأْكُلُونَ﴾** دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول، لأنه لو كان صعباً لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة، ولهذا قال: **﴿فِيمَنْهُ يَأْكُلُونَ﴾** قدم المعمول

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المتيسر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ﴾ أي بساتين ﴿مَنْ تَخِيلُ وَأَعْنَبِ﴾ هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حبًا، ويكون ثمرًا، الحب من الزروع، والثمر من الأشجار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ﴾ ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين، المفعول الأول ﴿جَنَّتٍ﴾ والثاني: ﴿فِيهَا﴾ و﴿جَنَاتٍ﴾ جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستئاته به، وأصل هذه المادة - الجيم والنون - تدور على هذا المعنى، أي: على الاستئثار والخفاء، ومنه سمي القلب: جناناً؛ لاستئثاره، ومنه سمي: الجن؛ لاستئثارهم وخفائهم، ومنه سمي الجنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستئثار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره ﴿مَنْ تَخِيلُ وَأَعْنَبِ﴾ التخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوت لا يحتاج إلى مؤنة، ولهذا يقتات رطباً وياساً، فيقتات رطباً كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، وياساً كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤنة طبخ، ويتفق به رطباً وياساً، ﴿وَفَجَرَنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مَنْ الْعَيْنُونَ﴾ قال المؤلف [بعضها]. ويجوز أن تكون ﴿مَن﴾ لبيان الجنس ويكون هذا عاماً، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيوناً كثيرة، وأصنافاً متنوعة، فمنها العيون الجارية

الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تباع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة الأنابيب المعروفة الآن ترکز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالذى يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل وعلى رحمته بعباده، يقول: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة على مذهب البصريين، قوله: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قال المؤلف - رحمة الله - [بفتحتين وبضمتين] أي: ثمره، وثمره. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما) لأن الله عز وجل ذكر نخيلاً وأعناباً فهما صنفان، ولم يقل (من ثمرهما) بل قال: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المؤلف: ﴿وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل الشمر ﴿أَفَلَا يَشَكُّرُونَ﴾ (٣٥) نعمة الله تعالى عليهم] قوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ﴾ في ﴿مَا﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف، يعني أن هذا التمر الخارج من النخيل والأعناب لم ت عمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنها بمعنى الذي أي: (من الذي عملته أيديهم)؛ لأن الناس قد يعملون شيئاً يصلاحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون

ويتفكرون به، فهناك أنواع الحلوي تصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرین: امتن بما يخرجه هو عز وجل من هذه الشمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا يحدث فيه شيئاً نأكله كما يقولون طازجاً، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلاً من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله عز وجل امتن على العباد بالأمرین جمیعاً، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: «أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما» فنقول: إن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدينا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضاً ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد، فكل هذا نعمة، قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبیخ، والجملة معطوفة على مقدر يعلم من السياق، يعني: أغفلوا عن ذلك فلا يشكرون، أو أكفروا به فلا يشكرون، لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم إما غافل ويرى هذا أمراً معتاداً وكأنها شيء جار على العادة بدون أن يكون لله فيه منه، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم، لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيث يصاب بضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلا من جاع، ولا قدر الري إلا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأنس إلا من فقد الأئس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن تكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نَعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكَيْرُهُمُ الْكَفَرُونَ﴾<sup>(١)</sup> كفراً بالنعمه وبطراً يقول: «إنما أوتته على علم عندي» وما أشبه ذلك قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> الشكر هو: (القيام بطاعة المنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له)، فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، ولو جعل النعم عوناً له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكراً؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنما أنعم الله علينا هذه النعم لنقوم بعبادته والتقوى عليها، والشكر متعلقه ثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدٍ ولسانٍ والضمير المحجب  
فسكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمه من الله  
سبحانه وتعاليٰ هو الذي من بها، إن كانت نعمة إيجاديه، أو كانت  
دفع نعمة فإنها من الله وهو المان بها، فلا يجعل ذلك من أسباب  
عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعاليٰ  
واحسانه.

وشكر اللسان: أن يثنى الإنسان بها على الله سبحانه وتعاليٰ ، قال الله تعاليٰ : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثَ﴾<sup>(٣)</sup> لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفراً لا شكرأً.

(١) سورة التحل ، الآية: ٨٣.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المنعم عز وجل، ومن شكر الجوارح: أن يظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنياً ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره؛ لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما متفقان؟  
فالجواب: أن بينهما فرقاً:

أولاً: أن الحمد متعلقه اللسان فقط؛ لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.

ثانياً: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فيين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: اشكر الله على كمال صفاتيه، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيث المتعلق.

### الفوائد:

في الآيات الكريمتات فوائد منها:

- 1 - بيان قدرة الله عز وجل على إحياء الأرض بعد موتها، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَأْتِيَهُمُ الْأَرْضُ مُّحَمَّلاً أَحْيِنَاهَا﴾.

٢ - ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن إحياء الأرض بعد الموت مشاهد، ويستدل بها على إحياء الله المميت عند بعثهم يوم القيمة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله:

﴿وَمَنْ أَيْمَنِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَلِيقَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَطَ وَرَبَّ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُجَى الْمَوْقِتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) وقال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَّكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ يَاسِقَتِ لَهَا طَلْعُ نَصِيدُ﴾ (٣٠) رِزْقًا لِلْعَبَادِ وَاحِينَا بِهِ بَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْحَمْرَقُ﴾ (٣١) والآيات في هذا كثيرة.

٣ - ومن فوائد الآيات الكريمة: جواز وصف الجماد بالموت والحياة، فإنه ليس خاص بذى الروح المتحرك، لقوله:

﴿الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا﴾ فووصفها بالموت، ووصفها بالحياة.

٤ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّا﴾ بضمير العظمة.

٥ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان نعم الله عز وجل بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار، الحبوب قوله:

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّا﴾ والثمار قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَخْيِيلٍ وَأَعْنَبْ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٢) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَرَوْهُ﴾.

٦ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان حاجة العبد لربه، لقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣)، وكان هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان أنه لا يمكن أن يأكل إلا من هذا الذي أخرجه الله

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة ق، الآيات: ١١-٩.

له، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادراً فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخر جناه لك.

٧ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المظلة لقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾<sup>(١)</sup> فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب.

٨ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمر يؤكل بلا تعب، وثمر يقتات رطباً ويابساً.

٩ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في تفجير الأرض عيوناً، هذه الأرض اليابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَنَفِجُرُ مِنْهُ الْأَنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا مَا يَسْقُطُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا من عظيم قدرة الله، وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس، إما حجراً معيناً - كما قيل - يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه فيتفجر اثنين عشرة عيناً، على قدر قبائلبني إسرائيل، وهذه من تمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

١٠ - ومنها: بيان احتياج النخيل والأعناب إلى الماء، وأن ثمره يكثر بحسب الماء؛ لأنه قال: ﴿ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾<sup>(٣)</sup> فدل هذا على أن الماء له أثر في كثرة الشمار وطيبها، وهذا هو الواقع.

١١ - ومنها: الرد على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

قوله : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ والنحو الصالحة على إثبات حكمة الله عز وجل كثيرة جداً منها ما صرحت به تعالى به مثل قوله : ﴿حَسَّمَةٌ بِلِغَةٍ فَمَا تَغِنِي النُّذُرُ﴾<sup>(١)</sup> ومنها ما صرحت به تعالى وجه السلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطَلَاقٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوْيِلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينَ﴾<sup>(٣)</sup> . ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدتها، فإن إثباتها يدل على الثبوت، ونفي ضدتها يدل على كمالها، وأنها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدتها، أو بفقد كمالها، ولا شك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله عز وجل، أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم، وأن يكون الله عز وجل يفعل الشيء سفهًا وعيثًا تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

١٢ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يؤكل، أرأيت لو أن هذا الثمر صار مرّاً هل ينتفع به؟! ولهذا قال الله عز وجل في الماء: ﴿أَفَرَءَيْتَ الْمَاءَ الَّذِي تَشَرُّبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ، أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْأَةِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزَلُونَ<sup>(٥)</sup> ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾<sup>(٦)</sup> فلم تستطعوا شربه، هذا الثمر جعله الله شهياً للنفوس، تأكل منه، وتتغذى به الأبدان، وللهذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ فلو شاء الله عز وجل لجعل هذا الثمر فاسداً، فقد يكون

(١) سورة القمر، الآية: ٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٦٨ - ٧٠.

حلواً لذيذاً شهياً لكن يجعل الله فيه آفة تفسده، وهذا موجود بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويعمل من ثمرة.

١٣ - ومن فوائدها: أننا لا نملك لأنفسنا أن نوجد هذا الشمر، وأن ذلك مجرد فضل من الله لقوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُهُ أَيَّدَهُمْ﴾ فإن هذا ليس من صنعنا، فلو اجتمع الناس كلهم على أن يخرجوه رطبة واحدة أو حبة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومع هذا يخلق الله عز وجل هذه العناقيد التي لا تحصى كثرة، وهذه الأعذاق التي لا تحصى كثرة، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غاية ما هنالك أننا نوجه هذا الشمر حسب ما علمنا الله عز وجل، فنأخذ من طلع الفحل ما نجعله في طلع النخلة حتى يطيب الشمر، أما أنا خلقناه وأوجدناه فلا. وهذا على جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتُهُ أَيَّدَهُمْ﴾ نافية.

١٤ - ومن فوائدها: بيان نعمة الله عز وجل بما علمنا مما نصنعه من هذه الشمار، وعلى وجه يخالف ما خلقت عليه، حتى يتكون من هذا طيب على طيب لقوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُهُ أَيَّدَهُمْ﴾ فإن الله تعالى علمنا كيف نصنع هذه الشمار على وجه تتلذذ بها، وننتفع بها أكثر مما هي عليه في الخلقة، وهذا على جعل (ما) موصولة.

١٥ - ومن فوائد الآيات الكريمة: وجوب شكر نعمة الله عز وجل؛ لأن الله وبح من لا يشكر، والشكر مع كونه طاعة الله يثاب الإنسان عليه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه، فهو سبب للمزيد من هذه النعم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ .

فإن قال قائل: نحن نرى كثيراً من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها؟ فبماذا نجيب عن هذه الآية؟  
الجواب: على هذا أن نقول:

أولاً: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة، بل العقوبة تكون بفقدان النعمة، وتكون بقسوة القلب ومرض القلب، وإن كان أكثر الناس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله وعن ذكره هذه أكبر عقوبة، ثم هؤلاء المنعمون في أبدانهم لا يظنون أنهم منعمون في قلوبهم أبداً، ففي قلوبهم من الضيق والحرج، وعدم الصبر على القضاء والقدر ما يجعلهم دائماً في نار، ولا تجد أطيب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحِيَّنَّهُ حَيَاةً طِيبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .<sup>(١)</sup> فهؤلاء قد عوقبوا عقوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها وهو قسوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر، والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضي بالله ربّا، ولا بشرعه ديناً.

ثانياً: أن نقول هذه النعم عجلت لهم عقوبة لهم واستدراجاً، ولهذا لما جاء عمر - رضي الله عنه - إلى النبي عليه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة التحليل، الآية: ٩٧.

الصلاه والسلام وهو على سرير مخيط من الليف فإذا هو قد أثر في جنبه، فبكى وقال له عليه الصلاه والسلام: «ما يبكيك؟» قال: يا رسول الله، فارس والروم ينعمون بما نعموا من الدنيا وأنت على هذه الحال؟ فقال: «يا عمر، إن هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»<sup>(١)</sup> فهؤلاء يعاقبون بهذه النعمة التي تدر عليهم؛ لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشد عليهم، لأنهم فارقوا دنيا تعلقت بها قلوبهم، ونعموا به ثم أعقبها هذا العذاب - والعياذ بالله - فصاروا أشد حسرة. ويدرك عن ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - وهو قاضي القضاة في مصر أنه من ذات يوم بيهودي زيات يبيع الزيت، قد تعب من الزيت، وثيابه وسخة، وقاضي القضاة بمصر يمشي على عربة تجره الخيول، والناس حوله يميناً وشمالاً، فأوقف اليهودي الموكب وقال: يا قاضي القضاة كيف تكون أنت في هذا الحال وأنا في هذا الحال ورسولكم يقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(٢)</sup> فقال له ابن حجر - رحمه الله - ما أنا فيه من النعيم في الدنيا هو سجن بالنسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيه من التعب والبلاء هو بالنسبة لعذاب الآخرة جنة، فأنت الآن في جنة؛ لأنك سوف تنتقل إلى عذاب لا تتصوره. فلما قال ذلك قال اليهودي: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فأسلم، فهو لاء المنعمون نعيمهم في الحقيقة شقاء وعذاب، وإن نعمت أجسادهم، لكن

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة... (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة الكافر ١ (٢٩٥٦).

أكثر الناس في غفلة عن هذا، ومع الأسف أن هذا الداء دب إلى المسلمين، فصار أكثر المسلمين اليوم لا ينشدون إلا هذا النعيم أعني نعيم الدنيا، وفي غفلة عن نعيم الآخرة، ولهذا تجدهم يتتحدثون دائماً عن الترف واللهو وما أشبه ذلك، كأنهم ما خلقوا إلا لهذا، وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبه معلقاً بالدنيا، ولا ينظر إلا إلى التنعم بها، ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إن الدنيا إذا جعلت وسيلة للآخرة صارت من الآخرة في الحقيقة، لكن ننكر أن تكون الدنيا أكبر هم الإنسان، كأنما خلق لها فقط، وهذا من نقص دينه، ونقص عقله، فكيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعلها مهمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمضمون، وليس بمخلد؟! قال الله تعالى منكراً على قوم هود على لسان هود عليه الصلاة والسلام:

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾<sup>(١٢٥)</sup> فأنت لست بخالد، فكيف تجعل هذا المنمر الذي أنت تعيش فيه تجعله أكبر همك، مع أنك لا تدري متى تفارقه؟! كل من هؤلاء المترفين لا يدرى متى يموت، لكنه يدرى أنه سوف يبقى في الآخرة - إن كان مؤمناً بها - ومع هذا يعمل للدنيا التي لم يخلق لها، ويدع الآخرة التي خلق لها.

\* \* \*

ثم قال عز وجل: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - : [الأصناف] ﴿كُلُّهَا مِمَّا تُبْتَلِي أَرْضُ﴾ من الحبوب

وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات العجيبة [٢٦]، ﴿سُبْحَنَ﴾ تأتي دائمًا منصوبة على أنها مفعول مطلق حذف منها العامل وجوباً، وأصلها تسبيحاً لله، وتسبيحاً مصدر سبح، فالعامل ممحذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسبيح حول إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعد في الماء، فمعنى التسبيح في سبحان الله تزية الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله عز وجل أمران:

أحدهما: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبَتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٧] هذه الآية كقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٤٩] فكل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبداً، فكل شيء سواء مما تنبت الأرض، أو منبني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون فإنه مكون من شيئين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا رَوْجَيْنِ﴾ تزية الله عز وجل عما لا يليق به، ولهذا جاءت الآية هنا ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فالملحوظ لابد فيه من تعدد، والخالق منزه عن التعدد، وهذه هي الحكمة - والله أعلم - في أنه قال: ﴿سُبْحَنَ

**الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴿١﴾ ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج) بل قال: ﴿سُبْحَانَ﴾ لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبني آدم لابد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق عز وجل واحد منفرد، لا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيوب، لقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.
- ٢ - ومن فوائدتها: التنبيه على وحدانيته عز وجل، ومخالفته للمخلوقات لقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فلم يقل: (سبحان الله) بل قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبَتُ أَلْأَرْضُ﴾ والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزع الله عنه قد ورد في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنِّي وَيَقْنَى وَجْهَ رَبِّكَ دُوَّلُ الْجَنَّلِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(١)</sup> فلما ذكر حال الخلائق ذكر حال الخالق؛ لأنه عز وجل يبقى مع فناء غيره، كذلك هنا المخلوق كله مزدوج لابد فيه من زوجين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup> أما الرب عز وجل فإنه واحد، ولهذا قال:

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الداريات، الآية: ٤٩.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من شيء مخلوق إلا وفيه زوجان، لقوله: ﴿وَمَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> وهذا لفظ من أعم ما يكون من الكلمات.

٤ - ومن فوائد الآية أيضاً: أن بني آدم على أصناف متنوعة كما كان ذلك أيضاً فيما تنبتة الأرض، بل وفي الأرض نفسها قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرٌ﴾<sup>(٢)</sup> إثبات التجاور لها يتضي أن كل واحد منها يخالف الآخر، لأن الجار غير جاره وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنْتَ أَلْأَرْضُ﴾ يدل على أن في الأرض أصنافاً منوعة من النباتات، كذلك ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما خلق الله عز وجل من بني آدم أصنافاً: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه، وهكذا ليعتبر الإنسان قدرة الله عز وجل على خلق هذه الأشياء المتضادة.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجهل للإنسان وأنه لا يحيط بكل شيء، لقوله: ﴿وَمَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا إذا أضفتها إلى قوله: ﴿وَسَئَلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الْرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٤)</sup> تبين لك مدى جهل الإنسان في الأمور.

\* \* \*

﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُّظَلِّمُونَ﴾<sup>(٥)</sup> نقول: في إعرابها ما قلنا في آية ﴿الْأَرْضُ الْمَيَّتَةُ﴾ فيكون الليل مبتدأ، وآية

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

خبر مقدم، ونقول في ﴿نَسْلَخ﴾ كما قلنا في قوله : ﴿أَحَيَّنَهَا﴾ أي أنه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر : ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . إلخ.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية قال : ﴿نَسْلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾<sup>(٢٧)</sup> ﴿نسَلَخ﴾ يقول المؤلف [فصل]، وسمى الله هذا الفصل سلخاً، لأنه يشبه سلخ الجلد من البهيمة ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾<sup>(٢٧)</sup>، لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يسلخ من البهيمة، وأنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئاً فشيئاً، هكذا ضوء النهار بالنسبة للليل يسلخ الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يسلخ الجلد من البهيمة قال : ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾<sup>(٢٧)</sup> أي داخلون في الظلم ﴿فَإِذَا﴾ فجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئاً فشيئاً، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظلمة كاملة، وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئاً فشيئاً، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظلمة شيئاً فشيئاً.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: هذه الآية العظيمة في الليل، حيث يسلخ الله تعالى منه النهار سلخاً، كما يسلخ الجلد من

الشاة، وهذا يدل على أنه يأتي شيئاً فشيئاً.

٢ - من فوائد الآية الكريمة أيضاً: أن الأصل هو الظلم لقوله: ﴿سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، فهذا يدل على أن الأصل هو الظلم، وأن النهار طارىء عليه، ولهذا يسلخ منه وهو كذلك، فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثة وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلم ويأتي النور بعده.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: تذكير الخلق بهذه النعمة لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وأنه لو لا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يسلخ من الليل لكننا دائمًا في ظلمة، وهذا بلا شك متعب للناس وضار بهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَلَّلَ سَرِمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضَيْكٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾<sup>(٣)</sup> الواو حرف عطف و(الشمس) أيضاً معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضاً ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَهَا﴾ ويجوز أن تكون الواو استئنافية، الشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المؤلف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك] أي سواء قلنا الجملة استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا إن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم

(١) سورة القصص، الآية: ٧١.

الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله ، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المضيئة التي يصل ضوؤها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟!  
 الجواب : لا أحد يستطيع ، إذاً فهي آية من آيات الله ، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الشمر ، وتدفئة الأرض ، والنور العظيم ، كم طاقة يستفيداها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء ، طاقة عظيمة سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغنى بالشمس عند تدفئة المنازل ، أو فيما يحصل بالإضاءة فإذا هذا أمر لا يقدر له ثمن ، أما إنضاج الشمر ، وإيصال الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدث ولا حرج ، فهي آية عظيمة من آيات الله عز وجل .

وهي آية في مسيرة قال : ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَّهَا﴾ يعني تسير جرياً ، والجري هو المشي بشدة ، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جداً لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل ، أو قد يعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها ، لكن تأمل الطائرة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا ، ومع ذلك نراها تمشي ببطء ؛ لبعدها عنا فما بالك بالشمس ؟! نحن نراها تسير لا شك في هذا ، حتى إنك نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعش ، وهذا يدل على أنها تمشي مشياً عظيماً ، ومع هذا وهي بعيدة جداً ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريانها سريع جداً ، وقد علم تقديره عند الفلكيين الآن وقوله : ﴿لِمُسْتَقَرٍ لَّهَا﴾ قال المؤلف :

[إِلَيْهِ لَا تَتْجَازُوهُ] ، والمستقر موضع القرار ، كما قال الله تعالى : **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْنَدٌ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ**<sup>(١)</sup> وَقَالَ **﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾**<sup>(٢)</sup> . فالمستقر موضع القرار ، وقال تعالى : **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾**<sup>(٣)</sup> فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زمني؟ أو قرار مكانني؟ أو هما جميعاً؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ : «أتدرى أين تذهب؟» فقال أبو ذر : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنها تذهب وتسجد تحت العرش ، وتستأذن فذلك مستقرها»<sup>(٤)</sup> ، ثم قرأ : **﴿وَالشَّمْسُ تَحْمِرِي لِمُسْتَقْرِرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾**<sup>(٥)</sup> وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكانني ؛ لأنها تسجد تحت العرش ، وهذا السجود لا نعلم كيفيةه ؛ لأن الشمس ليست كالبشر حتى يقاس سجودها بسجود البشر ، بل هي مخلوق أعظم ، ولا ندرى كيف تسجد ؟ فإذا لا يرد علينا السؤال : هل هي تسجد وهي سائرة أو تقف ؟ وكيف يصح أن نقول : إنها تسجد وتستأذن وهي لا تزال مستمرة في الأفق ؟ كل هذه الأسئلة إيرادات نجيب عليها عند ذكر الفوائد .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٦١ .

(٣) سورة هود ، الآية : ٦ .

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩) .

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيمة، أي: عند منتهى سيرها في يوم القيمة، أي: تجري إلى يوم القيمة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر منتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليها من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانياً ومكانياً، لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مستقر زمني مكانني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة ﴿بَحْرِي لِمُسْتَقِرٍ لَّهَا﴾ كل شيء له غاية، وكل شيء له منتهى إلى الله عز وجل. قال المؤلف: ﴿ذَلِك﴾ أي: جريها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيم﴾ بخلقه ﴿ذَلِك﴾ أي: جريانها لمستقرها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزُ الْعَلِيم﴾ وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿الْعَزِيز﴾ لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر؛ فلهذا أتى باسم ﴿الْعَزِيز﴾؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معان:

أولاً: العزيز في قدره.

ثانياً: العزيز في قهره.

ثالثاً: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يماثله أحد، وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المطلق، يقول

الشاعر الجاهلي :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب  
وأما في امتناعه فالمعنى : أنه ممتنع عن كل نقص وعيوب .

أما ﴿الْعَلِيم﴾ فمعناه ذو العلم الكامل الشامل ، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان ، و شامل لكل صغير وكبير ، قال تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْعِيْنِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا قَسَطَ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسِنُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(١)</sup> وما كتب في كتاب مبين إلا بعد أن كان معلوماً عند الله عز وجل ، إذ المجهول لا يكتب ، فهذا يدل على سعة علم الله عز وجل ، وأنه محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً .

ذكر الله هذين الاسمين ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيم﴾ لمناسبة المقام؛ لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم .

#### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الشمس تجري أي تسير، وهذا هو الواقع، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي، وليس المراد أنها تجري برأي العين، وأن الذي يدور هو الأرض، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه، فإذا

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وجب أن نقول: إن الشمس تجري، ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

٢ - ومن فوائدها: أن هذه الشمس التي هي دائمةً ودائبة لابد لها من متهى لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍ لَهَا﴾ ويترفع على هذا:

٣ - أن جميع الخلق لها متهى، وكل ما في الدنيا من خلق له متهى، وسوف يزول ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالْسَّمَوَاتُ وَبَرْزَوْفًا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾<sup>(٤٨)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشمس مقدرة تقديرًا بالغاً منظماً لقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾<sup>(٢٨)</sup> ويشهد لهذا الواقع، فإن هذه الشمس منذ خلقها الله إلى أن تزول وهي في فلكها لا تتقدم ولا تتأخر عن السنة التي أمرها عز وجل أن تكون عليها، ولا ترتفع ولا تنخفض، حتى قيل: إنها لو تنخفض مقدار شعرة لأحرقت الأرض، ولو ارتفعت مقدار شعرة لجمدت الأرض، ولكن الله عز وجل جعلها على هذا التقدير البديع المحكم الذي لا يتغير ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾<sup>(٢٨)</sup>.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهو العزيز العليم، ويؤخذ منهما: إثبات صفتين تتضمنهما وهو العزة والعلم، ويؤخذ منهما أيضًا: إثبات الأثر، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد، وعليم بكل شيء.

\* \* \*

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

قال الله عز وجل : ﴿وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونَ الْقَدِير﴾ <sup>(٢٣)</sup> يقول المؤلف - رحمة الله - : [القمر بالرفع، والنصب] ، فيه وجهان في الإعراب : القمر بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ . والقمر بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور ، فيكون من باب الاشتغال ، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرجحان؛ لأن الجملة التي قبله ﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي﴾ جملة اسمية ، خبرها فعل ، فلهذا جاز في القمر الوجهان ، والمعروف أنه يتراجع الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية ، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية . قال المؤلف [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده] يعني يفسره المذكور والتقدير على هذا : (وقدرنا القمر منازل) ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس : التقدير وقدرنا القمر قدريناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسّر والمفسّر ، فإذا أردت أن تقدر فعل : التقدير (وقدرنا القمر منازل) .

إذا قلت : لماذا لم يقل عز وجل (وقدرنا القمر منازل) .  
 قلنا : لأنه إذا أتي بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسنن هذا إليه مرتين ، أي : أسنن الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين مرة بذكره اسمًا ظاهرًا ، ومرة بذكره اسمًا مضمرًا ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ﴾ وتقدير الله عز وجل للقمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي شاهده ، يتغير كل ليلة عن الأخرى ، ولو لا هذا التقدير ما تغير ، لكنه مقدر منازل ثمانية وعشرين منزلًا ، على حسب النجوم

المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان تسعًا وعشرين ليلة، أو ليتان إن كان ثلثين، وتسمى هاتان الليلتان ليالي الاستقرار - يعني الاختفاء - يختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير، والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى، ولهذا يبدو صغيراً، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره؛ لأن نور القمر مستمد من نور الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة، جرم مظلم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتِينَ فَمَحَوْنَا ءَايَةً أَيَّةً النَّهَارِ مُبَصِّرَةً﴾<sup>(١)</sup> فهو جرم مظلم لا يستفيد نوراً إلا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة، ولهذا يمتلىء نوراً فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب ل تمام المقابلة حينئذ؛ فيمتلىء نوراً، والجزء المنير من القمر هو الذي يلي الشمس، ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالاً، ويكون عنها جنوباً فنجد فتحته نحو الجنوب، ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر - أي فتحة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

قوسه - دائمًا إلى المشرق ، أو الجنوب ، هذا ليس بصواب ، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونَ الْقَدِيرِ﴾ أي : عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم ، والعرجون هو : أصل الشماريخ الذي في طلع النخل ، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر ، فشبه الله عز وجل القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم ، أي : أنه يبدو دقيقاً أصفرًا متقوساً .

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة : أن هذا القمر آية من آيات الله عز وجل ، حيث هو موضوع في فلكه ، ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة ، فليس مطلقاً ولكنه مقدر بمنازل ينزلها كل ليلة ، والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عدد السنين والحساب كما قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾<sup>(١)</sup> حتى إن العالمين بمنازل القمر يعرفون الليلة من الشهر وإن كانوا لم يحسبوا من أول الأمر ، بناء على معرفة المنازل ؛ لأن هذه المنازل لا تتغير ، وحلول القمر فيها أيضاً لا يتغير ، فهي منظمة من عند الله عز وجل .

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة : إثبات القياس لقوله : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونَ الْقَدِيرِ﴾ وكل تشبيه ، أو مثل في القرآن الكريم فإنه يدل على القياس ؛ لأن التشبيه ، أو المثل إلحاد شيء بشيء لعلة ، وهي التي تسمى في البلاغة وجہ الشبه .

(١) سورة يونس ، الآية : ٥

٣ - ومن قوائد الآية الكريمة: إطلاق القديم على غير الله خلافاً للمتفلسفة، أو الفلاسفة الذين يقولون: إن أخص وصف الله هو القدم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله، والقدم لا يدل على الأزلية، فهذا العرجون وصفه الله بأنه قديم ومع ذلك فإنه ليس أزلياً، إذ إنه حادث بعد أن لم يكن، وبه يتبيّن بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إن أخص وصف الله عز وجل هو القدم. ولو قالوا: أخص وصف هو الأولى، لكننا نوافقهم على ما قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، أما أن نقول: إن القدم أخص وصف الله مع أنه يوصف بهذه الحادث فهذا لا يكون، ولا يصح.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: فيها دليل على قدرة الله من حيث نور القمر، حيث يبتدئ ضعيفاً، ثم يزداد في القوة، ثم يرجع إلى الضعف، فإن هذا من قدرة الله عز وجل، إذ لو شاء لجعله ممتداً دائماً، أو ناقصاً دائماً.

٥ - وفيها أيضاً من الفوائد: الإشارة إلى حال الإنسان، فإن الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مطابق لحال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾<sup>(١)</sup> فحال الإنسان متساوية تماماً لحال القمر، فالقمر يبدو ضعيفاً، ثم يزداد في القوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسبة لحياته.

﴿ لَا أَشَمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْتُلْ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي  
 فَلَكِ يَسْبِحُونَ ﴾<sup>(١)</sup> لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري  
 لمستقر لها، وأن هذا أمر مقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله  
 تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود بعد امتلائه  
 نوراً فيصير كالعرجون القديم، بين أن هذا النظام لا يمكن أن  
 يتصادم أبداً؛ لأنه مقدر من عند الله عز وجل العزيز العليم.  
 منازل لا يتتجاوزها ولا يتعداها، قال: ﴿ لَا أَشَمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ  
 تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ يقول المؤلف: [يسهل ويصح]، لكن الأولى أن  
 نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تدرك القمر.  
 وقد مر علينا أنه إذا جاءت الكلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى  
 الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَخَذَ  
 وَلَدًا ﴾<sup>(٢)</sup> يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل  
 الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»<sup>(٣)</sup>،  
 أي أن ذلك مستحيل. ﴿ لَا أَشَمْسُ يَنْبَغِي ﴾ أصلها: (الشمس لا  
 ينبغي لها)، ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية  
 كلها، فقال: ﴿ لَا أَشَمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ يعني: لا  
 يمكن أن تدرك القمر فتجمعت معه في الليل، فإذا غابت لا  
 يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدرنا أنها تغيب في الساعة  
 الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، وبين غروبها  
 وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة

(١) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

الثامنة، فيكون بين غروبها وطلاوعها ثمان ساعات، لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها، والذي جعلها تسير عليه ل تمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيمة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ عَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرْزَوًا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾<sup>(٤٨)</sup>.

﴿وَلَا أَيَّلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، وهنا قال: ﴿وَلَا أَيَّلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ كان الليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفي الله عز وجل أن يسبق الليل النهار، قيل: المراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله عز وجل ذكر الشروق في قوله: ﴿لَا أَشْمَسُ يَتَبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَر﴾ يعني لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل ﴿وَلَا أَيَّلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يمكن للليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن تغرب الساعة التاسعة مثلاً؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى ﴿وَلَا أَيَّلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن للليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا ينافي تقدير الله عز وجل الذي سمي نفسه بأنه

العزيز العليم. قال: «وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبَحُونَ» (كل) قال المؤلف: [ تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم، «فِلَكٍ» مستدير «يَسْبَحُونَ» يسرون، نزلوا منزلة العقلاء]، ذكر المؤلف النجوم، والنجوم في الآية غير مذكورة، فالصواب من الشمس والقمر، والمعنى: كل من الشمس والقمر، والليل والنهار يسبح في فلكه، والفلك هو الشيء المستدير، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلى، والذي تغزل به النساء الصوف، له شيء شبه الطار في أعلى مستدير هذا فلكرة المغزل. فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر، والليل والنهار، وقوله: «يَسْبَحُونَ» قال المؤلف: [يسرون] ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف - رحمة الله - لأن السبح هو العوم في الماء، فكان هذه عائمة في الفلك الواسع، تدور وليس تسير على أرض مسطحة، أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. وقول المؤلف: [يسرون نزلوا منزلة العقلاء] أي: الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا (منزلة العقلاء) وذلك بأنأتي بالواو التي هي للعقلاء، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلا للعقلاء، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئاً على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة، والعقلاء نأتي بالواو، أو الميم، فنقول مثلاً: الإبل ركبهم أربابهن، ولا تقول: الإبل ركبهم أربابهم. لأن الميم للعاقل، وتقول: الإبل شربن ولا تقول شربوا؛ لأن الواو للعاقل، وهنا «يَسْبَحُونَ» أتي بالواو التي للعاقل يقول المؤلف: (إنها نزلت منزلة العقلاء) بإضافة السبح

والجريان إليها، والجريان والسبح إنما يكون من ذي الإرادة والعقل.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: في الآية دليل على أن سنة الله عز وجل لا تتغير هذا هو الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةً أَلَّا تَبْدِيلًا﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> فسنة الله سبحانه وتعالى لا تتغير في الكون، ولكن هل هي سنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟ الجواب: لا، ولكن الله تعالى أخبرنا بأن هذه السنة لا تتغير، لكنها تتغير بتغييره ولهذا حبست الشمس ليوشع بن نون كما جاء في الأحاديث الصحيحة<sup>(٣)</sup> ، ولهذا أيضاً إذا كان قرب الساعة فإنها تخرج من مغربها، ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فرقتين<sup>(٤)</sup> ، فهذه السنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الله قادر على أن يبدلها، أو يغيرها ويكون هذا السبب.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس لا يمكن أن تخرج ليلاً بحسب السنة الإلهية، أما بحسب قدرة الله تعالى فإنه يمكن أن تخرج ليلاً؛ لأن الله يقول: (كن) فيكون.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الليل لا يسبق النهار فلا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب تحليل العنائيم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين... فأراهم انشقاق القمر

(٣٦٦) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠).

يدخل عليه، ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليتان جميعاً ﴿وَلَا أَيْلُ  
سَابِقُ النَّهَارِ﴾ هذا ما يظهر لنا من الآية الكريمة، وقد يكون لها  
معنى غير ما نفهمه من ظاهرها، ولهذا ربما يكون الذين يدرسون  
في علم الفلك يتبعين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس والقمر والليل  
والنهار في فلك، يعني في شيء مستدير كفلكة المغزل، وأنها  
تدور لقوله: ﴿وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

٥ - ومن فوائدها: ضعف قول من يقول: (إن الشمس في  
السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا)، فيجعلون الكواكب  
والشمس والقمر، كواكب معيبة في كل سماء كوكب على هذا  
الترتيب من الأعلى للأدنى: زحل، المشتري، المريخ، الشمس،  
الزهرة، عطارد، القمر، هذه سبعة يقولون كل واحد في سماء  
(زحل) هو أعلىها في السماء السابعة - على كلام السابقين من  
علماء الفلك - (المشتري) في السماء السادسة، (المريخ) في  
السماء الخامسة. (الشمس) في السماء الرابعة، (الزهرة) في  
السماء الثالثة. (عطارد) في السماء الثانية. (القمر) في السماء  
الدنيا كما قيل:

زحل شری میریخه من شمسه      فتزاهرت بعطارد الأقمار

فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب، وهذا الترتيب لا  
نعلمه من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام،  
ونحن نعرف إن هذه الكواكب بعضها فوق بعض بالكسوف، فإذا  
كان القمر يكشف الشمس عرفنا أنه تحتها، كما نعرف أن الغيم

تحت الشمس؛ لأنه يحجبها، فإذا كسف القمر شيئاً من النجوم عرفنا أن القمر تحتها، ولهذا القمر يكشف كل النجوم، والشمس، ولا شيء يكشفه منها إلا الأرض، لأن الأرض تحته فتحجب نور الشمس عنه، فحينئذ ينكسف القمر، وقد شاهدت أنا وغيري أن القمر يكشف بعض النجوم تجري يسير حولها، ثم يغطيها، وهذا يدل على أن القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على قول من يقول: (إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور)، والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة، وأن القمر يدور على الأرض. وهذا غلط؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحداً، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فإذا فسرنا السبع بالدوران، وأثبتنا ذلك للقمر فلنثبته أيضاً للشمس.

\* \* \*

﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلُكِ الْمَسْحُونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ﴾ على قدرتنا ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءة ﴿ذُرِّيَّاتَهُمْ﴾ أي آباءهم الأصول في ﴿الْفُلُكِ﴾ أي سفينة نوح عليه السلام ﴿الْمَسْحُونَ﴾ الم المملوء].

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ﴾ أي: للناس جميعاً، يقول المؤلف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضاً آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عز وجل بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عز وجل يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه

مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته، قوله: ﴿أَنَا حَمَّلْنَا ذُرِّيَّتَهُم﴾ هذه الجملة في تأويل مصدر هي المبتدأ يعني (واية لهم حملنا ذريتهم) قال المؤلف: ﴿ذُرِّيَّتَهُم﴾ [أي: آباءهم الأصول]، فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتَهُمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾<sup>(١)</sup> والمؤلف - رحمه الله - ومن ذهب مذهبة في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضاً: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَمَا يَأْتُهُ لَهُمْ أَنَا حَمَّلْنَا ذُرِّيَّتَهُم﴾ لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتبعين أن يكون المراد بالذرية الأصول، لأن الصغار المشهودون حملهم حمل آبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يشاهدها، فتعين أن يكون المراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المؤلف - رحمه الله تعالى - يوافق ظاهر الآية، لكنه يخالف ما كان معهوداً في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المراد

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى ﴿ذِرِيتُهُم﴾ أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جعل نطفة ليس آدم الذي خلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذِرِيتُهُم﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وأدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أن خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام حملت ذريته في الفلك المشحون، وخلق لهم مثله ما يركبون، وهذا قريب جداً ولا يخالف ظاهر الآية، ويشير إلى أن هذه السفينة جعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ تَرَكَنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ﴾<sup>(٣)</sup>. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون). وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأبه السياق.

﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾<sup>(٤)</sup> أي: سفينة نوح فـ(الـ) هنا للعهد

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢، ١٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليس للاستغراف؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى الْفُلْكِ إِنَّا مَعَنَا﴾<sup>(١)</sup> والفالك يطلق على الجمع، ويطلق على المفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُثُرْ فِي الْفُلْكِ وَجَرِيَّ بِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد، ولهذا قال بعض الفقهاء - رحمهم الله - (إن الأحذب الذي حدبه كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفالك في العربية) لا يدرى هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنسبة، فالأحذب المقوس الظاهر يركع بالنسبة ينوي الركوع، لأنه ما زال راكعاً أحذب، ﴿الْمَشْحُونُ﴾<sup>(٣)</sup> أي: المملوء بأناس من البشر الذي آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: ﴿قُلْنَا أَحْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ أَثْنَيْنِ﴾<sup>(٤)</sup>.

### الفوائد:

في الآية الكريمة من الفوائد:

١ - بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فإنه لو لا أن الله أبقى هؤلاء لزالت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٢) سورة يومن، الآية: ٢٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

معه، ومع هذا لم يبق من نسل الذين معه أحد، وإنما الذين بقوا هم نسل نوح عليه الصلاة والسلام فقط، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الْبَاقِينَ﴾<sup>(١)</sup> أما غيرهم فلم يبق منهم أحد، ولهذا يسمى نوحًا أبا البشر الثاني.

٢ - من فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله عز وجل بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر، لو لا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء، ولكن الله تعالى أعلمهم بصناعة هذه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن السفينة التي كان فيها نوح عليه الصلاة والسلام كانت مملوءة من البشر وغيرهم لقوله: ﴿الْمَشْحُونُ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرَكِبُونَ﴾<sup>(١)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - : [أي: مثل ذلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى ﴿مَا يَرَكِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فيه] يذكرهم الله عز وجل :

أولاً: بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام.

وثانياً: بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا إِيمَانَهُ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَلَّنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَّلَاجِ وَدُسُرِ﴾<sup>(١)</sup> فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك لأجل أن يتعلم الناس؛ لأنه لم يقل (حملناه على فلك) بل قال: ﴿عَلَى ذَاتِ الْأَوَّلَاجِ وَدُسُرِ﴾ كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير، حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّنْ مِثْلِهِ مَا يَرَكِبُونَ﴾<sup>(٤٢)</sup> ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ المراد بمثله هنا الجنس، وليس المراد المماثلة من كل وجه، وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون متعددة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، وما زالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدها الحاضر، قال المؤلف - رحمة الله تعالى -: [بتعميل الله تعالى] إشارة إلى سؤال مقدر كأنه قال: كيف قال الله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّنْ مِثْلِهِ﴾؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر وليس بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابها؟ فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه، لقوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ وليس السفن الموجودة والتي كانت في عهد نزول القرآن ليست كمثل سفينة نوح من كل وجه، ويidel على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة

من كل وجه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup> فإن المراد هنا المماثلة في العدد فقط، وإن بين السماء والأرض من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى الراحة الحاصلة بهذه السفن، وأنها محل ركوب واستقرار لقوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

٣ - وفيها أيضاً: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى باستقرار الراكبين على هذه السفن.

\* \* \*

﴿وَإِنْ دَشَّا نُغْرِقُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنَقِّذُونَ﴾<sup>(٣)</sup> إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ<sup>(٤)</sup> في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها ﴿دَشَّا﴾ وجوابه ﴿نُغْرِقُهُم﴾ وفيها أيضاً استثناء مفرغ من أعم الأحوال وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ دَشَّا نُغْرِقُهُم﴾ يعني إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْنَهُمْ أَجْوَارٌ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾<sup>(٥)</sup> إِنْ يَشَاءُ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيُظَلِّنَ رَوَادِكَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾<sup>(٦)</sup> أوْ يُوْقِهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ<sup>(٧)</sup> . فحذر الله عز وجل من أمرتين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإنما أن يغرقها وهنا يقول: ﴿وَإِنْ دَشَّا

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة الشورى، الآيات: ٣٢، ٣٤.

**نُفِّرَقُهُمْ** ﴿ وَهُمْ فِي سُفْنِهِمْ ﴾ ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ الصریخ بمعنى المغيث، وسمى المغيث صریخاً؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغیث، ومنه حديث غزوة بدر أن أبا سفيان بعث صارخاً إلى أهل مكة يستغیثهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنَقَّذُونَ ﴾ ﴿ أَيْ : لَا أَحَد يغیثهم ، وَلَا أَحَد ينقذهم إِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَغْرِقَهُمْ ﴾ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَّعًا إِلَى حِينٍ ﴾ ﴿ أَيْ لَا يَنْجِيْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْإِسْتِثنَاءُ هُنَّا قِيلُ : إِنَّهُ مُنْقَطِعٌ ؛ لَأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَا هُمْ يُنَقَّذُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ بِمَعْنَى : لَكُنْ رَحْمَةُ مِنَّا يَنْجُونَ وَيُنَقَّذُونَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَتَّعًا إِلَى حِينٍ ﴾ ﴿ أَيْ أَنَّهُمْ يَمْتَعُونَ إِلَى حِينٍ أَجْلَهُمْ ؛ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، أَيْ لَا يَنْجِيْهُمْ إِلَّا رَحْمَتَنَا لَهُمْ ، وَتَمْتَيْنَا إِيَّاهُمْ بِلَذَاتِهِمْ إِلَى انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ .

### الفوائد:

في الآيتين الكريمتين فوائد:

- ١ - منها: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا نَشَأَ نُفِّرَقُهُمْ ﴾ .
- ٢ - منها: أن الله إذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له، لقوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنَقَّذُونَ ﴾ .
- ٣ - منها: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بإنجائهم من الغرق، وأن نجاتهم من الغرق ليست بحسبهم وعملهم، ولكنها من رحمة الله عز وجل.
- ٤ - منها: إثبات رحمة الله عز وجل لقوله: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .

- ٥ - ومنها: أن الله تعالى قد ينقذ الإنسان من الهلاك إلى أن يأتي أجله، لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَيْهِ حِينَ﴾.
- ٦ - ومنها: أن الخلود في هذه الدنيا متذر، ومستحيل لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ حِينَ﴾ وما كان له غاية فلابد أن ينقضى.
- ٧ - ومنها: أنه يجب على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنفاذ من الشدائـد، أو بحصول المحبوب أن ينظر إلى النعم على أنها فضـل من الله عز وجل وليس بحسبـه، ولكنـها من الله لقوله: ﴿وَإِنَّ شَانِغَرِيقُهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.

\* \* \*

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال المؤلف: [من عذاب هم الدنيا كغيرهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أعرضوا]، قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ هذه الجملة شرطـية، فعل الشرط فيها ﴿قِيلَ﴾ وجوابـه مـحـذـوفـ، قدرـه المؤـلـفـ بـقولـهـ: (أـعـرـضـواـ) وـهـذـاـ التـقـدـيرـ لاـ شـكـ أـنـ التـمـاسـ مـنـ المؤـلـفـ - رـحـمـهـ اللهـ - وـإـلـاـ فـقـدـ يـكـونـ الـأـمـرـ أـوـسـعـ مـاـ قـالـ المؤـلـفـ، وـحـذـفـ مـثـلـ هـذـاـ فـيـهـ مـنـ الـبـلـاغـةـ أـنـ الـذـهـنـ يـقـدـرـ كـلـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـقـدـرـهـ مـاـ يـتـرـتـبـ عـلـىـ هـذـاـ القـولـ، هـذـاـ مـنـ جـهـةـ، وـمـنـ جـهـةـ أـخـرىـ أـنـ النـاسـ إـذـاـ قـيـلـ لـهـمـ: ﴿أَنْقُوا مـاـ بـيـنـ أـيـدـيـهـمـ وـمـاـ خـلـفـهـمـ﴾ تـخـتـلـفـ إـجـابـاتـهـمـ مـنـهـمـ مـنـ يـعـرـضـ وـيـسـكـتـ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـسـتـكـبـرـ وـيـسـبـ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـقـاتـلـ: إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـأـمـرـ الـتـيـ لـاـ تـخـفـيـ، فـكـانـ فـيـ حـذـفـ هـذـاـ مـنـ الـبـلـاغـةـ مـاـ هـوـ ظـاهـرـ لـيـذـهـبـ الـذـهـنـ كـلـ مـذـهـبـ فـيـ تـقـدـيرـ هـذـاـ الـمـحـذـوفـ،

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ القائل هنا مبهم، لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عز وجل في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سنته، أو كان من قول الدعاة بعد ذلك ﴿لَهُمْ أَتَقُوا﴾ أي: الكفار. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال المؤلف: [من عذاب هم الدنيا] ولكن لهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد يعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضاً لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا يُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنَّ لَيْلَوْا بَعْضَهُمْ بِعْضِهِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> كانت هذه في غزوة بدر حين قتل صناديد قريش، فسمها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا ﴿أَتَقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من عذاب الدنيا العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله عز وجل، كالقطط والزلزال والغرق وغير ذلك ﴿وَمَا خَلَفُوكُمْ﴾ من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشد، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب إلى الصواب، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل ﴿وَمَا خَلَفُوكُمْ﴾ أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يجاح عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

(٢) سورة الدخان، الآية: ١٦.

الدنيا ، وأما خلقهم فإن الخلف هو الوراء قد يطلق بمعنى الأمام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَالِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصِبًا ﴾<sup>(١)</sup> قال العلماء : معناه : أمامهم . وكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَيْظٌ ﴾<sup>(٢)</sup> أي : من أمامه .

وقيل : المراد بـ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ المعا�ي التي في مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ المعا�ي الماضية فيجعلون المراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من عذاب الله ، وقد سبق أن قلنا : إن الآية إذا كانت تحتمل المعاني المقوله فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع . وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> لعل هنا للتعليق ، أي : لأجل أن يرحمهم الله عز وجل إذا قيل لهم هذا الشيء ، فجمع لهم بين الترغيب والترهيب ، الترغيب بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> والترهيب في قوله : ﴿ أَتَقُولُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ فهو لاء جمع لهم بين الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون ، بل يعرضون ويستكرون ويسخرون ، ويقولون : هذا أساطير الأولين ، وما أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دعوا إلى الله تعالى .

### الفوائد:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد :

- أن هؤلاء الكفار قد أقيمت عليهم الحجة وبلغتهم الدعوة ووعظوا ، ولكن لم ينفعهم ذلك لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ

(١) سورة الكهف ، الآية : ٧٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٧ .

**لَهُمْ أَتَقْوَاهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ .**

٢ - ومن فوائدتها: أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عرضة للعذاب إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: **«أَتَقْوَاهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ»**.

٣ - ومن فوائدتها: أن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته سبب للرحمة لقوله: **«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»**.

٤ - ومن فوائدتها أيضاً: إثبات العلل والأسباب لقوله تعالى: **«لَعَلَّكُمْ»** فإن لعل هذا للتعليل، ولا أحد ينكر أن للأسباب تأثيراً إلا من صرف عن مقتضى الفطرة، والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إن الأسباب والعلل مؤثرة بذاتها، وأنه لا بد لكل سبب من تأثيره في مسببه، ولا بد في كل علة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: إنه لا تأثير للعلل والأسباب، وإنما هي علامات وإشارات فقط، فإذا وجد المسبب أو المعلول لم يقولوا: إن ذلك من أجل السبب أو العلة، ولكن يقولون: إن ذلك حصل عنده لا به. ولا ريب أن هؤلاء يخالفون المنقول والمعقول. ولا أحد يوافقهم على ما ذهبوا إليه.

القول الثالث الوسط يقولون: إن الأسباب والعلل تأثر في معلولاتها ومبنياتها، ولكن يجعل الله ذلك فيها، فهي ليست مؤثرة بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسبب، أو للمعلول. وهذا القول هو المتعين، وهو الصواب؛

بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة، أو هذا السبب التأثير فلا يبقى له تأثير إطلاقاً، وما قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بغريبة حيث أُلقي في نار تأجج فقال الله عز وجل لهذه النار: ﴿كُوْفِيْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup> فكانت برداً وسلاماً، مع أنها هي سبب للإحرق، ولكنها صارت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أن الأسباب والعلل إنما تؤثر بإرادة الله عز وجل وجعل هذه العلة أو السبب مؤثراً.

٥ - ومن فوائد هذه الآية: إثبات رحمة الله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، فهي من الصفات الذاتية لأن الله لم يزل رحيمًا بعباده ولا يزال، ومن الصفات الفعلية باعتبار تعلقها بالمرحوم، فإنها تتجدد باعتبار المرحوم، لا باعتبار أنها صفة من صفات الله، فهذا الذي رحمه الله من البشر حادث بعد أن لم يكن فتعلقت به الرحمة، ولا يخفى ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرحمة على وجه الحقيقة، وادعائهم أنه يراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان. ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون أن الله تعالى الإرادة، وبالإحسان؛ لأنه مخلوق منفصل ليس من صفات الله، وهذا بلا شك قول باطل، وقد مر علينا بيان تعليتهم لإنكاره والرد عليهم. قالوا: إن الرحمة تقتضي رقة وليناً وضعفًا، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وأيضاً الرحمة لا يدل عليها العقل، ونحن لا نثبت من الصفات إلا ما دل عليه العقل، وقد بينا أن هذا القول ليس بالصواب:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

أولاً: أن الرحمة قد تقع من إنسان قوي، وذي سلطان ويوصف بالرحمة.

ثانياً: ادعاؤهم أن العقل لا يدل عليها باطل، فإن العقل يدل عليها أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، وقد مر علينا هذا كثيراً.

\* \* \*

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ إِيمَانِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾  
 ﴿وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ الضمير يعود هنا على المكذبين للرسل، و﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لفظاً، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنى جديداً، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتخصيص على عمومه، أي: أي آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها، بل يعرضون عنها ويستكرون، والآيات التي تأتي من الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية.

الثاني: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكناً، وأن لا يوجل منها قلبه، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء ﴿وَإِنْ يَرُوا كَسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾<sup>(١)</sup> أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمراً مخيفاً؛

(١) سورة الطور، الآية: ٤٤.

لأنه شيئاً طبيعياً، ولا ينبغي أن يخيف - نسأل الله العافية -، أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يحرك له ساكناً، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإنما فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المبالاة بها، وعدم الاكتتراث بها، وأن لا تحرك من الإنسان ساكناً، ولا تهز له عاطفة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤١﴾ أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكروا عنها، ولم يذعنوا لها ولم يقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكتترثون بها ولا يهتمون بها.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يذكر، أو يبين لعباده من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ووجه ذلك أنه لو لا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

٢ - من فوائدها: أنبني آدم قد يعتون عن الآيات فيعرضون عنها بدون نظر، والواجب على الإنسان أن ينظر أولاً، ثم يحكم ثانية، ولهذا يقال: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، فانظر أولاً في الآيات هل هي آيات مقنعة، موجبة للصلاح، فلتكن صالحأ بها، هل هي لا تنفع، فحينئذ تذر بالإعراض عنها.

٣ - من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قسوة قلوب هؤلاء، فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات ودليله ﴿وَمَا تَأْتِهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة لقوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾. فأثبتت الله تعالى أنه رب هؤلاء، وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَكُذَا الْبَلَةَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup> فكل شيء فالله ربها، حتى الكفار، وقد تكون الربوبية خاصة، أي: أنه يراد بها ربوبية خاصة، فيها مزيد عنابة واعتناء، مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فإن هذه الربوبية غير الربوبية العامة.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: تقييم حال هؤلاء والتحذير من فعلهم لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾<sup>(٣)</sup> مع أنها جاءت من ربهم الذي هو مالكهم، وحالاتهم، وأمرهم إليه، ومع ذلك يعرضون.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فَالَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْيَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ وَإِنْ أَنْتَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال المؤلف: [أي قال فقراء الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]، هكذا سار المؤلف في

(١) سورة النمل، الآية: ٩١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢.

تفسير الآية فجعل القائل هم القراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال القراء من الأغنياء أن ينفقوا، أي: إذا جاء القراء يسألون الأغنياء أن ينفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نطعمكم، ولو شاء أن نطعمكم لأعطيتكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المؤلف - رحمه الله -.

لكن الذي ينبغي أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يراد به في بعض الأحيان التعميم، فـ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قال لهم أحد من الناس، سواء كان القراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق، لأن الأغنياء من الصحابة - رضي الله عنهم - مثلاً ينفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن ينفقوا أيضاً، فالصواب أن نبني الآية على إبهامها ليكون أعم، وقوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمْ﴾ أي مما أعطاكم الله، وفي قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ دون قول: (أنفقوا من أموالكم) فيه تبنيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تنكرتون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تنفقون؟!

هذه هي الفائدة من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فما كان الجواب: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْيَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا . . .﴾ اللام هنا الأصح أن المراد بها الصلة، يعني قالوا قوله يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم

الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال المؤلف [استهزاء بهم] يحتمل ما ذكره المؤلف أنه استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عناداً وتبجحاً يقولون: ﴿أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْيَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ و﴿مَن﴾ هنا بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: نطعم أحداً لو يشاء الله أطعمه من دوننا، أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم، و﴿لَو﴾ هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: ﴿يَشَاء﴾ وجوابها: ﴿أَطْعَمَهُ﴾ وقد أتت على خلاف الأكثرا حيث حذفت اللام من الجواب، والأصل (من لو يشاء الله لأطعمه) فإن جواب (لو) إذا كان مثبتاً فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تمحض اللام، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الْزَّرِعُونَ ﴿٢٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَنَّا فَظَلَّمْنَا تَفَكَّهُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَرْأَةِ أَمْ نَحْنُ الْمَزِيلُونَ ﴿٢٧﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة يس من باب محذوف اللام ﴿أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْيَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قال المؤلف: إنهم يقولون ذلك [استهزاء بهم] يعني: أنطعم قوماً لو شاء الله أطعمهم، فإذا طعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فراراً من اللوم، يعني: أنطعم قوماً أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله تعالى لم يشاء أن نطعمهم فلا نطعمهم.

**الوجه الثالث:** يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضًا على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيراً، ولا يعطيه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يطعمهم، والممسؤل عنهم هو الله، وكان على الله أن يطعمهم، لكن لم يشاً ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

**الأول:** الاستهزاء.

**الثاني:** الاحتجاج بالقدر.

**الثالث:** الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ قال المؤلف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٤٧] يعني هؤلاء الكفار الذين أمروا أن ينفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعهم فيقول: نعم أعتقد ذلك، فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نطعمهم، والأمر بمشيئة الله ما أنت إلا في ضلال مبين قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ إِنْ هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية و(إن) ترد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

**الأول:** تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب

ولا صرييف ولكن أنتم الخزف

**الثاني:** تأتي شرطية، مثاله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَأَللَّهُ

أَوْلَى بِهَا<sup>(١)</sup>.

الثالث: تأتي نافية، مثاله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن.

وقال المؤلف: [مبين أي: بين] فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي متعدية، ولازمة، فيقال: أبان شيء، أي: أظهره، ويقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن «مبين» من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين ويعتمد أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر.

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل «وَقَرَءَ إِنْ مُبِينٍ<sup>(٢)</sup>» ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق.

قال المؤلف: [وللتصریح بکفرهم موقع عظیم] أي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل: (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فله موقع عظيم لأنه: أولاً: التصریح بکفر هؤلاء، لو قال (قالوا) لقلنا لعلهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصریح بکفرهم.

الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر،

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ١.

فيكون الكفر عاماً لكل من قال هذه المقالة.

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلات فوائد:

**الفائدة الأولى:** التصریح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير.

**الفائدة الثانية:** أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق.

**الفائدة الثالثة:** العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام بمعنى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا: يعني قالوا في حق الذين آمنوا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون ﴿أَنْطَعُمُ مَنْ لَوْيَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

**الفوائد:**

١ - يستفاد من هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الذين كفروا يوعظون وينبهون ولكنهم يستكبرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ فالحججة قائمة عليهم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا أنفق بأمر الله تعالى فلا منة له على الله عز وجل؛ لأن الله تعالى هو الذي أعطاه لقوله: ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمتكلم الواعظ أن يبين الأسباب التي تحدث على فعل ما وعظ به لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: أنطعم من لو يشاء الله أطعنه أنهم كفار لقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ - ومن فوائدتها: أن البخل من صفات الكافرين، لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإذا كان من صفات الكافرين فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتصرف به، فكل ما كان من صفات الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن اللائق بالمسلم أن لا يفعله، لأنه إذا فعله صار متشبهاً بالكافرين في هذه الخصلة.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يريد بها الباطل ﴿أَنْطَعْمُ مَنْ لَوْيَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته عز وجل اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء، وهؤلاء أغنياء.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن المشركين يقررون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء، لقولهم: ﴿مَنْ لَوْيَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ والمشركون أو الكافرون لا ينكرون ربوبية الله عز وجل، بل يقررون بها حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنما ينكرونها بالستتهم لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾<sup>(١)</sup> ولقول موسى عليه الصلاة والسلام، لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَارَ﴾<sup>(٢)</sup> لكن ينكرون ربوبية استكباراً ومكابرة، وإلا فإن قراره نفوسهم تشهد بها.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢ .

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: الأساليب الدعائية التي يستعملها المشركون من قديم الزمان، حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلين: أنفقوا مما رزقكم الله. قالوا لهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»<sup>(٤٧)</sup> وهذا الوصف المشين للمؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجوداً إلى يومنا هذا، فهم يصفون أهل الخير بالأوصاف العديدة المنفرة منهم، أو التي يقصدون بها استعداء الحكام على هؤلاء المؤمنين، يقولون: هؤلاء رجعيون، وهؤلاء متخلفوون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يصفون بها أولياء الله عز وجل، ونحن لا ننكر أنه يوجد من أهل الخير وأهل الدين من يغلو ويبالغ في عمله، أو في وصفه لغيره من التكفير والتفسيق، حتى يكفر من لم يكفره الله، ويفسق من لم يفسقه الله، نحن لا ننكر أن هذا موجود، ولكن يبدو لي - والله أعلم - أن وجود مثل هؤلاء المتشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفسق، فيريدون أن يحدثوا ردة فعل بالنسبة لهؤلاء، ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانباً متطرفاً في الفسوق والعصيان، وأنه مستمر على ذلك ومقر على ذلك من بعض ولاة الأمور، حصل رد فعل مقابل لهؤلاء، فتشدد هؤلاء في مقابل تراخي هؤلاء، ولكن التوسط هو الخير، ومع هذا فإن المتوسطين المعتدلين لا يسلمون من ألسنة المتطرفين الضالين، ولا من ألسنة المتطرفين الغالين، فالغالون مثلاً يقولون لهؤلاء المتوسطين: أنتم مفرطون، أنتم مداهنة، أنتم تقررون أهل

الشر، وأهل الشر يقولون: هؤلاء متشددون، هؤلاء يريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم، وإنما فهم كافرون وما أشبه ذلك، والمهم أن لقبسوء التي يلقب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة ولا تزال موجودة إلى يومنا هذا، حتى أهل البدع يلقبون أهل السنة بـاللقب السوء يقولون: هؤلاء مشبهة. إذا ثبتو أهل الشفات على الحقيقة، وهؤلاء حشوية، هؤلاء نوابت وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب التغور منهم، والنيل من قدرهم، ولكن هذا لا يضر أهل الخير، ولكن يؤذى بهم، والأذية غير الضرر، فقد يتأنى الإنسان بالشيء ولكن لا يتضرر به، فها هو الإنسان يتأنى من رائحة البصل والكراث، والشيء المستقذر، ومع ذلك لا يتضرر به، وقد ثبت الله لنفسه أنه يؤذى من المنافقين وغيرهم، ونفى عن نفسه التضرر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَا يَعْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾<sup>(١)</sup> وقال في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر»<sup>(٢)</sup>، وقال في الحديث القدسي: «يا عباد إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»<sup>(٣)</sup>، المهم أن مثل هذه الألقاب لا شك أنها تؤذى المؤمنين، ويتأذون منهم، وتضيق بها صدورهم، لكنها لا تضرهم، بل هي نافعة لهم؛ لأنهم إذا صبروا عليها أجروا على الصبر، وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفارة لهم؛ لأنه لا يصيب المؤمن من هم ولا أذى ولا غم إلا كفر

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الجاثية (٤٨٢٦) ومسلم، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧).

الله به عنه حتى الشوكة يشاكلها، لاسيما وأنه يؤذى هنا في ذات الله عز وجل، فيكون هذا منقبة لهم، ويكون هذا الإنسان الذي أُوذى في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصديقين والشهداء، وقد أخبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه يتلى الصالحون الأمثل فالأمثل<sup>(١)</sup>، فإذا كان فيه قوة في دينه فإنه يؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل، فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذية ما يحصل للآخر، وقد يتليه الله عز وجل، ﴿وَمَنْ أَنْتَ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأْنَ بِهِ وَإِنَّ أَصَابَهُ شَرٌّ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾<sup>(٢)</sup> نسأل الله السلامة.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: المبالغة من أعداء الله بما يسمون به أولياء الله لقولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»<sup>(٤٧)</sup> كأنهم حصرו حالهم من كل وجه في الضلال المبين، كأنه لا هداية فيهم إطلاقاً (ما أنتم إلا في ضلال) وهذا غاية ما يكون من العداون من هؤلاء.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله، وهي كثيرة في القرآن، ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مقيدة بالحكمة، إذ ليست مشيئة الله مجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.

\* \* \*

(١) أخرجه الترمذى، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) أي يقول الكفار المكذبون بوعد الله - عز وجل - ومنه القيامة ﴿ مَتَى ﴾ هنا استفهام استبعاد وتحدي ، أي : يقولون مستبعدين هذا الأمر متحدين من قوله ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) ، و﴿ مَتَى ﴾ خبر مقدم و﴿ هَذَا ﴾ مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن ﴿ مَتَى ﴾ واقعة موقع النكرة و﴿ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وجد نكرة ومعرفة، وأمكن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلابد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلابد أن يكون المحكم عليه معلوماً، ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة : (إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ)، وتعليق ذلك أن المبتدأ محكم عليه، فلابد أن يكون معلوماً متيناً يقول : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) أي : ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) بأننا نبعث فمتى يكون، ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعيشو بيوم معين، وانظر إلى حجتهم في آية أخرى تken أبين ﴿ وَإِذَا أُتْلِيَ عَلَيْهِمْ مَا يَنْهَا يَنْهَا مَا كَانَ حُجَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَوْا بِيَابَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٩) (١) وهل الذين قالوا : إنهم يبعثون قالوا يبعثون في الدنيا حتى يقولوا : أتوا بآبائنا، وإنما قالوا ستبعثون يوم القيمة، وقولهم : (أتوا بآبائنا) أي : ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله، لأنه ما قيل لهم : إنكم ستبعثون في الدنيا ،

بل في يوم القيمة، وهنا يقولون: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٤٨)</sup>. الجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾<sup>(١)</sup> فالوعد لم يحن وقته بعد، انتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

### الفوائد: من فوائد الآية الكريمة:

- ١ - يستفاد منها: أن بني آدم يصل إلى حد التحدى لرب العالمين، ولمن بلغ رسالته لقولهم: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾.
- ٢ - ومن فوائدها: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بلغوا البلاغ المبين، وبينوا للناس أنهم سيعثرون ويجازون، وأنهم وعدوا بذلك لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾.
- ٣ - ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحدياً واستبعاداً لم يصدقوا الرسل، بل كذبوا، ولি�تهم نظروا في الأمر وفكروا قوله هنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٤٨)</sup>.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظَرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً تَأْخِذُهُمْ وَهُمْ يَخْضِمُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup> قال المؤلف: [﴿مَا يَنْظَرُونَ﴾ أي: يتظرون] ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾ وهي نفحة إسرافيل الأولى] (نظر) تستعمل متعددة بنفسها، بمعنى الانتظار مثل: ﴿مَا يَنْظَرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾<sup>(٥٠)</sup> ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدد بـ(في) صار المراد بها نظر الفكر تقول: (نظر في كذا) أي: فكر فيه

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وتأمله، وإذا تعدد بـ(إلى) فهي النظر بالعين تقول: (نظرت إليه)، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمٌ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَى رَهْبَانَاتِرَةٍ﴾ (٢٣) ﴿صَيْحَةً﴾ يعني يصاح بهم، وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مزعج يفزع الخالق، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (٢٤) فكل الخالق تفزع إلا ما شاء الله عز وجل، فيفزعون فرعاً شديداً يؤدي إلى صعق إلى الموت وحينئذ تكون نفخة واحدة فيها فزع، وفيها صعقة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدو بحيث لا تمهلهم ولا تنظرهم ﴿وَهُمْ يَخْصِمُونَ﴾ (٤٩) قال المؤلف - رحمه الله -: [بالتشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبابع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون أي: يخصم بعضهم بعضاً].

القراءات التي ذكر المؤلف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخْصِمُونَ)، والقراءة التي في المصحف ﴿يَخْصِمُونَ﴾، بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخْصِمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشى<sup>(٣)</sup> هو أن يجعل الخاء لا مفتوحة

(١) سورة القيمة، الآية: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) المحشى هو: الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ رحمه الله تعالى وحاشيته هي: (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين =

خالصة، ولا مكسورة خالصة وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه القراءة الرابعة، والثالثة التي في المصحف لم يشر إليها المفسر، ووجه المحسبي القراءة الموجودة في المصحف ﴿يَخْصِمُونَ﴾ بـأن الحركة أزيالت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم يقول المؤلف - رحمة الله - أي: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتتابع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لا هون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم، ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عز وجل سوى التخاصم كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابر، لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضها بعضاً، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق، لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروءة، ولا خلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه - والعياذ بالله - حالهم عند قيام الساعة.

### الفوائد:

- 1 - من فوائد الآية الكريمة: إثبات علم الله عز وجل وسمعيه؛ لأن قوله: ﴿مَا يَنْظَرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَنْ هَذَا

الْوَعْدُ .

٢ - ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المكذبين بهذه الصيحة التي تأخذهم.

٣ - ومن فوائد هذه الآية: قدرة الله عز وجل حيث يأخذ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَحْدَةً﴾ وهذا أكيد الصيحة بـ(واحدة) ليبين أنه لا يعيدها مرة ثانية، بل بأول مرة يؤخذون.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة تأتيهم بغتة لقوله: ﴿وَهُمْ يَخْصِمُونَ﴾ (٤٩) غافلون عنها.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا هم لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شحّا وطمعاً في الدنيا، وغفلة عن الآخرة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق»<sup>(١)</sup>. وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن.

\* \* \*

﴿فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين» ١٧٦

١٩٢٤).

فيه من الفزع. ﴿فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهليهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحداً، وهذا يدل على أن الأمر الذي أخذهم أمر عظيم، وهو كذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاهِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجَدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قال المؤلف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة] ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخ في الصور يذكره الله عز وجل دائمًا بالبناء المجهول (نفخ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل، ولهذا تجد قول الله تعالى: ﴿فَغَشَّيْهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيْهِمْ﴾<sup>(٣)</sup> أبلغ مما لو بين هذا الذي غشיהם، فالإبهام أحياناً يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ م بهم البيان عظم هذا الأمر، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وكل بالنفخ في الصور هو إسرافيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش<sup>(٤)</sup>، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها،

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٨.

(٣) انظر ابن جرير الطبرى في تفسيره ج ٢٠ ص ١٩ ، سورة النمل الآية (٨٧).

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في النفحات هل هن ثلاثة أو  
هما اثنان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاثة.

النفحة الأولى: فزع، والنفحة الثانية: صعق وموت، والنفحة  
الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿وَيُنْفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنِ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ تُنْفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ  
يَنْظَرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ذكر اثنين، وفي سورة النمل ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي  
الصُّورِ فَقَرَزَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْوَهٌ  
دَاهِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. ثم ذكر يوم القيمة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا  
الفزع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث،  
ومنهم من قال: إنها اثنان.

والظاهر أنها اثنان فقط، لكن الأولى منها فيها فزع  
وصعق، والثانية فيها بعث، وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلف  
حيث قال: [النفحة الثانية للبعث].

﴿فِي الصُّورِ﴾ الصور قرن عظيم واسع، ورد في الحديث:  
أن سعته كما بين السماء والأرض<sup>(٣)</sup>، ينفع فيه للبعث فتخرج  
الأرواح منه، وتؤوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا  
تختلط على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى في تفسيره (٣٣٠٢). وعزاه ابن حجر في فتح البارى  
إلى أبي يعلى في الكبير (٣٦٨١١).

أن عشرات الناس دفوا في مكان واحد فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده تقدير العزيز العليم عز وجل.

﴿فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾<sup>(٥١)</sup> ﴿فَإِذَا هُم﴾ الفاء  
عاطفة و(إذا) حرف دال على المفاجأة و﴿هُم﴾ مبتدأ وجملة  
﴿يَنْسِلُونَ ﴾<sup>(٥١)</sup> خبره و﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ متعلقة  
بـ ﴿يَنْسِلُونَ ﴾<sup>(٥١)</sup> ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: بمجرد ما يحصل النفح لا  
يحصل وقت بين النفح في الصور والخروج من القبور ﴿مِنَ  
الْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مسرعين،  
وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ الضمير في ﴿هم﴾ قال المؤلف:  
[أي المقربون] وعلمنا أن المراد المقربين؛ لقوله: ﴿مِنَ  
الْأَجْدَاثِ﴾؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِنَ  
الْأَجْدَاثِ﴾ هذا بناء على الأغلب الكبير؛ لأن من الناس من لا  
يكون في جدث بل يلقى في اليم، أو يلقى في الأرض على  
ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب  
والأكثر أنهم في القبور، وقوله: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فيها تقديم المعمول  
لإفاده الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى  
صديق، وإنما ينسلون إلى الله عز وجل، والنسلان معناه: السير  
بسرعة، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾<sup>(٥٢)</sup>  
أي: يخرجون بسرعة.

### الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن النفح في الصور إذا وقع لم يستطع أحد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكلام ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يتزحزرون من مكانهم.

٢ - ومن فوائدها: قوة هذه الصدمة التي تصيبهم من هذه الصيحة؛ لأن الإنسان إذا قويت الصدمة أعمق على لسانه فصار لا يقدر على التكلم، وكذلك رجله تضعف حتى لا يستطيع الوقوف كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في قصة وفاة رسول الله ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَيَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٢٠) قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاً، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها (٢١).

٣ - وكذلك يدل على عظم هذه الصيحة أنهم لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم مع شدة تشوقهم إليهم، لكن لا يستطيعون لأن الأمر أعظم من أن يتمكنوا من ذلك.

٤ - ومن فوائد الآية الثانية: إثبات النفح في الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها. فلو قال قائل: كيف يكون النفح في الصور؟ قلنا: هذا أمر لا نعلمه إلى الله عز وجل؛ لأنه غبي ولم يخبر بكيفيته.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله عز وجل حيث كان مجرد النفح يوجب أن يخرج الناس جميعاً من قبورهم

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

مسرعين .

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث وأنه حياة حقيقة؛ لقوله: ﴿يَنْسِلُونَ﴾ لأن الإسراع لا يكون إلا بحياة حقيقة .

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الناس يسرعون إلى مكان معين ينزل الله تعالى فيه للفصل بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ .

٨ - ومن فوائدها: الإشارة إلى الأجداث التي جعلها الله تعالى منازل للأموات، امتن الله بها على عباده، كما امتن عليهم بالقصور في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أَلَّمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَانًا أَحْياءً وَأَمْوَاتًا﴾<sup>(١)</sup> . فكما أن الله عز وجل منّ علينا بهذه القصور نستتر بها ونقضي بها حوائجنا ونكون مع أهلنا فكذلك منّ علينا سبحانه وتعالى بالقبور التي يستتر بها الإنسان عن الرؤية، ويختفي بها عن الوحوش إلى غير ذلك مما تتضمنه هذه النعمة .

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة، لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهذه عامة لكل من يخرج من الأجداث، وقد مرّ علينا أن الربوبية تنقسم إلى قسمين عامة وخاصة .

\* \* \*

﴿قَالُوا يَوْلَيْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قال المؤلف رحمه الله: [يا للتبنيه ﴿ويلينا﴾ هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾]

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٢٥، ٢٦.

لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا].  
قوله - رحمه الله - يا للتنبيه . بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبيه .

ولكن لو قيل : إن (ياء) للنداء بدليل أنها عملت فيما بعدها؛ لأن ﴿وَيْلَنَا﴾ منصوب بباء النداء ، كأنه قال : يا ويلنا أحضر ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿بَحَسِّرْنَاهُ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> . ونظير قوله تعالى : ﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ .

والويل هو الهلاك ، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه ، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مفرد من لفظها ، كإبل ليس لها مفرد من لفظها ، وتكون بعض الأفعال ليس لها مصدر مثل (يدروا) فإن أكثر النحوين يقولون : إنه ليس لها مصدر . وبعضهم يقول : لها مصدر وهو الوذر . ﴿مَنْ﴾ للاستفهام التعجب أي ما الذي أخرجنا ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ والمرقد مكان الرقاد ، والمراد بها القبور ، أي : من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها . واختلف العلماء في هذا : هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية ، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يشاهدونه في القيمة كأنه رقود ، لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هيناً؟

القول الأخير هو الأصح ، وهو الذي مشى عليه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره؛ لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٦ .

بين النفختين كما ذكره المؤلف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا] وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتالم بعض التالم، فها هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلاماً مزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد كما قال تعالى: ﴿وَلَعِذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَنَقَرَ﴾<sup>(١)</sup>

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ قال المؤلف: [﴿هذا﴾ أي: البعث ﴿ما﴾ أي: الذي ﴿وعد﴾ به ﴿الرحمن وصدق﴾ فيه ﴿المرسلون﴾ أقرروا حين لا ينفعهم الإقرار وقيل: يقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيقال: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وهذا الجملة قيل: إنها تقال جواباً لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم يقررون إذا شاهدوا أقرروا فقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. والآية محتملة: يحتمل أنهم يقولون ذلك، ويحتمل أنه يقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يُؤَيِّنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾<sup>(٣)</sup> هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

(١) سورة طه، الآية: ١٢٧.

**تَكَبِّرُونَ** ﴿٢١﴾ فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون. فآية الصفات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادراً منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس بعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. «هذا» المشار إليهبعث ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ما اسم موصول والصلة قوله: «وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

<sup>﴿٢٢﴾</sup> وقدر المؤلف العائد بقوله: [به] والمعلوم أن العائد المجرور لا يحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقاً لعامل الممحذوف لفظاً ومعنى، هذا هو المعروف عند النحوين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس الموصول، أو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: (وتحذف ما يعلم جائز) عامة لكل شيء ليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء، وقوله: «مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» ﴿الرَّحْمَن﴾ اسم من أسماء الله عز وجل المختصة به، التي لا تطلق على غيره فلا يسمى أحد ﴿الرَّحْمَن﴾ أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ
<sup>﴿٢٣﴾</sup> لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال «الرحمن»

(١) سورة الصافات، الآيات: ٢١، ٢٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

يعني ذو الرحمة الواسعة، والرحيم الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ولم يقل : (ما وعد الله)؛ لأن رحمة الله يوم القيمة تتجلى تجلياً أكثر منها في الدنيا ، فإن الله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض ، فإذا كان يوم القيمة صار له مائة رحمة ، التسعة والتسعون الباقية ، والرحمة الأولى ، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم ، ولهذا قال هنا : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة ، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم ، وما دل عليه من الصفة ، والأثر المترتب على ذلك ، ويجوز أن نقول والحكم ، فهنا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسمه ، والرحمة صفتة ، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى ، وهو أثر الرحمة قال : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يبعث فيه الناس ، فيجزي فيه المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءاته ، ومجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعين ألف ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب ، فالصدق من المتكلم ، يقال : صدق ، ويقال : صدق بمعنى أخبر بالصدق . قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ كُمَّ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا حُسُونَهُم بِإِذْنِهِ﴾<sup>(١)</sup> وصدق القائل ، أي : أقر بقوله واعترف به ، قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ﴾<sup>(٢)</sup> فهو صادق وصدق والله أعلم .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢.

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣٣.

## الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

- ١ - في هذه الآية دليل على شدة حسرة المكذبين الذين يكذبون بالبعث إذا بعثوا يقولون ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ودليل ذلك قولهم: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ وهذه الكلمة دعاء بالثبور والحرقة على من نطق بها.
- ٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن عذاب البرزخ بالنسبة إلى عذاب الآخرة هين، حتى إنه مثل النوم عند النائم.
- ٣ - ومن فوائدتها: أن البقاء في القبور ما هو إلا كنوم النائم، ثم يستيقظ ويغادر المكان لقوله: ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾.
- ٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: توبیخ هؤلاء المكذبين حين يقال لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.
- ٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى صادق الوعد لا يخلفه، وذلك لأن إخلال الموعد يكون لأحد أمرين: إما الكذب، وإما العجز، وكلاهما منتفيان عن الله عز وجل فلا كذب في وعلده، ولا عجز عن تنفيذه، وللهذا فهو عز وجل لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته.
- ٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يخبرون به عن الله سبحانه وتعالى وعن غيره، لقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

٧ - ومن فوائد الآية: أن المشركين يقررون إذا شاهدوا الحق، بأن ما وعد الله تعالى به فسيقع بناءً على أن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ من كلامهم، والإقرار بالحق بعد مشاهدته لا ينفع؛ لأن الإقرار بالحق إذا لم يكن غيباً لم يكن الإنسان مؤمناً بالغيب، بل يكون مؤمناً بالشهادة.

فإن قلت: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كَمَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup> فهنا أنكروا الشرك مع أنهم كانوا مشركين، بل أنهم يقررون بشركهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَمُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسُوَى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكُنُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾<sup>(٢)</sup> فكيف الجمع؟

الجمع بينهما أنه يقال: إن يوم القيمة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة، فهم يتقلبون أحياناً يقررون بكل ما عملوا، وأحياناً ينكرون، إذا رأوا نجاة المؤمن قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كَمَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> لعلهم ينجون كما نجا غيرهم، ولكن يختتم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم، وحينئذ يقررون ولا يكتمون الله حديثاً والله أعلم.

\* \* \*

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢.

﴿إِنْ كَانَ إِلَّا صَيْحَةً وَحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدِينَا  
مُحْضَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

### الفوائد:

- ١ - في هذه الآية دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه يصاح بأصحاب القبور صيحة واحدة، فيخرجون جميعاً لا يختلف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدِينَا مُحْضَرُونَ﴾.
- ٢ - ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء لا يعيده الأمر مرة ثانية، بل يكون الشيء بأول أمر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَحِدَةً كَمَحْجَبِ الْبَصَرِ﴾<sup>(٢)</sup> والذى يعيده الأمر والكلام هو العاجز، وأما القادر فلا يعيده.
- ٣ - ومن فوائدها أيضاً: الإشارة إلى أن الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده، تؤخذ من قوله: ﴿لَدِينَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: عندنا والعند يدل على القرب، وقد ثبت بالنصوص أن الله عز وجل ينزل للقضاء بين عباده فيقضي بينهم.

\* \* \*

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(اليوم) أي: يوم القيمة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، فـ(أـلـ) هنا للعهد الحضوري، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا تنقص

(١) لم أجد تفسير هذه الآية فيما بين يدي من أشرطة مسجلة.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكل الأمررين منتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْكَلِيلِ حَتَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضِيمًا﴾<sup>(١)</sup> أي: لا يخاف هضمًا من حقه من الحسنات، ولا ظلماً بزيادة السيئات، يقول: ﴿لَا تُظْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا﴾ ونفس نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُحِزِّزُوهُنَّ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: لا تكافئون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المؤلف رحمه الله: [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] إنما قدر - رحمه الله - (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس العمل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيمة هو الجزاء، ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيمة، والذي في يوم القيمة هو الجزاء فلهذا قدر المؤلف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا: أفلًا يكون معتقداً؛ لأنه كالاستدراك على كلام الله عز وجل؟

فالجواب على هذا: أن يقال ليس بمنتقد، وليس مقتضاها الاستدراك على كلام الله، لأن المؤلف أراد أن يفسر المعنى المراد، ولم يرد أن في الكلام نقصاً، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يعلم من السياق،

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف.

**إِنْ** هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيء من الركاكة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

**فالجواب:** نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسد، لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزي يوم القيمة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيجزاه يوم القيمة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف - رحمة الله -، لأن جعل العمل هو الذي يجزي به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قررناه، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد ممحض أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويطلق على القول، ويطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى شيء، والأطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى شيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا إذا أطلق العمل، أما إذا

قيل : عمل وقول ، أو قيل : اعتقاد وعمل ، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح ، وهذا يكون كثيراً في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملاً ، وإذا قرن بغيره صار خاصاً؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم ، والتقسيم لابد فيه من مقسم ، والمقسم يكون كل قسم منه ضد القسم الآخر ، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب ، والجوارح ، واللسان الذي هو القول ، لأن هذا كله يجازى عليه الإنسان يوم القيمة .

**إذا قال قائل :** هل يشمل العمل الكف ، أي : إذا ترك الإنسان المعصية ، هل يقال : إن هذا عمل يجزى عليه ؟

**الجواب :** نعم ، يقال إنه عمل يجزى عليه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : «من هم بالسيئة فلم ي عملها كتبها الله حسنة كاملة»<sup>(١)</sup> . لأن تركها لله فما وجه كون الترك عملاً ؟ لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل وحيئذ نقول كلمة : «يعلمون» تشمل أربعة أشياء هي : عمل القلب ، واللسان ، والجوارح ، والترك . ويجزى عليها الإنسان .

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة : انتفاء الظلم مطلقاً في يوم القيمة ؛ لأنه يوم العدل ، كما قال تعالى : «وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ»

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت (٢٠٧) (١٣١).

**لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ** ﴿١﴾

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان لا يظلم لا بقليل ولا بكثير لأن ﴿شيئاً﴾ نكرة في سياق النفي فتكون للعموم.

فإذا قال قائل: في غير هذا اليوم هل يظلم أحد؟

فالجواب: لا يظلم، لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع؛ لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء، فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو الجزاء ليس فيه ظلم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ ﴿٢﴾.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل لقوله: ﴿وَلَا تُحِبِّرُوكُلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾ فيستفاد منه:

٤ - كمال عدل الله عز وجل. وهذه فائدة متفرعة على الفائدة التي قبلها.

فإن قال قائل: أليس الإنسان العامل الحسنة يجزى بعشر حسناً؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا من الجزاء الذي وعد الله به، فلا يكون منافياً لظاهر الآية؛ لأن الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عشر أمثالها، ف تكون داخلة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤﴾.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التعبير بالسبب عن المسبب؛ لأن العمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسبب عن المسبب.

\* \* \*

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتَكَهُونَ﴾ لما ذكر الله عز وجل أن ذلك اليوم يجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الصنف الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سبباً لدخولهم الجنة، قال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتَكَهُونَ﴾ ﴿أصحاب﴾ جمع صحب، وصاحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو: الملازم لمصحوبه، ولا يسمى الشيء صاحباً للشيء إلا بعد الملازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئاً واحداً استثناه العلماء وهو صحبة رسول الله ﷺ، فإن صحبته ثبتت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل من اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمناً به ومات على ذلك فهو صحابي له، ﴿الْجَنَّة﴾ تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبساتن الكثير الأشجار، وسمى بذلك لأنها لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر، لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستمار، ومنه سمي الجنين؛ لاستماره في بطن أمه، وسمى الجن؛ لاستمارهم عن الأعين، وسميت الجنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجنة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسمى بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى

هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعاً هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للمتقين: فيها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرَضَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَتْ لِلْمُتَقِّيِّنَ ﴾<sup>(١)</sup>

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافزاً للعمل لها، قوله: ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعني يوم القيمة و(أي) هنا للعهد الذكري؛ لأن سبق ذكره و(أي) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدَّا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾<sup>(٢)</sup> فعصي فرعون رسوله فأخذته أخذة أليلاً<sup>(٣)</sup> ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنَ رَسُولَهُ فَأَخْذَنَاهُ أَخْذَهُ أَلِيلًا ﴾<sup>(٤)</sup> فإذا كان مدخول (أي) سبق ذكره فهي للعهد الذكري. ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ الجار وال مجرور وهو خبر ﴿ إِن ﴾ ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ يقول المؤلف: [بسكون العين وضمها] شغل وشغله، القراءتان سبعيتان، لأن المؤلف - رحمه الله - من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاهم قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرئ. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ ﴾ و﴿ شُغْلٍ ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة المزمل، الآيات: ١٥، ١٦.

وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟

الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، لأن

الكل ثبت عن النبي ﷺ ونحن إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأولى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك، لأنك إذا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتن، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله عز وجل، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحياناً وبهذا أحياناً، قال المؤلف رحمة الله: [في «شغل» بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به] إذا هم منشغلون بما فيه أهل النار، ولو أن المؤلف جعلها مطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر، لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهما، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾<sup>(١)</sup> أي: لا يبغون تحولاً أو نزواً عما هم فيه، بل ولا صعوداً حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيمًا، فالأولى أن نطلق ونقول: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ أي: أنهم مشتغلون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظرون أحدهم نعيمًا أرقى مما هو فيه بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبداً ﴿فِي شُغْلٍ﴾ قال المؤلف: [كافتضاض]

الأبكار] والكاف للتشبّيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتراض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مثل المؤلف بذلك لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَّلٍ﴾ قال [كافتشاض الأبكار لا شغل يتبعون فيه، لأن الجنة لا نصب فيها]، أي لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلاً يتبعون فيه، ولكنه شغل يستريحون فيه، لأنه شغل فيما يسر وفيما يحصل به التنعم، قال: ﴿فَنَكِهُونَ﴾ قال المؤلف: [ناعمون خبر ثان، لـ(إن) والأول ﴿فِي شُفْلٍ﴾] أي قوله: ﴿فَنَكِهُونَ﴾ خبر ثان لـ(إن) والأول ﴿فِي شُفْلٍ﴾ الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ<sup>(١)</sup> فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلاً إذا قلت هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى الكلمة واحدة: (مز) أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المؤلف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخاً كما في الآية، أم غير منسوخ.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون في ذلك

(١) سورة البروج، الآيات: ١٤-١٦.

اليوم إلى قسمين: قسم هم أصحاب الجنة، وقسم هم أصحاب النار، أصحاب الجنة هذا جزاؤهم «في شغل فاكهون».

٢ - ويستفاد من قوله: «فَكِهُونَ ﴿٦﴾» كمال النعيم؛ لأنَّه كل ما كمل النعيم كمل التفكه بهذه النعمة التي يتنعم بها الإنسان.

\* \* \*

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ فِي ظَلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُشَكُّونَ ﴿٧﴾﴾ (هم) أي: أصحاب الجنة «وَأَزْوَاجُهُنَّ» جمع زوج، وتطلق على الذكر والأُنثى، فيقال: هذا زوج فلانة، ويقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق - وإن كان لغة ضعيفة - في باب الفرائض فيقال: زوجة للأُنثى، ويقال: زوج للرجل، لئلا يشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحي حذف التاء من زوج، سواء كان للأُنثى أو الذكر «في ظَلَالٍ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيراً، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصدرهم، أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف، لأنَّ الطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل «عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال المؤلف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها] «الْأَرَائِكُ﴾ جمع الأريكة هي السرير في الحَجَلَة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجَّلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، أي أنها بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيما نعرفه بيننا، فالدار مثلاً

تشمل حبراً كثيرة متعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها ﴿مُتَكَبُون﴾ قال المؤلف : [خبر ثانٍ متعلق على] أي : على الأرائك متعلقة بمتكئون، وعلى كلام المؤلف يكون المبتدأ (هم) وفي (ظلال) خبر و(متكئون) خبر ثان ، فالجملة على كلامه واحدة لكنها متعددة الخبر : (هم في ظلال متكئون) و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ متعلقة بمتكئون ، ومناسبة تقديمها على عاملها : مراعاة فوائل الآيات ، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفوائل حتى وإن أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله : ﴿فَالْقَوْنَى السَّحْرَةُ سُجَّدًا قَالُوا إِنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾<sup>(١)</sup> فقدم هارون على موسى ، مع أن موسى أفضل ، مراعاة للفوائل ، لأن الفوائل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء والقرآن أبلغ الكلام ، هذا ما ذهب إليه المؤلف ، ولنا رأي ثان في الإعراب أن تكون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ خبر مقدم و﴿مُتَكَبُون﴾ مبتدأ مؤخر ، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان ، جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ والثانية : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكَبُون﴾ وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون متكئين على الأرائك مع الزوجات ، أو بدون زوجاتهم ، وعلى كلام المؤلف - رحمة الله - يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات .

الفهاد:

يتمونه، بل يعطون أكثر مما يتمنون، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعانى، فيذكر الشيء ويدرك ضده، لأنه لو ذكر ما يكون به الرجاء دون ما يكون فيه الخوف، لغلب جانب الرجاء على جانب الخوف ووقع الإنسان في الأمان من مكر الله، ولو ذكر فيه جانب الخوف دون جانب الرجاء، لوقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، فكان الله عز وجل إذا ذكر النعيم ذكر ضده، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وهكذا، وهذا أحد معانى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي﴾<sup>(١)</sup> يعني أنه تثنى فيه المعانى حتى يكون اليسر لله تعالى على الوجه المطلوب.

\* \* \*

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿فَاكِهَةٌ﴾ أي: ما يتفكرون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكك لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحياناً تفكها، وأحياناً للحاجة، وأحياناً للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكك؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة، ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحاً مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

**فإذا قال قائل:** إذا جعلت الفاكهة اسمًا لكل ما يأكلون؟

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيز عن قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَتِكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾<sup>(١)</sup>. والأصل في العطف أن يكون للمغایرة، والنخل والرمان يؤكل.

**فالجواب:** يعلم مما ذكرنا آنفاً وهو أن الشيء إذا أفرد صار له معنى عاماً، وإذا قرن بغيره صار له معنى خاصاً مقاولاً لما قرن معه، لأن التقسيم يتقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة، فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام في اللغة العربية كثير، مثل: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾<sup>(٢)</sup> والروح هو جبريل عليه السلام وهو من الملائكة، ثم قال المؤلف: [﴿وَهُمْ مَا يَدَعُونَ﴾<sup>(٣)</sup>] كل ما يتمونه فإنه حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمون؛ لأن أمنية الإنسان محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يعطى كل ما يتمني، بل يزيد على ما يتمني.

**فإذا قال قائل:** هل إذا اشتوى الإنسان الشيء في الجنة يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لابد من الطلب؟

**فالجواب:** أن هذا الأمر محتمل، يحتمل أن الإنسان إذا اشتوى شيئاً حصل له، ويحتمل أنه لابد أن يدعوه، والدعوى

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٨.

(٢) سورة القدير، الآية: ٤.

بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحداً من الناس قال: أريد أن أزور فلاناً، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإن فمادام لم يقم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيَ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُبُ﴾<sup>(١)</sup> فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه وإن لم تطلبه يحصل لك.

\* \* \*

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾<sup>(٥٨)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - : [﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقول. خبره] على أنه منصوب بنزع الخافض، لأنه قال: أي بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و(أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، إن سمع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوباً، ويقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

في أن وأنا يطر و مع أمن لبس كعجبت أن يدم  
فالمؤلف مشى على أن ﴿قَوْلًا﴾ منصوب بنزع الخافض أي سلام بالقول من رب رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام يعني الجنة، سلام كما قال تعالى: ﴿وَلَلَّهِ يَدْعُوا إِلَى دَارِ

الْسَّلَامُ<sup>(١)</sup> ويجوز أيضاً أن يكون الخبر قوله: «مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» أي سلام بالقول واقع من الله عز وجل، وهذه الوجوه لا ينافي بعضها بعضاً من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يسلم عليهم بالقول، ويقول لأهل الجنة: سلام عليكم، وقوله: «مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» الرب في اللغة العربية يطلق على عدة معانٍ فيطلق على رب العالمين عز وجل، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المدبر. ويطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «معها سقاوها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها»<sup>(٢)</sup> ، أي: صاحبها.

وقوله: «مِنْ رَبِّ» المراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المدبر و«رَحِيمٍ<sup>(٣)</sup>» من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزال متصفًا بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله عز وجل يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمه الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال رحيمًا، وأهل السنة والجماعة وهم السلف يفسرون «الرحمة» بمعنى يليق بالله عز وجل. وأهل التحرير يفسرون

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم (٢٤٢٨) ومسلم، كتاب القطة، باب معرفة العفاص (١٧٢٢).

«الرحمة» إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان فيقولون: معنى رحيم، أي: محسن، أو مريد للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصرف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. ففسروها بالإرادة، لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان منفصل عن الله عز وجل وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأننا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئاً، لكن لو سلمنا جدلاً أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة: دليل على ما يتمتع به أهل الجنة من السلام من كل الآفات، ومن الأمراض، ومن الموت، ومن غيره، لأن الله تعالى يقول لهم ﴿سَلَّمُ عَلَيْكُم﴾ وهذا اللفظ الصادر من الله عز وجل ليس دعاء ولكنه خبر من الله، وإنما يكون مثل هذا دعاء إذا وقع من المخلوق، أما إذا كان من الخالق فهو خبر، أي: أن الله تعالى يخبرهم بأنه سيسلمهم من كل آفة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن الله يقول ويتكلم وهذا حق، وقد اختلف أهل القبلة في كلام الله عز وجل: فمنهم من قال: يتكلم بحرف وصوت على وجه يليق به،

ولا يشبه صوته أصوات المخلوقين .

ومنهم من قال: إنه لا يتكلم، ولكن يخلق كلاماً ينسبة إليه  
تشريفاً وتكريماً .

ومنهم من قال: إنه يتكلم، لكن كلامه ما يقدر في نفسه،  
وأما ما يسمع فهو مخلوق .

فالأول مذهب أهل السنة والجماعة، والثاني مذهب  
المعتزلة ومن واقفهم، والثالث مذهب الأشاعرة، وحقيقة الأمر  
أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة، لأن الكل منهم متفقون  
على أن ما بين أيدينا من المصحف مخلوق، لكن الجهمية  
والمعتزلة قالوا: هو كلام الله، وأولئك قالوا: عبارة عن كلام الله،  
فهم أسوأ منهم في هذه الناحية، لأن المعتزلة والجهمية يقولون:  
إن القرآن كلام الله، كما قال الله عنه كلام الله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ  
الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَقَّ يَسْمَعَ لِكَلْمَانَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> لكنهم يقولون  
﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: الكلام الذي هو عبارة عن كلام الله .  
والجهمية والمعتزلة أقرب إلى الحقيقة من الأشاعرة،  
ولكن كل منهم في ضلال مبين .

والصواب أنه كلام الله تكلم به بنفسه، وسمعه منه جبريل  
عليه الصلاة والسلام - وألقاه إلى محمد ﷺ .

٣ - ومن فوائدها: إثبات الربوبية، وهي هنا فيما يظهر  
- والله أعلم - من الربوبية الخاصة؛ لأن الذي يخاطب به من القوم  
المخلصين، والربوبية كما تقدم، تنقسم إلى قسمين: خاصة،

(١) سورة التوبه، الآية: ٦٠ .

وعامة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، فإن جميع الخلق مربوبون لله عز وجل، هو خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، ومنها قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أما الربوبية الخاصة فهي مختصة بعباد الله المخلصين من عباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم، وهي أخص من الأولى؛ لأنها تقتضي عنابة خاصة بالمربيب، وتوفيقاً له، وإصلاحاً لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٢) فإن موسى وهارون - عليهم الصلاة والسلام - من عباد الله المخلصين، فكانت الربوبية في حقهما خاصة، ومنه دعاء المؤمنين لله عز وجل بهذا الاسم مثل ﴿رَبَّنَا إِنَّا ءامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ (٣) فالمراد به الربوبية الخاصة؛ لأن التوسل بالأخص، أخص بالدعاء من التوسل بالأعم، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَاتُلُوا ءامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٥). فالأولى عامة، والثانية خاصة.

والرب من أسماء الله دل على ذلك قوله ﷺ: «أما الرکوع فعظموا فيه الرب» (٦)، وقوله ﷺ في السواك: «مطهرة للفم مرضاه للرب» (٧).

#### ٤ - في هذه الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله عز وجل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٢١، ١٢٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الرکوع والسجود ٤٧٩ . (٢٠٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣).

لقوله : ﴿رَّحِيمٌ﴾ . وكون (الرحيم) من أسماء الله لا يخفى .  
 ٥ - وفي هذه الآية : إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمته الله لقوله : ﴿مَنْ رَبِّ رَّحِيمٌ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» أو قال : «لن يدخل أحد الجنة بعمله» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»<sup>(١)</sup> . اللهم تغمدنا برحمتك ، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن لا أحد يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله برحمته ، أي يسبغ عليه الرحمة ، فحينئذ يدخل .

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿وَأَمْتَزُوا الْيَوْمَ أَيْمَانَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، قال المؤلف - رحمه الله - [ويقول : ﴿امتازوا﴾] يعني أن القائل الله عز وجل ، وفي الجزم بذلك نظر ، فقد يكون الله عز وجل هو الذي يقول لل مجرمين : امتازوا ، وقد يكون القائل ملك من الملائكة ، ولهذا لو قال المؤلف : (ويقال) لكان أولى ؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف ، أي : إلى النص من الشارع ، ﴿وَأَمْتَزُوا الْيَوْمَ أَيْمَانَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾ المراد بالاليوم يوم القيمة ، فأل هنا فيه للعهد الذكي ﴿أَيْمَانَ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال المؤلف : [أي : انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم] ، يعني يقال يوم القيمة : امتازوا أيها المجرمون ، وتميزوا عن المؤمنين ، وانفردوا عنهم ؛ لأن طريق المجرمين غير طريق الأبرار ، فالأبرار طريقهم إلى الجنة ،

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) .  
 ومسلم ، كتاب صفات المناقفين ٧٥ (٢٨١٦) .

وهو لاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدَا﴾ <sup>(٦٩)</sup> وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ <sup>(٧٠)</sup> فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يقال لهم: ﴿وَأَمْتَزُوا﴾ على سبيل التوبيخ والإهانة، لأنك إذا رأيت مجتمعاً فقلت مثلاً: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ <sup>(٧١)</sup> المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المذنبون امتازوا عن المؤمنين المطيعين.

#### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المجرمين يهانون يوم القيمة، بحيث يميزون من المؤمنين بلفظ الطرد **﴿وَأَمْتَزُوا أُلْيَوْمَ﴾** أي: انفردوا وأبعدوا.

٢ - ومن فوائدها: أن الله تعالى يميز بين المجرمين والأبرار يوم القيمة، كما ميز بينهم في الدنيا، فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسب لهذا العمل، فهنا لما أمروا بالانصراف وطردوا ناسب أن يذكر سبب ذلك، حيث قال: **﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾** <sup>(٧٢)</sup> كأنه قال: (امتزوا للإجرامكم)، ولا شك أن ذكر سبب الحكم يزيل الشبهة واللبس والاعتراض، وينبني على هذه الفائدة:

(١) سورة مریم، الآیات: ٨٥، ٨٦.

٤ - أن تعليق الحكم بوصف يدل على أن هذا الوصف هو علة ذلك الحكم، فإذا قلت مثلاً: أكرم المجتهد من الطلبة، فهنا علق الإكرام بالاجتهاد، وهذا يفيد أن علة الإكرام هو الاجتهاد، فهذه القاعدة مفيدة لطالب العلم، وهي أن تعليق الحكم بوصف يدل على عليته، أي: أنه علة ذلك الحكم.

٥ - حذفت ياء النداء من قوله: ﴿أَيْمَانُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلماذا؟ يمكن أن يقول علماء البلاغة: إنها حذفت من باب الإهانة لهم حتى لا يطيل الكلام؛ لأن طول الكلام مع المخاطب من باب التبسيط إليه والانشراح لمخاطبته، فإذا اختصر فهو نوع من الإهانة، وليس هذا على إطلاقه، بل هذا على حسب السياق، قد يكون من الإكرام أن تختصر الكلمة، وقد يكون من الإكرام أن تبسط الكلمة، لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن اختصار الكلمة وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.

\* \* \*

﴿أَلَّمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦﴾ قال المؤلف - رحمه الله - : [أمركم ﴿يَبْنَىءَادَم﴾ على لسان رضي ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَنَ﴾ لا تطيعوه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾] بين العداوة ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ وَحْدَوْنِي وأطيعوني ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ طريق ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦﴾]

﴿أَلَّمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَادَم﴾ الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام

للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشَرِّحْ لَكَ صَدَرَكَ﴾<sup>(١)</sup> فهذا للتقرير ﴿أَلَّا أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْيَنِيَّ إَادَمَ﴾ للتقرير ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> للتقرير ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ﴾<sup>(٣)</sup> للتقرير ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ يَاحْكُمُ الْحَكِيمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أدلة الاستفهام فإن الاستفهام يكون فيه غالباً للتقرير، هنا يقرر الله عز وجل أنه عهد إليهم، ولهذا يصح أن تحول - في غير القرآن - إلى فعل ماض، فيقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبينا لهم، وإقامة للحججة عليهم، إن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسره المؤلف أنه الأمر، فقال: [أمركم] ولكن في الحقيقة أبلغ من الأمر، لأن العهد إليه كأنه متضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله: ﴿يَبْيَنِيَّ إَادَمَ﴾ تشمل الذكر والأنثى، وإن كان الابن يقال في الأصل للذكر، والبنون تقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء - رحمهم الله - قالوا: إذا وقف علىبني تميم، شمل ذكورهم

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٤) سورة التين، الآية: ٨.

ولناثهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكر فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإإناث، قوله: ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ فسر المؤلف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: ﴿أَتَخْذِلُونَا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَكَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ أَبْنَى مَرِيمَ وَمَا أُمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾<sup>(١)</sup> قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه -: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم - يعني لسنا نصلي، أو نركع، أو نسجد لهم -، قال: «أوليس يحلون ما حرم الله فتحلوه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال نعم، قال: «فتلك عبادتهم»<sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع، قوله: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرن الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، قوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ﴾ فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى

(١) سورة التوبه، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذى، تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبه (٣٠٩٥).

رأسمهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان ﴿عَدُوٌ﴾ العدو ضد الولي، والولي من يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، قوله: ﴿مِيْنٌ﴾ قال المؤلف: [بين العداوة] وفسر ﴿مِيْنٌ﴾ بين؛ لأنها من (أبان) و(أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي متعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن أن نقول: إنها من المتعدى، أو اللازم، إلا بقرينة من السياق، فهنا نقول: ﴿مِيْنٌ﴾ إذا فسرناها بما فسرها المؤلف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدى، ونقول ﴿مِيْنٌ﴾ مظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يغير الناس كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّنَاهُمَا بِغَرْوِ﴾<sup>(١)</sup> إذن فجعل ﴿مِيْنٌ﴾ هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿لَا تَبْدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ (أن) هنا مصدرية، ويصبح أن تكون مفسرة، لأن أueblo متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَكَ﴾<sup>(٣)</sup> قوله: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللو لي بالطاعة، والممؤلف قال: [وحدوني وأطیعونی] وهذا المعنى

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

صحيح، فالعبادة توحيد الله عز وجل بالطاعة، والتذلل له بامتثال أمره، واجتناب نهيه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الصراط فسره المؤلف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مطلق الطريق صراطاً، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصّرط أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاء الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقةً ذا سرعة إلا إذا كان واسعاً وكان سهلاً، وأما قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضاً انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يميناً وشمالاً، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفات ومنخفضات فليس بمستقيم، لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خال من الانحراف يميناً وشمالاً، وخلاف من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه وقوله: ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله

عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل إلى مكة، وتقول: هذا طريق فلان - إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم -، أو هو الذي سلكه ومشى عليه.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعذار من نفسه، أي: يحب أن يقيم العذر لنفسه؛ لتقوم الحجة على خلقه لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ فإن من عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن نعبد وحده، قد أقام علينا الحجة، وأقام العذر لنفسه وهذا كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾<sup>(١)</sup>.

٢ - من فوائد إثبات رحمة الله عز وجل بالخلق، حيث لم يجعل إخلاصهم له موكولاً إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأن الله لو جعل الإخلاص موكولاً إلى العقول لاختلقت العقول في ذلك اختلافاً كثيراً، لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل الله عز وجل ذلك مما تكفل به هو نفسه لعباده، ففيه إثبات رحمة الله عز وجل بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي التصفية قبل التحلية؛ أو يقال التخلية قبل التحلية لأنه قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هذا تخلية ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ تحلية، يعني نفي وإثبات،

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

وهذا هو التوحيد، فالتوحيد مبني على نفي وإثبات؛ لأن النفي المجرد تعطيل محسن وعدم، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، فلا يتم التوحيد إلا بنفي وإثبات، ولهذا لو قلت: (لا قائم في البيت) فهذا نفي مجرد معناه عدم، وإذا قلت: (زيد قائم في البيت) فهذا إثبات مجرد لا يمنع المشاركة، أي: قد يكون رجل آخر في البيت قائم، فإذا قلت: (لا قائم في البيت إلا زيد) فحيثئذ تتحقق الانفراد وتحقق التوحيد، وصار لا يوجد قائم في هذا البيت إلا زيد، إذاً التوحيد لابد فيه من هذين الأمرتين: النفي، والإثبات، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولاً بالنفي ليرد الإثبات على مكان خال من الشوائب، خالص صالح لاستقرار الإثبات فيه، ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْهَ وَفَوْمَهُ إِنَّنِي بِرَءَ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> إلا الذي فطرني فتبرأ أولاً من كل معبد، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره.

- ٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن طاعة الشيطان في معصية الله - ولا تكون طاعة الشيطان إلا في معصية الله - نوع من العبادة لقوله: ﴿أَنَّ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لأن الطاعة فيها نوع من التذلل، والعبادة هي التذلل، فمن أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.
- ٥ - ومن فوائدها: أن العبادة لا تختص بالركوع والسجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، بل هي عامة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمال التذلل.

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٢٦، ٢٧.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الحذر من طاعة الشيطان، حيث سمي الله تعالى طاعته عبادة، وكل إنسان يحذر من أن يعبد مع الله غيره، ففيه التحذير من طاعة الشيطان في معصية الله عز وجل.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وَ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ والعبادة تطلق على معنيين:  
أحدهما: التعبد.  
الثاني: المتبعد به.

التبعد يعني التذلل لله عز وجل، وهي بهذا المعنى فعل العبد يعني صلاته وزكاته، وقيامه، وحجه، وما أشبه ذلك، وتطلق العبادة على المتبعد به وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، القلبية والجوارحية.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط المستقيم هو التوحيد لقوله: ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ هَذَا ﴾ أي ترك عبادة الشيطان والالتزام بعبادة الله ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي طريق مستقيم لا عوج فيه، وإنما كان كذلك؛ لأنه موصل إلى رضا الله تعالى وجنته، فهو صراط مستقيم.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط قد يكون مستقيماً وقد يكون معوجاً، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّقِهُ وَلَا تَنْبِغِي أَسْبُلَ فَنَفِرَّ قَبْكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾<sup>(١)</sup> فكل واحد من

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

البشر له طريق، فإن كان على شرع الله فهو مستقيم، وإن كان على خلافه فهو معوج.

\* \* \*

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ حِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات هي: القسم المقدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يقسم الله عز وجل وهو الصادق بالقول بلا قسم؟

نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول: الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه، لأنه لو لا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أريد إثباته وتحقيقه فإنه يقسم عليه.

الوجه الثالث: أن المقسم به إذا كان مصرحاً به، فإن الإقسام به يدل على عظمته فإن الله لا يقسم بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء، مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضَحَّكَهَا﴾ (١٨) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا لَتَّهَا﴾ (١٩) . وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمّة المقسم. ﴿أَضَلَّ مِنْكُمْ﴾ بمعنى أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادركم إلى ضلال ليس فيه هدى ﴿حِيلًا﴾، قال المؤلف - رحمه الله - :

(١) سورة الشمس، الآياتان: ١، ٢.

[جِبْلًا]: خلقاً جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبْلًا بضم الباء] والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلاً بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقرئ فهـي شـاذـة، إـذـاً فـيـها قـرـاءـاتـان سـبـعـيـتـانـ: جـبـلـاً، وجـبـلـاً، وفيـها قـرـاءـةـ ثـالـثـةـ ما ذـكـرـهـاـ المؤـلـفـ (جـبـلـاً)ـ وـفـيـهاـ قـرـاءـةـ رـابـعـةـ (جـبـلـاً)ـ بـدـوـنـ تـشـدـيـدـ الـلامـ،ـ وـلـكـنـ المـؤـلـفـ -ـ رـحـمـهـ اللهـ -ـ لـيـسـ تـفـسـيرـهـ جـمـعـاـ لـلـقـرـاءـاتـ،ـ إـنـماـ يـذـكـرـ ماـ رـأـىـ أـنـ المـصـلـحةـ تـقـضـيـ ذـكـرـهـ،ـ وـلـكـنـ لاـ شـكـ أـنـهـ لـوـ ذـكـرـهـ لـكـانـ أـحـسـنـ؛ـ لـأـنـهـ أـحـيـاـنـاـ يـذـكـرـ قـرـاءـاتـ مـتـعـدـدـةـ فـيـ صـفـةـ الـحـرـفـ كـمـاـ ذـكـرـ الـقـرـاءـاتـ الـمـتـعـدـدـةـ التـيـ تـبـلـغـ إـلـىـ سـتـ قـرـاءـاتـ فـيـ مـثـلـ «ـأـنـذـرـتـهـمـ»ـ مـنـ التـسـهـيلـ،ـ وـالـتـحـقـيقـ،ـ وـالـحـذـفـ وـمـاـ أـشـبـهـ ذـلـكـ،ـ وـلـكـنـ إـلـإـنـسـانـ بـشـرـ،ـ أـحـيـاـنـاـ يـغـفـلـ وـيـهـمـلـ مـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـذـكـرـ،ـ أـوـ يـذـكـرـ مـاـ لـاـ يـحـتـاجـ أـنـ يـذـكـرـ،ـ (ـجـبـلـاًـ)ـ أـيـ:ـ خـلـقاـ كـثـيرـاـ،ـ وـلـاـ يـعـنـيـ ذـلـكـ أـنـ الـأـكـثـرـ لـمـ يـضـلـ مـنـ قـبـلـ الشـيـطـانـ،ـ بـلـ هـوـ أـضـلـ أـكـثـرـ الـخـلـقـ.ـ لـأـنـهـ ثـبـتـ فـيـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ أـنـ اللهـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ يـقـولـ:ـ (ـيـاـ آـدـمـ.ـ فـيـقـولـ:ـ لـبـيـكـ وـسـعـدـيـكـ).ـ فـيـقـولـ:ـ أـخـرـجـ مـنـ ذـرـيـتـكـ بـعـثـاـ إـلـىـ النـارـ،ـ فـيـقـولـ:ـ يـاـ رـبـيـ وـمـاـ بـعـثـ النـارـ؟ـ قـالـ:ـ مـنـ كـلـ أـلـفـ تـسـعـمـائـةـ وـتـسـعـعـينـ»ـ،ـ هـؤـلـاءـ كـلـهـمـ فـيـ النـارـ مـنـ بـنـيـ آـدـمـ وـوـاحـدـ فـيـ الـجـنـةـ،ـ فـشـقـ ذـلـكـ عـلـىـ الصـحـابـةـ وـعـظـمـ ذـلـكـ وـقـالـواـ:ـ أـيـنـاـ ذـلـكـ الـوـاحـدـ يـاـ رـسـوـلـ اللهـ؟ـ قـالـ:ـ (ـأـبـشـرـوـاـ فـإـنـكـمـ فـيـ أـمـتـيـنـ مـاـ كـانـتـاـ فـيـ شـيـءـ إـلـاـ كـثـرـتـاهـ:ـ يـأـجـوـجـ وـمـأـجـوـجـ»ـ<sup>(١)</sup>)ـ وـهـوـ كـذـلـكـ فـإـنـ مـنـ شـاهـدـ الـخـلـقـ الـآنـ وـنـحـنـ فـيـ جـزـءـ يـسـيرـ مـنـ الـعـصـورـ وـجـدـ أـنـ

(١) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ،ـ كـتـابـ التـفـسـيرـ،ـ بـابـ قـوـلـهـ:ـ (ـوـتـرـىـ النـاسـ سـكـارـىـ)ـ (ـ٤٧٤١ـ).

تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر، وإن كانوا منتبسين إلى الإسلام: إذاً المراد بالكثير هنا الأكثر، قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والمراد بالاستفهام التوبیخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مقدرة مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطى ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهمزة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهمزة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مقدر يفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تقدر شيئاً، ولا تعلم أي شيء يناسب، وحيثئذ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحيثئذ لا نتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن مadam المعنى مستقيماً على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تعسروا) ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم،

فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل) والمراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعاً؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يحسنوا التصرف، فصاروا عقلاً غير عقلاً، عقلاً باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاً باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أعطوا ذكاء ولم يعطوا عقلاً، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام - رحمه الله - في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أتوا ذكاء، وما أتوا زكاءً، وأتوا فهوماً، ولم يؤتوا علوماً، وأتوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)، أتوا ذكاء وما أتوا زكاءً - نسأل الله العافية - فكان ذكاهم حجة عليهم، وأتوا فهوماً عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلابد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهو لاء أتوا عقولاً تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمؤلف - رحمه الله - يقول [﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾] عداوته وإضلalه، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون] يعني لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنکال لكتتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولا متن بالله وحده،

ولكن الهوى غطى الهدى كما قال عز وجل : ﴿وَأَمَّا ثَمُودٌ فَهُدِيَتْهُمْ فَأَسْتَحْبُوا أَعْمَانِهِنَّ عَلَى الْهُدَى فَلَمْ يَخْذُلْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْمُهُونِ﴾<sup>(١)</sup> .

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة : بيان عداوة الشيطان لبني آدم ، حيث أضل منهم جيلاً كثيراً ، أي : خلقاً كثيراً عظيماً .
- ٢ - ومنها : التحذير من الشيطان وإغواهه ؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية بني آدم ، ولكنه يسعى لإضلالهم .
- ٣ - ومنها : أن من اتبع الشيطان في إغواهه وإضلالة فهو غير عاقل لقوله : ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .
- ٤ - ومنها : أن من ساء تصرفه صرخ أن ينفي عنه العقل ، وإن كان عاقلاً عقلاً ظاهراً ، لقوله هنا : ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> . وقد مر علينا أن العقل عقلان : عقل هو مناط التكليف وهو عقل الإدراك ، وعقل هو مناط المدح والذم ، وهو عقل التصرف الذي يكون به الرشد .
- ٥ - ومنها : توبیخ ولوم من تبع الشيطان في إضلالة لكونه غير عاقل ، لقوله : ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> قال المؤلف في تقدير الكلام : [ويقال لهم في الآخرة ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٦)</sup>] ﴿هَذِهِ﴾ الإشارة هنا إلى قريب ؛ لأن إشارة بعيد (تلك) وهنا يقول : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قربها منهم ، لأنه

(١) سورة فصلت ، الآية : ١٧.

يؤتى بها يوم القيمة تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تقاد ويؤتى بها ويشاهدها الناس ويتحققهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويقال لهؤلاء المجرمين : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وفي آية أخرى قال الله فيها : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ أَفَسِرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ أَصْلُوهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا يَعْزُزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> <sup>(٦)</sup> كانوا قبل أن يدعوا إليها يقال لهم : ﴿ أَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾<sup>(٧)</sup> فإذا دعوا إليها، والدع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفاً منها، ولكنهم يدفعون دفعاً بقوة - والعياذ بالله - إليها ويقال : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾<sup>(٨)</sup> . والتکذیب عنف في رد الحق، والدع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾<sup>(٩)</sup> . أي : توعدون بها ولكنهم يكذبون كما قال الله تعالى : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾<sup>(١٠)</sup> فهم توعدوا بها لكنهم كذبوا - والعياذ بالله - ويوم القيمة يوبخون على هذا التکذیب ويقال : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾<sup>(١١)</sup> و﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾<sup>(١٢)</sup> .

وهنا إشكال وهو : أنه قيل : إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر :

وإن أوعدته أو وعدته  
لمخالف إيعادي ومنجز موعدى

وهنا قال : ﴿تُوعَدُونَ﴾ <sup>(١)</sup> ؟

فنقول : الأمر - كما قال المفسر - على حذف معلوم وهو قوله : (بها) أي توعدون بها ، لا توعدونها . لو قال : (توعدونها) لصار للإشكال محل ؛ لأن الجنة قال الله فيها : ﴿جَنَّتِ عَدِينَ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادُهُ بِالْغَيْبِ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ﴾ <sup>(٢)</sup> لكن هؤلاء وعدوا بها ، يعني أنه قيل لهم : إنكم سوف تلاقونها ، وهذا هو الواقع .

#### الفوائد :

١ - من فوائد الآية الكريمة : إثبات نار جهنم ، وأنها تشاهد عيناً يوم القيمة ، لقوله : ﴿هَذِهِ﴾ والإشارة تكون إلى مشار إليه محسوس .

٢ - منها : بيان صفة النار وأنها - والعياذ بالله - كلها ظلمة ، وكلها سواد لقوله ﴿جَهَنَّم﴾ لأنها من الجهمة ، أي : الظلمة والسواد .

٣ - منها أيضاً : تقرير هؤلاء ، وإظهار خطأهم في تكذيبهم لقوله : ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> .

٤ - ومن فوائد الآية : صدق وعد الله سبحانه وتعالى حيث صدق وعده بما وعد به هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وعدوا به عياناً .

\* \* \*

(١) سورة مريم ، الآية : ٦١ .

(٢) سورة التوبية ، الآية : ٧٢ .

﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٤).

هذا الأمر كوني - إن كان من الله - وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضاً أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، وإذا من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يصلوها، لكن يقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال ﴿الْيَوْمَ﴾ ألم هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد الحضوري، يعني: هذا اليوم للحاضر اصلوا النار فيه. ويتردد علينا كثيراً العهد الحضوري، والذكري، والذهني، فما هو الفرق بينها؟

العهد الحضوري ما كان معهوداً لحضوره، والذكري ما كان معهوداً لذكره، والذهني ما كان معهوداً في الأذهان. مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلاً في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرنك، قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾<sup>(١)</sup>.

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخْذَنَاهُ أَخْذًا وَيَلَّا﴾<sup>(٢)</sup> يعني الرسول المذكور وليس رسول آخر.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة المزمل، الآيات: ١٥، ١٦.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ﴾ (٦٤) (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ﴾ أي تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبكل ما أخبر الله به، ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يقال لهم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ﴾ لإقامة الحجة عليهم، وبيان أنهم لم يظلموا، ولهذا ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْفَيَضِ كُلُّمَا أَلْتَهُ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوهُمْ خَرَنَهَا أَلْمَ يَأْتِيَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبُنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (١).

## الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء المكذبين يأمرون أمر إهانة وإذلال ليصلوا النار لقوله: ﴿أَصْلُوهَا الْيَوْمَ﴾.
- ٢ - ومن فوائداتها: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ﴾ وإثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، ولا ينكر إثبات الأسباب إلا جاهل بحقيقة الواقع، فإنه لا أحد ينكر أنك إذا رميت الزجاجة بحجر انكسرت به، وإذا أقيمت الخرق في النار احترق بها، ولا ينكر هذا إلا شخص مكابر في الواقع، ومع هذا فالأسباب لا تفعل بذاتها، ولا تؤثر بذاتها بل بخلق الله سبحانه وتعالى التأثير فيها، وحيئذ لا يكون في إثبات الأسباب شيء من الشرك، خلافاً لمن زعم أن إثبات تأثير الأسباب نوع من الشرك؛ لأننا نقول: إن هذه الأسباب إنما تؤثر

(١) سورة الملك، الآيات: ٨، ٩.

بخلق الله عز وجل التأثير فيها، ولهذا إذا شاء الله أن لا تؤثر لم تؤثر، فإن النار طبعتها الإحراق ومع ذلك لم تحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت بردًا وسلامًا عليه، لأن الله قال: ﴿قُلْنَا يَنَارٌ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup>.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال عدل الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: فلم تظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم.

\* \* \*

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهُدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيمة قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾] أي: الكفار لقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهُدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ وغيرها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> فكل عضو ينطق بما صدر منه] ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الختم على الشيء بمعنى إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي نسدلها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيمة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرأوا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، أي: أقررنا بأننا غير مشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذ يختتم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختتم على أفواههم، وتنطق الجوارح بما عملت،

والجلود بما مسـتـ ، فإن الجلد يمسـ المحرمات كـمسـ المرأة لـشهـوة مـثـلاً فـتشـهد عليهمـ الجوـارـحـ ؛ ولـهـذا قالـ عـزـ وجـلـ : **﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾** نفسـ الـيدـ تـتكلـمـ تـقولـ : عملـتـ كـذاـ ، عملـتـ كـذاـ ، **﴿وَتَشَهَّدُ أَرْجُلُهُمْ﴾** نفسـ الأـرـجلـ تـقولـ : أـشـهـدـ أنهـ عملـ كـذاـ وكـذاـ ، وـتأـملـ الفـرقـ بـيـنـ الـيـدـ وـالـرـجـلـ ، فيـ الـيـدـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ : **﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾** والأـرـجلـ قـالـ : **﴿وَتَشَهَّدُ﴾** قـالـ بعضـ الـعـلـمـاءـ : لأنـ الـيـدـ تـخـبـرـ عـماـ فعلـتـ ، والـرـجـلـ تـخـبـرـ عـماـ فعلـ غـيرـهاـ ؛ لأنـ الأـصـلـ فيـ الـمـباـشـرـةـ الـيـدـ ، ولـهـذا دائمـاً يـعلـقـ الـكـسـبـ بـالـيـدـ فيـقـالـ : **﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾**<sup>(١)</sup> أو **﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾**<sup>(٢)</sup> فـلهـذا كانتـ الـأـيـديـ مـباـشـرـةـ ، والأـرـجلـ شـاهـدـةـ ؛ لأنـ الشـاهـدـ هوـ الـذـي يـخـبـرـ عـماـ فعلـ غـيرـهـ ، وـالـفـاعـلـ هوـ الـذـي يـخـبـرـ عـماـ فعلـهـ هوـ بـنـفـسـهـ - هـكـذاـ قـالـ بعضـ أـهـلـ الـعـلـمـ - وـهوـ فـرقـ لاـ بـأـسـ بـهـ ، معـ أنـ الإـنـسـانـ قدـ يـشـهـدـ عـلـىـ نـفـسـهـ كـقولـهـ تـعـالـىـ : **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقُسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾**<sup>(٣)</sup> فـإـقـرارـ الإـنـسـانـ عـلـىـ نـفـسـهـ شـاهـدـةـ عـلـيـهـ ، لـكـنـ الفـرقـ الـذـي أـشـارـ إـلـيـهـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ وـذـكـرـناـهـ آنـفـاً فـرقـ لـاـ بـأـسـ بـهـ ، قـولـ المؤـلـفـ : [وـتـشـهـدـ أـرـجلـهـمـ وـغـيرـهـ] قـولـهـ : (وـغـيرـهـ) لـاـ يـعـنيـ ذـلـكـ أـنـهـ يـسـتـدرـكـ عـلـىـ الـقـرـآنـ ، لـكـنـهـ يـنبـهـ عـلـىـ مـوـضـعـ آخرـ مـنـ الـقـرـآنـ ، فـفـيـ آيـةـ أـخـرىـ بـيـنـ اللهـ تـعـالـىـ أـنـهـ تـشـهـدـ عـلـيـهـمـ الـجـلـودـ **﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُ وَهَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمِعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾**

(١) سـورـةـ الشـورـىـ ، الآـيـةـ : ٣٠ـ .

(٢) سـورـةـ الرـومـ ، الآـيـةـ : ٤١ـ .

(٣) سـورـةـ النـسـاءـ ، الآـيـةـ : ١٣٥ـ .

وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا فَأَلْوَأْنَطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشَهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴿٣﴾

(١) فالسمع والبصر والجلود لم تذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل، ولهذا قال المؤلف (وغيرها) إشارة إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل **﴿حَقٌّ إِذَا مَا جَاءَهُوَ شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾** فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس **﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا﴾** ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم) لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر، ولهذا قالوا لجلودهم: **﴿لِمَ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا﴾** لأن العذاب سيكون على الجلد، كما قال تعالى: **﴿كُلُّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا عِيرَاهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾** (٢) والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهادة ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد **﴿يَوْمَ تَشَهُّدُ عَلَيْهِمْ أَلْسُنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (٣) فاللسان أيضاً يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطراً؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «ألا أدلك على ملوك ذلك كله؟» قلت: بل يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كف

(١) سورة فصلت، الآيات: ٢٠ - ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٤.

عليك هذا»، قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم» أو قال: «على منا خرهم إلا حصائد ألسنتهم»<sup>(١)</sup>، وكل صباح تکفر الجوارح اللسان يعني أنها تجعل الأمر مناطاً به، ولهذا قال في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ ونص على الألسن في سورة النور لأنّه ذكر فيها ما يتعلّق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلاً، وأعظمها قذف عائشة - رضي الله عنها - ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأنّ القذف قول، فقال:

﴿يَوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

الثاني: (تشهد) والتنازع أن يتواتر عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيداً، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيهما ي العمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة واختار عكساً غيرهم ذا أصبح فالعامل الثاني هو الذي ي العمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي ي العمل هو الأول.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

ولم يقل: (بما كانوا يعملون)، لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأ فلا يؤخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من

(١) أخرجه الترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، وللهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ﴾<sup>(١)</sup> ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت) فالكسب أخص من العمل؛ لأنّه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسباً، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤخذ به الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحياناً يطلق العمل ويراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَنَفِسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾<sup>(٢)</sup> يقول المؤلف: [﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾] فكل عضو ينطق بما صدر منه] فالإيد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

#### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يختتم على أفواه المكذبين يوم القيمة فلا يتكلمون، وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمَّا تَكُنْ فِتَنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وهو أن للقيمة أحوالاً: حال يكذبون، وحال يقرون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وأرجلهم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

لقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهَّدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فإنَّه خلاف العادة أن تكلم الأيادي والأرجل، ولكنَّ الله على كل شيءٍ قدير، وللهذا لما ذكر الله عنهم أنهم قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيءٍ.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الإنسان يمكن أن يشهد ببعضه على بعض؛ لأنَّ هذا الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، فهل يتفرع على هذا: أنَّ الإنسان في الدنيا يمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم يمكن، وشهادته على نفسه هو إقراره على نفسه.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(١)</sup> وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup> لأنَّ مجرد العمل قد لا يكون كسباً كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك.

\* \* \*

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَفَ  
يُبَصِّرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - : [﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا  
عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعماهم طمساً ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ ابتدوا ﴿الصِّرَاطَ﴾  
الطريق ذاهبين كعادتهم ﴿فَأَفَ﴾ فكيف ﴿يُبَصِّرُونَ﴾<sup>(٥)</sup> حينئذ  
أي: لا يبصرون].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ (لو) حرف امتناع لامتناع،

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئه، فإذاً هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمتك، امتنع المجيء والإكرام، و(لولا) حرف امتناع لوجود (لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم (لو جاء زيد لأكرمتك) امتناع الامتناع، (لولا زيد لأكرمتك) امتناع لوجود فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمتك) لكي ينطبق المثلان هنا ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله عز وجل يعبر عن نفسه بـ(نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذاً فهو متعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد، لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المحكمة الدالة على أن الله إله واحد ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ﴾<sup>(١)</sup> ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَمَا مَنَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَتَّبْعُ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾<sup>(٢)</sup> إذاً الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعاً؛ لأن الله واحد ﴿أَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالجتها نهائياً، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين، لأن الله قال: ﴿أَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ والله عز وجل على كل شيء قادر،

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

فَكُمَا كَانَ قَادِرًا عَلَى شَقِّ الْعَيْنِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى طَمْسِ ذَلِكَ الشَّقِّ، وَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ رَبِّا يَخْيِطُ الشَّقَّ حَتَّى يَتَلَاءِمَ فَمَا بِالْكَافِرِ إِلَّا وَجْلٌ، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: (كَنْ) فَيَكُونُ ﴿فَأَسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَفَرَّ يُبَصِّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ يَعْنِي طَمْسٌ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَصَارُوا يَتَسَابَقُونَ لِعِلْمِهِمْ يَدْرُكُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي يَوْصِلُهُمْ إِلَى مَقْصُودِهِمْ، وَكَأَنَّكَ تَتَصَوَّرُهُمْ إِلَّا أَنْ يَتَنَافَرُوا تَنَافِرَ الْحُمْرِ لِعِلْمِهِمْ يَهْتَدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ، وَهُلْ يَمْكُنُ لِلْأَعْمَى أَنْ يَدْلِيَ الطَّرِيقَ مِنْ حِيثِ الدَّلَالَةِ الْبَصَرِيَّةِ؟! لَا يَمْكُنُ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿فَأَفَرَّ يُبَصِّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ يَعْنِي كَيْفَ يَبْصُرُونَ الطَّرِيقَ وَقَدْ طَمْسَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ؟! وَالْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى طَمْسَ قُلُوبَ هُؤُلَاءِ، وَلَوْ شَاءَ لَطَمْسَ أَعْيُنَهُمْ، فَصَارَ الطَّمْسُ حَسِيًّا مَعْلُومًا، وَكَمَا أَنَّ الْمَطْمُوسَةَ عَيْنَهُ لَا يَبْصُرُ، فَكَذَلِكَ الْمَطْمُوسَةَ بَصِيرَتُهُ لَا يَبْصُرُ الْحَقَّ، كَيْفَ يَمْكُنُ لِإِنْسَانٍ طَمْسَ اللَّهِ بَصَرَهُ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى الطَّرِيقِ.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ ولكن كل شيء معلق بمشيئة الله فإنه مقررون بالحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يشاء مشيئة مجردة بل مشيئته تابعة لحكمته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢٠﴾ . فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢١﴾ يدل على أن مشيئته مقررونة بالعلم والحكمة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة أيضاً: بين تمام قدرة الله، لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذه الأعين مبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة، فإن هؤلاء لو طمسوا أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل، فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب - والعياذ بالله - لم يستطع الوصول إلى الحق، ولم يعرف الحق.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال بلاغة القرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم مما استطاعوا أن يذهبوا ولا يرجعوا)، لكن أتي به على هذا السياق الذي فيه توسيع؛ لأنه أبلغ في التأثير، وأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتلتذ بسماعه.

\* \* \*

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا أَسْتَطَلْعُوا مُضِيًّا  
وَلَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>٦٧</sup> في الآية السابقة ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ انتفاء الدلالة، وفي الآية انتفاء السير. ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قيل: المراد بالمسخ - كما قال المؤلف - [قردة وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني يمسخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأيًّا كان فالله على كل شيء قادر، فقد قلب الله تعالى بنى إسرائيل قردة وخنازير، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ

أَعْتَدْنَا مِنْكُمْ فِي السَّبْطِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قِرَدَةً خَسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿١﴾ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ كُمْ دِشَرٌ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِيبٌ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبْدَ الظَّاغُوتَ ﴿٦٦﴾ ﴿٢﴾ وَاللَّهُ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «أَمَا يَخْشِيُ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يَحْوِلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حَمَارٍ، أَوْ يَجْعَلُ صُورَتَهُ صُورَةَ حَمَارٍ»<sup>(١)</sup>، وَالْأَمْرُ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: (كُنْ) فَيَكُونُ، فَيَقُولُ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أَيْ: حَوْلَنَا صُورَهُمْ إِلَى صُورٍ أُخْرَى مِنَ الْقِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، أَوْ جَعَلْنَاهُمْ حَجَارَةً، أَوْ أَنَا أَبْقِيَنَاهُمْ مَا كَثِيرٌ كَالْجَمَادِ. الْمَهْمَمُ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى لَوْ شَاءَ لَمَسَخَهُمْ وَأَبْقَاهُمْ فِي مَكَانِهِمْ لَا يَتَحَرَّكُونَ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿فَمَا أَسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أَيْ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَمْضُوا؛ لَأَنَّهُمْ مَسْخُوا عَلَى مَكَانِهِمْ وَبَقُوا ثَابِتِينَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرْجِعوا، وَالَّذِي لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَمْضِي وَلَا يَرْجِعَ ثَابِتًا، كَالْعُمُودِ لَا يَتَقدِّمُ أَمَامًا وَلَا يَتَأَخَّرُ خَلْفًا، لَوْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ لَمْسَخَهُمْ عَلَى هَذَا حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُهُمْ مَحْسُوسًا، أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْخَيْرِ وَالتَّقْدِيمِ إِلَيْهِ فَهُمْ لَمْ يَتَقدِّمُوا لِلْخَيْرِ، وَلَكِنْ تَأَخَّرُوا عَنْهُ إِلَى الشَّرِّ، وَلَهُذَا كَانَ سَيِّرَهُمُ الَّذِي يَسِّرُونَ عَلَيْهِ فِي الْعَمَلِ عَكْسُ الاتِّجَاهِ الصَّحِيحِ، بَلْ مُضَادُهُ تَمَامًا.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ، كِتَابُ الْأَذَانِ، بَابُ إِثْمٍ مِنْ رَفْعِ رَأْسِهِ قَبْلَ الْإِمَامِ (٦٩١) وَمُسْلِمٌ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ سَبْقِ الْإِمَامِ بِرَكْوَنٍ أَوْ سَجْدَةٍ وَنَحْوِهِمَا (٤٢٧) (١١٤).

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ وقد سبق الكلام عن المشيئة وأنها مقرونة بالحكمة في فوائد الآية السابقة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال قدرة الله عز وجل.

٣ - ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع ﴿فَمَا أَسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>(١٧)</sup>.

\* \* \*

﴿وَمَنْ تَعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٨)</sup>.

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله ﴿تَعَمِّرْهُ﴾ وجوابه: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ تَعَمِّرْهُ﴾ أي: نجعل عمره طويلاً، ولهذا قال المؤلف - رحمه الله - [بإطالة أجله (نُنَكِّسْهُ) وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]، القراءة التي جعلها المؤلف أصلاً (نُنَكِّسْهُ) من الإنكس، والقراءة التي في المصحف ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من التنكيس، والإإنكس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ أو ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ يقول المؤلف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفاً وهرماً]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله عز وجل، ﴿وَمَنْكُوْرُ مَنْ يُرْدُ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمِ﴾

شيئاً<sup>(١)</sup> ، قوله: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً<sup>(٢)</sup>» والغرض من هذا التنبية - وإن كان أمراً واقعاً وكل يعرفه - الغرض منه أن يبادر الإنسان عمره مادام في قوته وشبابه، لأن سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية، ويكون تفكيره محدوداً كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدوداً لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضاً يكون حفظه للأشياء محدوداً، فيمر به شيء في الصباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يسلب عقله نهائياً، وربما يصل إلى حد يشبه الجنون فيؤذى أهله بالصراخ والعويل والأنشيد وما أشبه ذلك حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جمالاً مثلاً، وكان ينشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لابد منه، ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم  
فكـل إنسـان عـاـقـل إـذـا تـذـكـر أـنـ مـالـه إـمـا مـوتـ عـاجـلـ، وـإـمـا هـرـمـ، فـإـنـه  
لا يـطـيـبـ لـهـ العـيـشـ، وـلـكـنـ العـاـقـلـ لـيـسـ معـنـىـ أـنـهـ لاـ يـطـيـبـ لـهـ العـيـشـ  
أـنـهـ يـبـقـىـ فـيـ نـدـمـ وـفـيـ حـزـنـ، بـلـ يـسـعـىـ وـيـسـتـعـدـ لـهـذـهـ الحـالـ التـيـ  
لـابـدـ مـنـهـ، «أَفَلَا يَعْقُلُونَ<sup>١٨</sup>». قال المؤلف - رحمة الله -: [إنـ]  
الـقـادـرـ عـلـىـ ذـلـكـ الـمـعـلـومـ عـنـهـمـ قـادـرـ عـلـىـ الـبـعـثـ فـيـؤـمـنـونـ بـهـ،

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

وفي قراءة [بالتاء] أي: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، وهي سبعة كما تقدم من اصطلاح المؤلف. هكذا قال المؤلف رحمه الله: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممکن، لكن أحسن منه أن يقال: إن معنى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أَفَلَا يكون لكم عقل فتباوروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ تباوروها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، غالباً أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى فإذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضاً، أو تجده يصلي دائماً، أو تجده يقرأ القرآن دائماً، أو يذكر الله تعالى دائماً، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيء، نسأل الله العافية والسلامة.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان حال الإنسان وأنه يتقل من طور إلى طور، وقد بين الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿أَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٦٤﴾<sup>(١)</sup>. لكن هذه

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

الآية فيها دليل على أن الإنسان إذا تقادم في السن فإنه يرجع إلى الوراء لقوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نَنْكِسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾.

٢ - يتفرع على الفائدة السابقة: أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فرص العمر وقوته وشبابه قبل أن ينكسر في الخلق.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: التنديد بهؤلاء المكذبين؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٦٨)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التعلق والتفكير وحسن التصرف حتى يكون الإنسان من العقلاء.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن العقل غير الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكياً ولكنه ليس بعامل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٨)</sup> ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير.

\* \* \*

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَبْغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٦٩)</sup>

قال المؤلف - رحمه الله - في تفسيره: [﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿الشِّعْرَ﴾ رد لقولهم: إنما أتى به من القرآن شرعاً ﴿وَمَا يَبْغِي﴾ يسهل ﴿لَهُ﴾ الشعر ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٧٠)</sup> مظهر للأحكام وغيرها] قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَبْغِي لَهُ﴾<sup>(٧١)</sup> ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ.

إذا قال قائل: أين مرجع الضمير لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أَل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهوماً عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾<sup>(١)</sup> ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلِمْنَا نَحْنُ﴾ أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه، ولهذا لم يعلم الشعر، ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتْبٍ وَلَا تَخْطُلُ بِمِسْنَاتٍ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فالنبي ﷺ لم يقل شرعاً أبداً، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفواً، والذي يأتي عفواً ليس مقصوداً فلا يكون معلوماً مثل قوله ﷺ:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذْبٌ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ»<sup>(٣)</sup>

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شرعاً، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المقوى الذي يأخذ باللب، وسمي شرعاً لأنه يأخذ بالشعور، ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللب أكثر من أن يأخذ التثر، فربما تسمع خطبة بلغة جيدة جداً، وتتجدد ما

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من قاد دابة غيره (٢٨٦٤). ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة حنين (١٧٧٦).

يماثلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور أكثر، ولهذا سمي شعراً، وبه نعرف أن ما يسمى الآن بالشعر المنثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بشر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه من يطربون إلى التثرا والخطب، ولا يطرب إليه من يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل أمرٍ من دهره ما تعود، والذين أحدهم يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر أمرٍ القيس. ﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْر﴾ قال المؤلف: [رد لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعر) والمكذبون والذين يقومون ضد - أي إنسان - لا بد أن يصفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفُوهُمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتَمَّمَ نُورُهُ﴾<sup>(١)</sup> وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَلِكَ مَا أَقَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾<sup>(٢)</sup> كل الرسل وصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضاً وصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن ينفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر وهل نفر الناس؟ أبداً، لأن الحق - والحمد لله - سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

**فإذا قال قائل: هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام  
هل يتعدى إلى أتباعه؟**

**فالجواب:** نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾<sup>(١)</sup> يصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخير وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السنة والجماعة بألقاب السوء يقولون: إنهم نوابت، غثاء، حشوية، مجسمة، مشبهة، وما أشبه ذلك، كل هذا من أجل التنفيذ عما هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثواباً لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحاناً لهم بالصبر على ما هم عليه من الحق، ثم العاقبة تكون لهم، ﴿وَمَا يَبْغِي لَهُ﴾<sup>(٢)</sup> الشاعر قال المؤلف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاء، وصعب عليه إنشاداً، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنسد شعر غيره ينشده أحياناً على غير الوزن المعروف، لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر ﴿وَمَا يَبْغِي﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به، لأنه كل ما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَبْغِي﴾ فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْغِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾<sup>(٢)</sup> أي: مستحيل غاية الاستحال، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا أَلَّمَسْ يَبْغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَر﴾ يعني هذا شيء

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٢.

مستحيل أن تدرك القمر هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعراً. فلا يصح ولا يمكن أن يعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجاً من المبطلين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَئْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَبٍ وَلَا تَخْطُلُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

**سؤال**<sup>(٢)</sup>: لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنشر واضح لدى عامتهم فضلاً عن خواصهم؟  
**الجواب**: المبطل يموه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجه جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعائهم حتى يشتبه الأمر.

**سؤال**: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعموا القرآن بالشعر وليس موزوناً ولا مقفى؟

**الجواب**: هذا من باب الترويج، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبداً على مثل شعرهم هذا.  
 كما أنه لو كان يكتب لقالوا إن هذا شيء مما كتبه. ﴿إِنْ هُوَ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) هذا السؤال والذي طرحا عليه فضيلة الشيخ - رحمه الله - أثناء الدرس فأجبتهما مع جوابهما، والله الموفق.

**إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ** ﴿٦٩﴾ قال المؤلف : [ليس الذي أتى به إلا ذكر] فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي : ما هو إلا ذكر، و (إن) تأتي لعدة معانٍ : تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومحففة من الثقيلة . والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق ، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معاني متعددة أنه يعينها السياق ، وقرينة الحال ، وهي هنا نافية ، قال **﴿هُو﴾** الضمير يعود على المصدر المفهوم من **﴿عَلَمْنَاه﴾** ، وكون مرجع الضمير مصدرأً معلوماً من الفعل السابق أمر لا يستغرب ، ألم تر إلى قوله تعالى : **﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾** ﴿١٠﴾ **﴿هُو﴾** أي : العدل المفهوم من كلمة : (اعدلوا) وهنا **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ** ﴿٦٩﴾ أي : ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين . قوله : **﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾** قال المؤلف : [عظة] يعني موعظة يتذكر بها من تذكر ، والذي يتذكر بهذا القرآن بينه الله تعالى في قوله : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لِهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى أَسْمَعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿١٧﴾ وهذا باعتبار الاستعداد والقبول ، وجاء في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقيين يتعظون بهذا القرآن ، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك ، ففي سورة **«ق»** بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر ، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل ،

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

وكلما ازداد الإنسان عملاً بالقرآن ازداد تذكراً به، وهذا الذي ذكره المؤلف - رحمة الله - في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معانٍ:

**المعنى الأول:** ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكرة.

**المعنى الثاني:** إنه ذكر يذكر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله عز وجل، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته عز وجل؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدن حكيم خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذكر لله عز وجل؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بينها الله تعالى في كتابه.

**المعنى الثالث:** أنه رفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِذِكْرٍ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسُوفَ تُسْتَأْنُونَ﴾<sup>(١)</sup> والذكر بمعنى الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم على أن تمسكوا

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة، وعملاً، وهدياً فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون - لو كنتم قليلين - فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمهتدي به حتى يكشروا شيئاً فشيئاً، كالحجر تلقىه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق، قال: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(١)</sup> قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارئ ومقروء، أما كونه قارئاً فلأنه من القر يعني الجمع فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والأداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَبِ وَمَهِمَّنَا عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup> وجامع أيضاً لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضاً مقروء أي: متلو؛ لأنه يتلى، القراءة بمعنى التلاوة. ﴿مُبِينٌ﴾<sup>(٣)</sup> قال المؤلف - رحمه الله - [مظهر للأحكام وغيرها] فـ ﴿مُبِين﴾ هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مراراً أن (أبان) يكون لازماً، ويكون متعدياً، يكون لازماً بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup> أي: بين ظاهر،

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: ﴿مَيْنٌ﴾ أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup> فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجه صريح، أو على وجه ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالملهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارة يذكر الدليل على المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلاً: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير نصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَّكُمْ الرَّسُولُ فَحَذُّرُهُ وَمَا نَهَّكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾<sup>(٢)</sup> فهذه الآية إذا وجهتها إلى السنة شملت جميع السنة، وشرعننا كلها لا يعدو الكتاب والسنة، فإذا فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضاً مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المكذبين للرسل وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا شيء الذي لم يذكر موكولاً إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجولوجية، أو غير ذلك نجد أن القرآن لم

(١) سورة التحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

يفصلها ولم يبينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يدركوها، ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجه صريح، ولو كان هذا مما يتquin علينا اعتقاده إثباتاً أو نفياً لكان الله عز وجل يبيّنه بياناً واضحاً كما بين الأمور التي لابد لنا من الاعتقاد فيها على وجه صريح، إذاً هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يطلع عليها إلا أخيراً هذه أيضاً لم تذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنه لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرٌ﴾<sup>(١)</sup> وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: «إنها ملابيin القطع» لم يخرج عن دلالتها، هذه القطع لو لا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله ﴿قطع متباورات﴾ إذاً هي متباعدة. في هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض، لأن الله بين أنها قطع، وليس القطع التي فوق التراب فقط، وفيه أشياء كثيرة ما تعلم وربما تعلم في المستقبل، وربما بعضها علم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرة ثانية إلا ظهر لك معنى جديداً غير الأول، ولا يمكن لأحد أن يحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالباً للحق، مریداً للصواب فإنه يهتدى إلى معاني كثيرة، سئل علي بن أبي طالب

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

- رضي الله عنه - هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء - لأنه كان يروج في ذلك الوقت - من وقت علي والشيعة يروجون بأن النبي ﷺ عهد بالخلافة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فسئل هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتمها عن الناس؟ فقال: لا والذى برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهما يؤتى بهما تعالى من شاء في كتابه، وما في هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر<sup>(١)</sup>. الشاهد قوله: «إلا فهما يؤتى بهما تعالى من شاء من كتابه» وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافاً كثيراً جداً، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يستخرج منها فوائد محدودة معدودة، وتري آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافاً مضاعفة بالنسبة لما استخرجها الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وتقوى ازداد هدى بالقرآن ﴿وَالَّذِينَ أُهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَأَنَّهُمْ تَقُولُونَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: في هذه الآية رد وتكذيب للمشركين الذين قالوا: إن محمداً ﷺ شاعر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الْشِّعْرَ﴾.
- ٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يصلح ولا يليق برسول الله ﷺ أن يكون شاعراً؛ لأن مقام النبوة أسمى وأعلى من أن ينحط

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتاب العلم (١١١).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

## الإنسان إلى رتبة الشعراء .

وقد يقال: إن فيها ملاحظة البعد عن الشبه، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يتبع عن كل ما يوجب الشبهة حوله، فمقام النبوة الذي ادعى فيه أنه شعر ينبغي أن يتبع الإنسان عمّا يوجب هذه الشبهة، ويفيد هذا أن النبي ﷺ لما كان يمشي مع صفية - رضي الله عنها - فمر به رجلان فأسرعا فقال: «على رسلكما فإنها صافية بنت حبي»<sup>(١)</sup> وهذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يقول: مادمت نزيهاً فلا يهمني أن يسيء الناس الظن بي. وهذا ليس بصحيح، وليس من حسن الرعاية لنفسه أن ينزل بها إلى هذا الحد، بل الإنسان مأمور أن يدفع عن نفسه الشبهات واللوم والظن.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي علمه رسول الله ﷺ ذكر، وقد تقدم في التفسير أنه ذكر من ثلاثة أوجه.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما تمسك المسلمون بهذا الكتاب العزيز فإنهم يزدادون عزة وشرفاً؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن مبين لكل شيء، فكل شيء يحتاج الناس إليه فهو مبين؛ لقوله تعالى:

﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٩)

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨) ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أن يستحب لمن رؤي حالياً بامرأة وكانت زوجة... أن يقول: هذه فلانة (٢١٧٥) ..

﴿لَيَنذِرَ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحْقِّي الْقَوْلُ عَلَى الْكَفَرِينَ﴾ (٧٠)

قال المؤلف: [بالياء والتاء] ﴿لَيَنذِرَ﴾ بالياء الضمير يعود على القرآن ﴿لَتَنذِرَ﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المؤلف: [لتذر به] فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية وهي: ﴿لَتَنذِرَ﴾، أما القراءة الأولى ﴿لَيَنذِرَ﴾ فلا تحتاج إلى هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه منذر، وأن النبي ﷺ منذر به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافاً للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوف به، ورغب به ﴿مَنْ كَانَ حَيَا﴾ قال المؤلف: [يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون] ﴿مَنْ كَانَ حَيَا﴾ هل المراد هنا بالحياة الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين، ولهذا قال ابن كثير - رحمه الله -: من كان حياً على وجه الأرض . يعني من كان حياً حياة جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو ينذر من كان حياً، أي: ينذر كل حي، أو من كان حياً حياة معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يراد به من يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت، ميت الجسم، وميت القلب، أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن، لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طبع على قلبه - والعياذ بالله - فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق ﴿وَيَحْقِّي الْقَوْلُ﴾ قال

المؤلف: [بالعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾] وهم كالموتيين لا يعقلون ما يخاطبون به، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> كان المتوقع أن يقال: ويحق القول على من كان ميتاً، أو على الأموات؛ لأن هذا مقتضى المقابلة، لكن عدل عن هذا إلى ذكر الكافرين فقال: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمراً:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل<sup>(١)</sup> على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر، ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عدل الله عز وجل - والله أعلم - عن هذا إلى قوله ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> دون قوله: «ويحق القول على الموتى» بل قال ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، ومن الأمثلة على هذا: - وهو كثير بالقرآن - قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾<sup>(٤)</sup> لم يقل: (يقضون بالباطل) بل قال: ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ ليشمل الباطل وغير الباطل، يعني ليس لهم قضاء إطلاقاً؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء.

(١) هكذا هي في الشرح المسجل

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٠.

## الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم لا ينفع به وينتذر إلا من كان حيًّا، أي حي القلب.
  - ٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: إن من كان ميت القلب - والعياذ بالله - فإنه لا ينفع بالقرآن.
  - ٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم حجة على الكافرين لقوله تعالى: ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكُفَّارِينَ ﴾<sup>(٧٠)</sup> لأنه لن يحق عليهم القول إلا بعد أن تقوم عليهم الحجة، ويكون كفرهم عن عناد ولهذا قال: ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكُفَّارِينَ ﴾<sup>(٧١)</sup>.
  - ٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكافر لا ينفع بالقرآن وإنما يكون حجة عليه، وهكذا كل من كان فيه خصلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتداره به.
  - ٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العلة، وإن شئت فقل: الحكمة، لقوله تعالى: ﴿ لَيَسْتَدِرُ ﴾ اللام وكلما رأيت التعليل في كتاب الله عز وجل فهو مثبت للحكمة في أفعاله تعالى ومشروعاته.
- \* \* \*

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَنَّا فَهُمْ لَهَا مَنِلُكُونَ ﴾<sup>(٧١)</sup> ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنَّه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أدلة النفي حرفاً مثل: (لم)، أو فعلًا مثل: (ليس) فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المؤلف:

[﴿يَرَوُا﴾ يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤيه العلم، ويمكن أن يراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد ينكر الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن ينكر، والحقيقة أنها محتملة لهذا وهذا، باعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء كما قال تعالى: ﴿مَا أَشَدَّتُهُمْ حَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا حَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> وباعتبار المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المؤلف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف] هل الواو داخلة أو مدخلة؟ المؤلف يقول: الواو على الهمزة» لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت (سوف يقوم) فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمؤلف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب وهو أن التقدير: (وألم يروا أنا خلقنا لهم) وهذا أحد القولين، فهنا المؤلف - رحمة الله - جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه - رحمة الله - يرى أن في المسألة تقديمًا وتأخيرًا، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وألم يروا) ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ قال: [في جملة الناس ﴿مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا﴾ عملناه بلا شريك ولا معين] ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي أوجدنا لهم من العدم أنعاماً، والله سبحانه وتعالى مختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق

إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نجرت الخشبة باباً فقد خلقتها باباً، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيرتها إلى هيئة معينة، وهذا نوع من الخلق، ولهذا يقال: للمصورين يوم القيمة أحياوا ما خلقتهم، مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط ﴿لَهُم﴾ اللام في ﴿لَهُم﴾ للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا أَنْعَكْمًا﴾ أي مما عملنا وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا) كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾<sup>(١)</sup> فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليـد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليـد ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ فهو قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليـد، والمراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمراد نفسه، أي: مما عملنا، ولو قلنا: بأنه خلقها بيـديه لـكانت الأنعام أشرف من

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال : ﴿مَمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا﴾ بالجمل فهل الله عز وجل له أكثر من يدين؟ الجواب : لا، ليس الله أكثر من يدين، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأن الأفضل في المثنى إذا أضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى ﴿إِن نُؤْبَأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَّرَ قُلُوبُكُمْ﴾<sup>(١)</sup> مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المفيد للجمع - وهنا للتعظيم بلا شك - ناسب الجمع، وأيضاً فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جمعت، وأيضاً فإن هذه الأنعام لا يحصيها إلا الله عز وجل فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضاً باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك أنها تفيد إثبات اليد لله عز وجل، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع .

فإذا قال قائل : ما هو الدليل على أنه ليس الله إلا يدان اثنتان؟ قلنا : الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلْتَ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَاهُ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> ولو كان له أكثر من واحدة لقال : (بل أيديه) لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخالق عز وجل فعطاؤه لا ينفد، ولا يعد،

(١) سورة التحريم، الآية : ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية : ٦٤.

وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

﴿أَنْعَمْنَا﴾ قال المؤلف: [هي الإبل والبقر والغنم] لأن المؤلف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم لقوله تعالى: ﴿أُحِلْتَ لَكُمْ بِهِمَّةً أَنْعَمْ إِلَّا مَا يَتَّلَقَّ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. ولو قيل: بأن الآية أعم من ذلك؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَنْلِكُونَ﴾ الفاء مفرعة على قوله: ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: فعلى كونها خلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون، وأتى بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار، أي: أن هذا الملك مستمر، وهذا الملك الذي ذكره الله عز وجل يقول فيه المؤلف: [ضابطون] فهو من ملك التصرف، وليس من الملك الشرعي الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها. أي: أنهم يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: تقرير نعمة الله عز وجل على عباده، بهذه الأنعام؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا أَعْمَلْتُ أَيْدِينَا أَنْعَمْنَا﴾.

٢ - ومن فوائدها أيضاً: أن هذه الأنعام ملك لنا ننتفع بها بجميع وجوه الانتفاعات لقوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ فكل وجوه الانتفاعات فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها لأنها مادامت لنا فنحن فيها أحرار إلا ما قام الدليل على منعه. ويتفرع على هذه الفائدة:

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادة بركره، مثل أن نركب البقر، ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خلقت له.

فإن قلت: ما الجواب عن الحديث الصحيح: «بينما رجل راكب بقرة يسوقها، إذ التفت إليه فقالت له: إنما لم تخلق لهذا، قال النبي ﷺ: «فأنا أؤمّن بذلك وأبو بكر وعمر»<sup>(١)</sup>.

فالجواب على هذا أن نقول: إن هذا الرجل ركبها ركوباً يشق عليها، وهي ما خلقت لتعذب، وهو كذلك حتى لو أن الإنسان ركب الإبل على وجه يعذبها قلنا له: إنها لم تخلق لهذا.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: «مَمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا» لكن لا يسمى الله بالعامل، كما لا يسمى الصانع أخذًا من قوله: «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»<sup>(٢)</sup> وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشتق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسمًا. ولهذا نقول: (الصفات أوسع من الأسماء)، أي باب صفات الله أوسع من باب الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسمًا.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: «مَمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا أَنْعَنَّا» وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقة ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؟

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحrust والمزارعة، باب استعمال بقر للحراثة (٢٣٢٤) ومسلم بمعناه، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلاً وسمعاً،  
 قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿فَلَا تَنْظِرِنَا إِلَيْهِ  
 الْأَمْثَالُ﴾<sup>(٢)</sup> وأما العقل: فإن كل عاقل يدرك الفرق بين الخالق  
 والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما  
 وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، فمثلاً: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويسمىها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، صفات غير لازمة، ويسمىها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولا يزال خالقاً، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق فإنه يكون حادثاً بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس، لأن الله لم يزل ولا يزال خالقاً. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستو عليه، والذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله عز وجل لا يتجزأ ولا يتبعض، إذ إن الجزء ما جاز

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤.

وجود أصله بعده، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلاً - وحاشا الله عز وجل - أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل، ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعاض الله؛ لأن هذا منكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقة، ثابتة الله على الوجه اللاقى به، ولكن لا تماثل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتدى قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصرف الله عز وجل باليد الحقيقة، ولا شك أن هذا ضلال وجناية على النصوص. أما كونه ضلالاً، فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق عز وجل يقول عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ﴾<sup>(١)</sup> ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيِّ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِيَنَا﴾ وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله؟ ولو لا تأوبلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيباً للنصوص، ونحن نعلم أن المكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يرد كذا، وأراد كذا، فنفوا ما أراد الله، وأثبتوا ما لم يرده، فكان جناية على النصوص من الوجهين: السلبي والإيجابي.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

السلبي حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي أثبتوا ما لم يرده الله. إذ قال الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾<sup>(١)</sup> قالوا: أراد باليدين النعمة أو القوة. نقول - سبحانه الله - من الذي أعلمك؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة، من الذي قال لك هذا؟ فنفيك قول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جنائية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهود لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله - عز وجل - وأن الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر، وإن فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقة لائقة به، لا تماثل أيدي المخلوقين بأي حال من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍِ﴾<sup>(٢)</sup> أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح (أيد) هنا بمعنى قوة، لأن أيد مبادر أداء، يئيد، أيداً، كياع بيع بيعاً، وكال يكيل كيلاً، ولا يجوز أن نقول هي قوله: ﴿أَيْدِنَا﴾ لأن الله لم ينسبها إلى نفسه،

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

فلم يقل: «والسماء بنيناها بأيدينا» وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتبعه أن نفسر قوله: ﴿وَالْسَّمَاوَاتِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِيهِ﴾ أي بقوه. وإذا لم يضف الله شيئاً إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه. لأننا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكننا نقول على الله بلا علم. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقِ وَيُدَعَّوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> اختلف السلف في قوله: ﴿عَنْ سَاقِ﴾ هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه عز وجل، ونحن إذا أخذنا القاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولا بد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم نكشف عن ساقنا) بل قال ﴿يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقِ﴾ ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في الصحيحين في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المراد به ساق الله فإنه في حديث أبي سعيد الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا<sup>(٢)</sup>، فهنا ﴿يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنْ سَاقِ وَيُدَعَّوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ﴾<sup>(٣)</sup> خشيةً أبصراً ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهو سالمون<sup>(٤)</sup> نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحيثئذ نقول: إن كلام الله

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب يوم يكشف عن ساق (٤٩١٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣)..

تعالى يفسر بكلام الله تعالى، ويفسر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المراد به ساق الله عز وجل، ولكنه نكر للتعظيم؛ لأن التنكير قد يراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة «يس» ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذ؟

نقول: الذي عليه أهل السنة أنه ليس الله إلا يدان اثنتان، وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾<sup>(٢)</sup> وبين هذه الآية، ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا أَنْعَكِمَا﴾ وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup> وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهما متيسر - والله الحمد - لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضاً، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضاً، فالخلق منسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشريعة منسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المضاف يشمل؛ لأن للعموم، ألم تر إلى

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الملك، الآية: ١.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدُوا نَعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾<sup>(١)</sup> نعم لا تحصى مع أنه قال: ﴿نَعْمَتَ اللَّهِ﴾ واحدة، لكن المفرد مضاد يكون للعموم فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد مضاد وإن كثر، إذاً ﴿بِيَدِهِ الْمُلْك﴾ لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فيدخل واليدان فإنه تدخل، إذاً لا منافاة بين المفرد وبين العدد جمعاً كان أو مثنى، فقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْك﴾ اليد مفرد مضاد. والضمير مضاد إليه، والمفرد مضاد يفيد العموم. أي: مفرد مضاد فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عتق الجميع، مالم يُرد واحداً.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت كلها وقفًا ما لم يرد واحداً. فالمعنى المضاد يعم.

بقي لنا الجمع بين الديين الشتين، والجمع الذي هو «أيدينا» كيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن كثيراً من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَنُوْبَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَّتْ قَلْبُكُمَا﴾<sup>(٢)</sup> فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الْسُّدُّس﴾<sup>(٣)</sup> (إخوة)

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١.

جمع . مع أن الأم تحجب من الثالث إلى السادس باثنين . وبقول النبي ﷺ: «الاثنان وما فوقهما جماعة»<sup>(١)</sup> أي : في الصلاة . ولكن أكثر علماء اللغة - وهو المشهور - يقولون : إن أقل الجمع ثلاثة ، وحيثند يمكن الجمع .

الوجه الثاني : وهو أن نقول : إن المراد بالجمع في قوله تعالى : «مَمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا» المراد به التعظيم ، لأن الجمع يدل على التعظيم ، ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في مقام التعظيم . فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المراد به الجمع ، بل المراد به التعظيم . فهنا الجمع للتعظيم ، وللمناسبة أيضاً لأنه أضيف إلى ما يفيد الجمع فكان الأنسب أن يكون مجموعاً ، فهذه المناسبة لفظية ، وإرادة التعظيم مناسبة ، معنوية . وبهذا يزول الإشكال .

فإذا قال قائل : لماذا لا تقولون : إن الله أيدى كثيرة ؟

فالجواب : إن هذا يمنعه المعنى ، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنين ، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر ؛ لأنه أبلغ في المدح . فلما قال : «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ»<sup>(٢)</sup> عُلم أنه ليس له إلا يدان اثنان ، ومثل ذلك قوله تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا فَبَضَّعَهُ يَوْمَ الْقِيَمةِ وَالشَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»<sup>(٣)</sup> فأثبتت القبضة يداً ،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٤٥) وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب الاثنان جماعة (٩٧٢).

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٦٧ .

والسموات مطويات بيمنه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة، ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنان فقط.

ومثل ذلك نقول: في صفة العين، العين وردت مجموّعة، ووردت مفردة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾<sup>(١)</sup> ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(٢)</sup> فنقول: عين مفرد مضاف فيع ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ إما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس الله أكثر من عينين اثنين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبين تمويهاته قال: «إنه أبور العين اليمني، وإن ربكم ليس بأبور»<sup>(٣)</sup> ، فيبين العلامة الحسية الظاهرية وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن المراد بالعور هنا العيب، يريد أن يثبت أن الله تعالى أعيناً كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال: «أبور العين اليمني» ولم يقل: (أبور) فقط، فلو قال: (أبور) فقط، وربما يحتمل ما قاله، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: «أربع لا تجوز في الأضاحي: المريضة، والعجفاء، والغوراء، والعرجاء»<sup>(٤)</sup> فجعل العور غير

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفتنة، باب ذكر الدجال (٧٣١). ومسلم، كتاب الفتنة، باب ذكر الدجال (١٠١) (٢٩٣٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٤).

العيوب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين ثم إذا جاء الحديث «أعور العين اليمنى» صار قاطعاً للاحتمال قطعاً نهائياً لا يمكن أن يراد به العيب.

### فإذا قال قائل : ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان الله أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب عز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبيّن أن دلالة حديث الدجال - وهو صحيح - دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم - رحمه الله - في مختصر الصواعق المرسلة «إذا قام أحدكم يصلّي فإنه بين عيني الرحمن» وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجة إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أننا نملك هذه الأنعام ملكاً شرعياً، وملكاً حسرياً قدرياً.

أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها، ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، أما الكوني الحسي فلا نملك زمامها وضبطها، وهي مسخرة لنا نقيمهها وننيخها، ونذهب بها ونرجع بها، وهذا من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بهذا الملك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُون﴾ بالجملة الإسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار، أي: ملك مستقر تمام.

\* \* \*

﴿وَذَلِّلْنَاهُمْ فِيمْنَهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَذَلِّلْنَاهُمْ﴾ أي: سخرواها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذلل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله عز وجل وجوه الانتفاع فقال: ﴿فِيمْنَهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الركوب فعال، بمعنى: مركوب، أي: ف منها ما يركبونه، مثل الإبل.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المؤلف، فإننا نقول: منها ما يركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله عز وجل جعل لهذه الأنعام فوائد متعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضاً من أصواتها وأوبارها وأشعارها أنثاثاً ومتاعاً إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا. و قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيمْنَهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿مِن﴾ في الموضعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟

مقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكنا من الانتفاع بها، ولهذا لما ند بغير من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم فقال النبي ﷺ: «إِن لَهُذِهِ الْإِبْلَ أَوْابَدُ كَأْوَابَدِ الْوَحْشِ»، فما ند منها فاصنعوا به هكذا<sup>(١)</sup> ، فهذه البغير تمردت على أهلها ولم يدركونها إلا بالسهم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله، لقوله: «وَذَلِكُنْهَا هُنْمٌ» لكنها مفعولة للفاعل مباشرة . فهي تنسب لله عز وجل تقديرًا وخلقًا، وتنسب إلى الفاعل كسباً وعملاً، فهذه الإبل المذلة الذي ذللها هو الله، إذاً أفعالها صادرة بخلق الله عز وجل . وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالاً؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

**المذهب الأول: مذهب الجبرية**، الذين يقولون: إن خلق الله عز وجل شامل لكل حركة في السماوات والأرض، وإن الإنسان مجبور على عمله ليس له فيه اختيار، بل الحركة الإرادية الاختيارية، كالحركة الإجبارية التي ليس له فيها إرادة .  
ويقولون: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالرياح ليس

(١) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما ند من البهائم فهو بمنزلة الوحش، (٥٥٩).

باختياره، فيقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضاً: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالماً له، ويلزم عليه أن مدح الطائرين لغو لافائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يجبر عليه بدون اختياره، ويترب عليه أيضاً: أن ذم العاصين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضاً مخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمانينة و اختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعاً، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية، أن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غير أصحابه أن الله عز وجل ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

**أصحاب المذهب الثاني:** الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون الله عز وجل إرادة، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس الله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان

لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبداً بأن أحداً يجبره على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله عز وجل وخلقه عن أفعال الخلق واعتقادهم أن الإنسان مستقل بما يحده، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث. الذي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مستقلاً بها، فلهذا سموا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئاً في ملك الله عن ملك الله.

**المذهب الثالث:** أهل السنة والجماعة توسعوا بين القولين وأخذوا بالدلائل، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة، ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترب على فعله حكم، فالمحجرون - مثلاً - لا يؤخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يكلف ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾<sup>(١)</sup> إذاً فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلو لا الإرادة ما فعلت، ولو لا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانوا مخلوقين لله

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلاً. كما أن الإحراق مثلاً بالنار ينسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله عز وجل، فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرةً، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقاً، وهذا الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، هو المطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية. فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريق واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ولو لا هذا الاعتقاد لشلت الحركة ولصار الإنسان اتكالياً لا يقول ولا يفعل، ولو لا هذا الاعتقاد لم يلجم الإنسان إلى ربه عز وجل في مهماته وملماته، فهو باعتبار أنه مرید فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مدبر، يرجع إلى الله عز وجل، فلا يكون اتكالياً، ولا يكون أنايياً. يعني أنه لن يستغنى بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكالياً يقول: إن قدر لي شيء صار، بل هو يعمل مستعيناً بالله معتمداً عليه.

٣ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن لنا أن ننتفع بهذه الأئمماً بالركوب، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها، فإن كان في ذلك مشقة كان حراماً؛ لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: جاز الاترداد على الدابة لعموم قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبٌ﴾ ولكنه مقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون

في ذلك مشقة .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: حل هذه الأنعام، أو حل بعضها إذا جعلنا «من» للتبعيض وجعلنا «الأنعام» أعم من «بهيمة الأنعام» والحل في الأنعام كلها هو الأصل، ولهذا لو تنازع شخصان في أن هذا الحيوان حلال أو حرام، لكان القول قول من يقول بالحل حتى يقوم دليل على التحرير وذلك :

**أولاً:** لعموم قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾<sup>(١)</sup>

**ثانياً:** لعموم قوله : ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> فالأصل هو الحل حتى يقوم دليل على المنع، لكن هذا الحل مقيد بشروط الذكاء المعروفة؛ لأنها إذا لم تدرك البهيمة الحلال ذكاء شرعية صارت حراماً لا تحل، فهذا الإطلاق ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> مقيد بشروط وهو أن يكون مذكاً بذكاء شرعية، ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حل له ولو لم يدرك لقول الله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلَا عَادِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾<sup>(٤)</sup>

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تم المصلحة إلا به، لأن الأكل مصلحة، ولكن لا أكل إلا بعد الذبح، والذبح من أعظم ما يكون من الإيذاء، ولأن الشرع جاء بإباحة وسم البهائم بالنار من أجل حفظ ماليتها، ولأن الشرع جاء بمشروعية إشعاع الإبل والبقر في الهدي ليعلم أنها هدي،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

وأشعارها هو شق صفة سمامها حتى يسيل منها الدم ، وعلى هذا إذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنه لا بأس به ، مثل ما يفعله بعض الناس الآن في الحمام إذا أراد أن تربى عنده فإنه ينتف مقدم الأجنحة لئلا طير ، حتى تألف المكان وتربى فيه ، يقولون : لو أنها قصصناها قصاً ما نبت لها ريش بسرعة . فلهذا يختارون أن ينتفواها نتفاً من أجل أن ينبع الريش بسرعة وتسعد للطيران .

\* \* \*

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) .

قال المؤلف - رحمه الله - : [﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾] كاصوافها وأوبارها وأشعارها **﴿ وَمَسَارِبٌ ﴾** من لبنها ، جمع مشرب بمعنى شرب ، أو موضعه **﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾** المنع عليهم بها (٧٤) فيؤمنون . أي ما فعلوا ذلك ] .

المنافع أعم مما قاله المؤلف : [كاصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتبيه ، والأصواف للضأن ، والوبر للإبل ، والشعر للبقر والغنم ، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى ، ولهذا أتى بصيغة منتهي الجموع **﴿ مَنَافِعٌ ﴾** . **﴿ وَمَسَارِبٌ ﴾** إما موضع الشرب كما قال المؤلف ، أو الشرب ، ولكن الأولى أن نقول : إن لهم فيها مشارب أي : شرباً ، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها ، وينتفعون بها شرباً وبيعاً ، ولهذا قال تعالى : **﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾** (٧٥) والهمزة

للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي أنهم لم يشكروا الله عز وجل فهم موبخون على عدم شكرهم.

وقول المؤلف - رحمة الله - : [أي ما فعلوا ذلك] لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل.

وقد تقدم الكلام على معنى الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله تعالى : ﴿ لِيَاكُلُوا مِنْ شَرِيفٍ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيَّدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٥).

### الفوائد:

١ - يستفاد من هذه الآية الكريمة : أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فأي منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مباحة لنا، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنْفِعٌ ﴾ لكن بشرط كما أسلفنا أن لا يكون في ذلك مشقة فإن كان فيها مشقة فإنها ممنوعة.

٢ - ومن فوائدها : حل ألبان هذه البهائم؛ لقوله : ﴿ وَمَسَارِبٌ ﴾ .

٣ - يستفاد من قوله : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٦) وجوب شكر الله تعالى على هذه النعم، ووجهه أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل محرم، أو ترك واجب. وشكر المنعم كما دل عليه الشرع فقد دل عليه العقل، فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال، ولهذا جاء في الحديث الصحيح : «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا الله حتى تروا أنكم كافأتموه»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٨٢) وأبوداود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢).

ثم قال الله عز وجل : ﴿ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ .

﴿ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من غيره ، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا الله مع الله ، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله الله ، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أنهم لم يتخدوا الله إلهًا ، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا الوهية الله تعالى ، مع أن هؤلاء يتأنهون إلى الله تعالى وإلى غيره ، ولكن قد يقال : إن الفائدة من التعبير بقوله : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ مع أنهم يأنهون الله تعالى ويأنهون الأصنام ، أن الإنسان إذا اتخاذ شريكًا مع الله فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأنه الله تعالى ، كما جاء في الحديث القديسي الصحيح أن الله تعالى قال : « أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »<sup>(١)</sup> .

﴿ إِلَهًا ﴾ جمع إله ، والإله بمعنى مألوه . أي : معبد ، وفعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة ، منها : غراس بمعنى مغروس ، وبناء بمعنى مبني ، وفراش بمعنى مفروش . فهو لاء - والعياذ بالله - يتأنهون لهذه الأصنام كما يتأنهون لله عز وجل يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد ، باب تحريم الرياء ٤٦ (٢٩٨٥) .

﴿ لَعَلَّهُمْ يُنَصَّرُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> قال المؤلف رحمه الله تعالى : [يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء ، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط ، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء ، أي : لعلهم يغلبون . الواقع أن متخدلي الأصنام يتخدلونها للأمررين : لتشفع لهم عند الله تعالى فینجو من عذاب الله عز وجل ؛ لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ أَخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْ لِكَاءً مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى »<sup>(١)</sup> .

وهم أيضاً يتصررون بها عند الحرب والقتال ، كما قال أبو سفيان في غزوة أحد : أهل هبل . فانتصر بإلهه واعتز به .

فهم اتخذوا هذه الآلة للأمررين جميعاً : لدفع ما يكره ، وحصول ما يحب . وهذا هو المناسب لقوله : « لَعَلَّهُمْ يُنَصَّرُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> لأن إطلاق النصر على مجرد دفع المكروره - هذا وإن كان وارداً - لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة والرفة أكثر في اللغة العربية . ولكن هل هؤلاء ينصرون بهذه الأصنام ؟

الجواب : قال الله تعالى : « لَا يَسْتَطِعُونَ نَصَرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ مُّخْضُرُونَ <sup>(٧)</sup> ». أي : هذه الآلة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودليل ذلك أنهم يضعون الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى ، ويدهبون إلى

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣.

الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيمة فإنهم كلهم يحصيرون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾<sup>(١)</sup> لو كان هؤلاء ألهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَحِيْبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَنِيْلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَإِذَا حِشَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا يُبَادِهِمْ كُفَّارِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعوا الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروره، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكرور فما الجواب؟

قلنا: **الجواب**: أن هذا فتنـة من الله عز وجل يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم يحصل بدعاـء الصـنم وإنما حصل عند دعاـء الصـنم، أي حصل عنده لا به، فالله عز وجل جعل هذا يحصل عند دعاـء هذا الصـنم ابتلاء وامتحاناً، والله عز وجل بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليبلو الإسنان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية الله عز وجل، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآيات: ٦، ٥.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ بُوَرَكُمُ اللَّهُ يُشَرِّعُ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاهُ اللَّهُ أَيْدِيهِمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالغَيْبِ﴾<sup>(١)</sup> فابتلى الله الصحابة وهم محرومون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير، ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشية الله لا عجزاً عن الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالىبني إسرائيل الذين حرم عليهم الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعاً طافية على وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتיהם، وهذا امتحان من الله عز وجل، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون الله عز وجل معاملة الغر الجاهل يخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبهم الله تعالى قردة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُ الَّذِينَ أَعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوئُوا قِرْدَةً خَسِئِينَ﴾<sup>(٢)</sup> فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو دفع ضرر يمتحنون ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقيناً لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

قال المؤلف: [﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: آلهتهم. نزلوا منزلة العقلاء ﴿وَهُمْ﴾ أي: آلهتهم من الأصنام ﴿لَهُمْ جُنُدُّ﴾]

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

بزعمهم نصرهم ﴿تَحْضِرُونَ﴾ في النار معهم]. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن وادو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو (لا يستطيعن نصرهم) لكن قال: ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ﴾ تنزيلاً لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخو طبوا بما يعتقدون.

**﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ تَحْضِرُونَ﴾** المؤلف - رحمه الله تعالى - مشى على أن **﴿وَهُمْ﴾** الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم **﴿تَحْضِرُونَ﴾** أي: معهم في النار، وهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع محضرون في نار جهنم يعذبون. وهذا قول فيه بعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: **﴿وَهُمْ﴾** يعود على العابدين **﴿لَهُمْ﴾** يعود على الأصنام **﴿جُنُدٌ تَحْضِرُونَ﴾** أي: حاضرون. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين يتتصرون للأصنام ويكونون جنداً لها كما قال قوم إبراهيم: **﴿حَرَقُوهُ وَأَنْصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمْ﴾**<sup>(١)</sup> فهو لاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام **﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ تَحْضِرُونَ﴾**<sup>(٢)</sup> ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

**الوجه الأول:** أنهم هم ينصرون هذه الأصنام وينتصرون لها ويدافعون عنها.

**الوجه الثاني:** أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.  
فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفقة والضلال.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَهَةً﴾ صحة إطلاق الإله على غير الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَهَةً﴾ ولكن هل هذه الآلهة حق؟

**الجواب:** لا، هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾<sup>(١)</sup> فهي وإن سموها آلهة وعبدوها كما يعبدون رب عز وجل فإنها لن تكون آلهة، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمُ كُمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم، ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان المبطل لابد أن

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

يتعلق بشيء يبرر به باطله، وهو هنا رجاء النصر ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>، وكل إنسان مبطل لا بد أن يعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مر كثيراً في أقوال أهل البدع.

٤ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّخْسِرُونَ﴾<sup>(٧)</sup> أن هذه الآلة لا يمكن أن تنصر عابديها لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلة فيغاثون أحياناً؟

فالجواب: نعم، يمكن، وهو امتحان وفتنة، ولكن هذا الغوث حصل عندها لا بها، وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده، والسبب غير، فسبب هذا الغوث الفتنة، وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾<sup>(٨)</sup>.

٥ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء العابدين جند محضرون لأصنامهم، يدافعون عن الأصنام ويتصرون لها، لقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّخْسِرُونَ﴾<sup>(٩)</sup> وفي هذا من المناداة بسفههم ما هو ظاهر، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفة كيف تنصر شيئاً لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه، ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّخْسِرُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> كالدليل على سفة هؤلاء. أي: أنهم يتصرون لهذه الآلة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء على ما

اخترناه من أن معنى الآية (وهؤلاء العابدون للمعبودين جند محضرون) أما على رأي المؤلف فهو يرى خلاف ذلك، يرى أن هذه الأصنام جند لهؤلاء، لكنهم محضرون في النار جميعاً، وسبق بيان ضعف هذا القول.

\* \* \*

**﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾**.  
 الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى **﴿فَلَا يَحْزُنْكَ﴾** أي لا يوقعك في الحزن، والحزن هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف هو الهم والتربّب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله عز وجل، ويقولون في رسول الله ﷺ قولًا عظيمًا، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنسح الخلق للخلق، فيحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله عز وجل : **﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾** وهذا كقوله تعالى : **﴿لَعَلَكَ بَنْجُونَ قَسْكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**<sup>(١)</sup> أي : لعلك مهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله عز وجل : **﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾**<sup>(٢)</sup> والآيات في تسليه الرسول عليه الصلاة والسلام وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة : **﴿أَجَعَلَ اللَّهُمَّ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ﴾**<sup>(٣)</sup> وهذا طعن في الألوهية.

(١) سورة الشعرا، الآية: ٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾<sup>(١)</sup> وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن محمدًا عَبْدَ اللَّهِ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضاً عيب في شخصية الرسول عَبْدَ اللَّهِ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صودمت دعوته في لها وأصلها وقيل: ﴿أَجَعَلَ الْآيَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾<sup>(٢)</sup> والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلًا يحس نفسه بضغط، لكن إذا كان سيهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عيب عيبًا ذاتياً يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلِّي الله نبيه محمدًا عَبْدَ اللَّهِ في مثل هذه التوجيهات ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. هنا يجب الوقوف على قوله: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ لأنك لو وصلت لأوهם أن تكون جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ من قولهم، وليس كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله عَبْدَ اللَّهِ وما جاء به، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسررون وما يعلمنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنون للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

**الإسرار الأول:** إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

**الإسرار الثاني:** إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلاً:

هؤلاء قوم عدهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمر من

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

الأمور، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئاً لم يخبر به زملاءه فهذا أيضاً إسرار.

فقوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنوه، وسوف يجازيهم على ذلك يوم القيمة.

\* \* \*

﴿أَوْلَئِرَ إِنْسَنٌ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ٧٧

﴿أَوْلَئِرَ إِنْسَنٌ﴾ يرى بمعنى يعلم، والمعنى: أولم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبیخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وألم ير) وقوله: ﴿إِنْسَنٌ﴾ قال المؤلف: [وهو العاصي بن وائل] وعلى رأي المؤلف تكون (ال) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (ال) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (ال) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ إِنْسَنَ لَفِي حُسْرٍ﴾ يعني: جنس الإنسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>(١)</sup> ووجه كون ذلك هو الأصل. أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومه، فإذا قال قائل: ﴿أَوْلَئِرَ إِنْسَنٌ﴾ إنه فلان بن فلان، فنقول الله

(١) سورة العصر، الآيات: ١ - ٣.

عز وجل، قال: ﴿أَلِإِنْسَنُ﴾ وهو شامل، إذاً فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصي بن وائل مثلاً لمن قال هذا القول، أو لمن رأى هذا الرأي ﴿أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال المؤلف: [مني إلى أن صيرناه شديداً قوياً ﴿فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لنا ﴿مُّبِينٌ﴾<sup>(٧)</sup> بينها في نفي البعث] فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المنى، المهين كما وصفه الله عز وجل، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا ينشئه الله عز وجل حتى يعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صدر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيماً، ﴿فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ﴾ أي شديد الخصومة؛ لأن فعاله يمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾<sup>(٧)</sup> أي: بَيْنَ، والذي يظهر أنها ﴿مُّبِينٌ﴾<sup>(٧)</sup> بمعنى مُظْهَرٌ، يعني مظاهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاء الله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، فـ﴿مُّبِينٌ﴾<sup>(٧)</sup> أي: مظاهر للخصومة، خلافاً لقول المؤلف: بينها.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ إِلَإِنْسَنٌ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو كذلك.

٢ - ومن فوائدها أيضاً: أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٧٧)</sup>.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيماً لله عز وجل بين الخصوم؟ لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مخاصماً لربه عز وجل.

٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سبقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدودة لقول الله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَنِيدُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحَسَنُ﴾<sup>(١)</sup>.

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحرض الباطل، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام: **القسم الأول**: جدال محمود، مأمور به: إما وجوباً، أو استحباباً.

**القسم الثاني**: جدال مذموم، منهى عنه.

**القسم الثالث**: وجدال بين بين.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

أما الجدال الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحضن به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهى عنه قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجِجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَحِبَ لَهُ جَهَنَّمُ دَارِحَضَةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَصَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>.

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهياً عنه، وذلك إذا كان مع الجدال والمراء والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزب.

وإن أفضى إلى مصلحة كان مأموراً به، مثل: أن يكون المجادل مغروراً بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهياً في نفسه، مترفعاً على غيره.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٦.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني هذا الإنسان الذي كان خصيماً مبيناً ضرب مثلاً لله عز وجل، يريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل بيشه بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بياناً لمبهم في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يعني ابتداء خلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ جملة يتحمل أن تكون جملة خبرية، ويتحمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مني ثم كان إنساناً سوياً خصيماً مبيناً.

المثل بيشه بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ يقول المؤلف رحمه الله: [ونسي خلقه من المنى وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن، وخلق من المنى ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعاً لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهَوَنُ عَلَيْهِ﴾<sup>(١)</sup> فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالاً من وجهين:

**الوجه الأول:** استغرابه قدرة الله عز وجل على الإعادة.

**الوجه الثاني:** نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من

ماء مهين ، حتى صار إنساناً قوياً خصيماً مبيناً .

﴿قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ <sup>(٧٨)</sup> أي : باليه و﴿مَنْ﴾ استفهامية ، والمراد به النفي ، أو الإنكار ، يعني لا أحد يحيي العظام وهي رميم . فالإنسان إذا مات ورم ، أي : ذهب لحمه ، وعصبه ، وصارت عظامه تفتت لقدمها ، فهي إذاً رميم ، هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة ؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام ؟ هذا وجه استغراب هذا الرجل المنكر ﴿قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ <sup>(٧٩)</sup> قال المؤلف : [أي باليه ، ولم يقل رمية بالباء لأنه اسم لا صفة] الرميم تارة يراد به الصفة ، يعني اسم المفعول ، أو اسم الفاعل مرمومة ، أو رامة .

وتارة يراد بها الاسم : يعني أن العظم إذا بلى يسمى رميماً ، فلما قصد به الاسم لم يحتاج إلى التاء فقيل : (رميم) لأنه مثلأسد ، وحجر ، وشجر وما أشبه ذلك ، لكن لو أريد الصفة لكان يؤونث فيقال : (رميمة) لأن العظام جمع ، وكل جمع قابل للتأنيث لاسيما وأنه قال : ﴿وَهِيَ﴾ وهذه ضمير مؤنث .

قال المؤلف : [روي أنه أخذ عظماً رميمًا فقتله وقال للنبي ﷺ : أترى يحيي الله هذا بعد ما بلى ورم ؟ فقال النبي ﷺ : «نعم ويدخلك النار»<sup>(١)</sup>] ، المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف ؛ (روي) وهو جديր بذلك ، لأن هذا الرجل المنكر سواه أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه منكر بكل حال ، وليس من عادة الرسول عليه

(١) ابن جرير الطبرى فى تفسيره ج ٢٢ ص ٣١ .

الصلوة والسلام أن يعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: «نعم ويدخلك النار» فالتأثير هذا يحتاج إلى نظر في سنته، وفي صحته.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المجادل بالباطل يأتي بالشبهات التي ينصر بها باطلة؛ لقوله: ﴿مَنْ يُحِيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ فإن هذه شبهة تلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: (من يحيي العظام) فقط، بل قال: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ فكيف تحيا بعد أن رمت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليلبسوها على الناس.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان استهان بربه حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أضرب لكم مثلاً بهذا الشيء الذي يعجز: ﴿مَنْ يُحِيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن المعارض للحق قد يصرح بالإنكار بدون مراوغة لقوله: ﴿مَنْ يُحِيِّ الْعِظَامَ﴾ وأحياناً «يرأوغ». فأيهما أهون؟

الذي يصرح ويبين أهون؛ لأن هذا يمكن أن يتقوى شره، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر، ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أشد من خطر الكافرين الذين يصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرون الناس ولا يمكن التحرز منهم.

\* \* \*

﴿قُلْ يُحِيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾

يقول الله تعالى مبيناً قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ﴾

الخطاب للرسول ﷺ «قل» لهذا الذي أنكر أن يحيي الله العظام وهي رميم «يُحِيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً» واعلم أن الله عز وجل إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام «قل» فهو أمر له بالإبلاغ. ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عموماً لقوله: «يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»<sup>(١)</sup>. فإذا خص شيئاً من الأحكام، أو من الأخبار بـ«قل» كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكل مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبلیغ هذه المسألة، سواء كانت خبراً، أو كانت حكماً. «يُحِيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً» لم يقل: (يحيها الله) ليكون الجواب متضمناً للدليل، لأنه لو قال: (يحيها الله) فهم الإنسان أن الله هو الذي يحييها، لكن إذا قال: «الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً» كان هذا الجواب متضمناً للدليل «الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً» والذي أنشأها أول مرة هو الله عز وجل، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم ينشأها أول مرة، فإذا كان الله عز وجل أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، «الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً» ووجه الاستدلال بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانياً: قال: «وَهُوَ بِكُلِّ حَقٍّ عَلِيهِ»<sup>(٢)</sup> قال المؤلف:

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

[﴿حَقٌ﴾ بمعنى مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٤) صار في هذا نص على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعرض عليه، لأنه إذا كان عالماً لم يبق إلا الإرادة، وإذا أراده وهو بكل خلق علیم، صنع ما علم عز وجل، فكونه بكل خلق علیم دليل على أنه قادر على أن يعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: ﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ هذه القدرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥) هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المستفاد من قوله: ﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ وانتفى الجهل المستفاد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥) صار الخلق ممكناً.

### الفوائد:

- 1 - من فوائد الآية الكريمة: بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ يُحِبُّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ فأقوى ما يسوق للحجج ويبيّنها هو كلام الله، لأن كلام الله عز وجل أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصَدَقُ مِنَ اللَّهِ﴾

حدِيثاً<sup>(١)</sup> ، ف الحديث الله عز وجل لا شك أنه أصدق الحديث وأتمه، وأحسن في الإقناع، وإقامة الحجة.

٢ - من فوائد الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف؛ لقوله: ﴿يُحِبِّيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف، فالأشد إحياءها أول مرة، والأخف الإعادة.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يقر به خصمه، من أجل أن تقوم عليه الحجة؛ لأنَّه قال: ﴿يُحِبِّيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ والخصم هنا لا ينكر أنَّ الله تعالى أنشأها أول مرة.

فينبغي أن تأتي بالشيء الذي يقر به خصمك لتقييم الحجة عليه بإقراره، وهذا أدب من أدب المناظرة، لأنَّه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر منها:

- أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظر الذي حاجه في ربه فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ الَّذِي يُحِبِّي وَيُمِيِّتُ قَالَ أَنَا أُحِبِّي وَأُمِيِّتُ﴾<sup>(٢)</sup>. فعدل إبراهيم عن ذلك، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا يقر به الخصم، ﴿فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وهذا لا يمكن للخصم أن يقُول به.

فالحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

والمحاجة، وأن يأتي خصمه من الوجهة التي يقر بها حتى يقيم عليه الحجة؛ لأن المناظرة والمحاجة وسيلة لإنفاق الحق وإبطال الباطل.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام ﴿يَتَأْيِهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلُ فَأَسْتَمِعُوا لِهِ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُكْرًا بَلْ أَجْتَمَعُوا لَهُ﴾<sup>(١)</sup> مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك فهم على ما هو أعظم أعجز.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، وسبق لنا في التفسير هل الخلق هنا بمعنى المخلوق، أو بمعنى الفعل؟ وذكرنا أنه يتحمل الأمرين، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني كل خلق فالله علیم به، ومن المعلوم أن العالم بالخلق عالم بالمخلوق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَيْرُ﴾<sup>(٢)</sup> إذاً يستفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور، ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالم بالمخلوق.

\* \* \*

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَمْتُ مِنْهُ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

**تُوَقِّدُونَ** ﴿أَلَّا إِنَّ الشَّجَرَ الْأَخْضَرَ﴾ قال المؤلف: [أي: في جملة الناس ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العنب ﴿نَارًا فَإِذَا أَتَمْ مِنْهُ تُوَقِّدُونَ﴾].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ﴿جعل﴾ بمعنى صير، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً هو الله عز وجل، وأراد المؤلف بقوله: [في جملة الناس] أن هذا العمل ليس خاصاً بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المؤلف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (ال) للعهد الذهني، ويكون عاماً أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (ال) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.

فالصواب أن المراد ﴿مِنَ الشَّجَرِ﴾ أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العنب] لا نعرف عن هذا شيئاً هل إنه مستثنى، وأن العنب لا يمكن أن تأتي منه النار - الله أعلم - على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامة، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد من رطب بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليابوسية من التناقض العظيم.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التناقض ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي

رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذاً هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنْشُمْ مِنْهُ تُوَقِّدُونَ﴾ ﴿الفاء﴾ هنا عاطفة و﴿إذا﴾ فجائية يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عوداً بعود من هذا الشجر تقدح النار، فتؤخذ منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجأ للعملية، والمفاجأة استفادناها من كلمة ﴿فَإِذَا﴾ وفي قولنا ﴿أَنْشُمْ مِنْهُ تُوَقِّدُونَ﴾ دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد التثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد ينكره، فلا أحد ينكر أنه يتولد من الشجر الأخضر ناراً يوقد الناس منها.

﴿فَإِذَا أَنْشُمْ مِنْهُ تُوَقِّدُونَ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب].

#### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد، شيء حار يابس. فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أن الضدين متنافران، لا يلتقيان أبداً، وهنا صار أحدهما يتولد من الآخر.

٢ - ومن فوائدها أيضاً: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن التناقض بين الرطب واليابس، والحار والبارد، أعظم من أن

يعاد الخلق ، أو تعاد العظام بعد رميها ، فالقادر على هذا الشيء قادر على إحياء الموتى .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة : بيان نعمة الله علينا بجعله من الشجر الأخضر ناراً ، ووجه الدلالة أنه قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ ﴾<sup>(٧١)</sup> وإنما يكتفي فيقال : (الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً) لكن ذلك لمصلحتنا ، ففيه نعمة من الله عز وجل على عباده بهذه النار . وقد قرر الله هذه النعمة بقوله : ﴿ أَفَرَءِيمُّ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾<sup>(٧٢)</sup> ﴿ أَنَّمَّا أَنْشَطُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ أَمْنِشُؤُونَ ﴾<sup>(٧٣)</sup> ﴿ أَنَّمَّا أَنْشَطُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ أَمْنِشُؤُونَ ﴾<sup>(٧٤)</sup> ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق ، فأنواعها بل أجنسها لا تحصى ، فضلاً عن أفرادها .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة : تقرير الشيء بالواقع فبدلاً أن نلقيه تصوراً في الذهن نذكر واقعه بالفعل ، تؤخذ من قوله : ﴿ فَإِذَا أَنْشُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾<sup>(٧٥)</sup> فهو سبحانه وتعالى بين أنه جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً ، وهذا يعطينا تصوراً بأن الله سبحانه وتعالى جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً ، نستفيد منها ، ثم حق ذلك بذكر الأمر الواقع ﴿ فَإِذَا أَنْشُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾<sup>(٧٦)</sup> أي : تحسونه بواقعكم ، وتلمسوه بأيديكم .

\* \* \*

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ ﴾<sup>(٨١)</sup> . أجاب الله تعالى نفسه بنفسه ، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، كما قال الله تعالى :

(١) سورة الواقعة ، الآياتان : ٧١ ، ٧٢ .

﴿لَخَلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup> وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساون كوكباً من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله عز وجل، والسموات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِيمَانِنَا لَمُوسِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ؟ والذي خلق السموات والأرض أفلأ يكون قادرًا على خلق الناس؟ الجواب: بل والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأولى والأخرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال: ﴿وَهُوَ الْخَلُقُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٣)</sup> قال المؤلف: [الخلق: الكثير في الخلق] يجعل فعالاً من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله عز وجل كثير في الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضاً: إن فعالاً هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أنها لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير في التجارة، فنagar يعني كثير في التجارة، ولكن هل هو مجدها؟ وهل هو مستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيقال نجار؟ وهل التجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق متقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

أما إذا قلت : (نجار) على أنها نسبة ، أي : صاحب صنعة ، فهو أبلغ في الوصف ، والنجار ، أي : ذو الصنعة المتقن لها سواء نجر كثيراً أو قليلاً فهو نجار متقن . فهنا يمكن أن نقول : ﴿وَهُوَ الْخَالق﴾ نحملها على النسبة المفيدة لوصف الله عز وجل بهذه الصفة العظيمة ، أي : ذو الخلق المتقن على أكمل وجه ، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق ، فلا شك أن خلق الله عز وجل لا يحصى أجناساً ، فضلاً عن الأنواع ، فضلاً عن الأفراد ، من ذا الذي يحصي أجناس الخلق ؟ من ذا الذي يحصي أنواع هذه الأجناس ؟ ومن الذي يحصي أفراد هذه الأنواع ؟ لا يستطيع أحد أن يحصي ذلك .

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران : النسبة الوصفية كمال الوصف ، والثاني : الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلقاً ، أي : من وصفه الخلق اللازم له ، وكذلك كثير الخلق ، هل يعجز عن أن يحيي العظام وهي رميم ؟ لا .

﴿الْعَلِيمُ﴾ <sup>(٨١)</sup> العلم دليل على القدرة على الإعادة ؛ لأننا قلنا : إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز ، وإما أن يكون للجهل ، فكلما وصف الله نفسه بالعليم فإن ذلك يعني أنه قادر ، لأنه لا يجهل كيف يخلق ، وكيف ينشأ .

### الفوائد:

- 1 - من فوائد هذه الآية الكريمة : الاستدلال بالأشد على الأخف ؛ لأن الله تعالى استدل بقدراته على خلق السموات

والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته حيث خلق هذه السماوات والأرض، بما فيهما من المصالح والمنافع، والأجرام الثابتة وغير الثابتة، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، ومع عظمتها وسعتها وكبرها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَغْوٍ﴾<sup>(١)</sup> أي: من تعب وإعياء.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم الأفلاك وجه ذلك: أنه قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أوجدها من العدم، ومعلوم أن الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلية الذي لا بداية له، فالسماءات والأرض كانت معدومة، ثم أوجدت بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأما من قال: بقدم الأفلاك، وأنه لم تزل ولا تزال هذه الطبيعة، فإنه ظالم لا يعلم عن هذا شيئاً؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نصلي، بل إن الدليل العقلي والنطقي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك، وأنها حادثة.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إجابة السائل نفسه في الأمر المحقق المتقرر لقوله: ﴿بَلَى﴾.  
إذ قد يقول قائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها؛ لأن أجابتـه دعوىـ، أو تقريرـ لدعوىـ ادعـاهـ.

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

فيقال في الجواب: إذا كان الأمر ثابتاً واقعاً فإن إجابتني نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يقرر ما كان واقعاً معلوماً للمخاطب؛ ولهذا قال ﴿بَلَّ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١).

٥ - في هذه الآية فائدة نحوية وهي: أن جواب الاستفهام المقوون بالنفي، إذا أريد إثباته يقال فيه: ﴿بَلَّ﴾ ولا يقال: نعم؛ لأنك لو أجابت بنعم، لكان ذلك تقريراً للنفي المنفي، مثاله: لو قلت: أليس زيد بقائم؟ فقلت: نعم، يعني قررت النفي ليس بقائم، فإن قلت: بل، فقد أثبتت القيام.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخلق وصف الله عز وجل الذي هو متصف به أولاً وأبداً قوله: ﴿وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية والمخلوق حادث، فهو عز وجل متصف بالخلق، ولهذا قلنا: إن النسبة في قوله: ﴿وَهُوَ الْخَلَقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: وصف الله تعالى بالعلم الأزلي؛ لقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ولا شك أن الله تعالى موصوف بالعلم أولاً وأبداً، فإنه لم يزل ولا يزال عالماً، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (١).

\* \* \*

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢).

قال المؤلف: [﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه] يعني شأنه وحاله إذا

أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن﴾ فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلاً، أو إلى جنود يساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده عز وجل، بل يقول: ﴿كُن﴾ فيكون. قوله - رحمه الله - : [شأنه] قد ينزع فيها، ويقال: إن المراد بالأمر التكوين، يعني أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يكرر كما في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَهُ كَمْحَجِ بِالْبَصَرِ﴾<sup>(١)</sup> فجعل الأمر واحد الأوامر. والمؤلف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرتين جميعاً نقول: شأنه عز وجل في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِهَةٌ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا هم بالسماحة<sup>(٣)</sup>. ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أي خلق شيء] ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٤)</sup> أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد ﴿شيئاً﴾ بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئاً خلقاً، أو إعداماً، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها ﴿شيئاً﴾ سواء كان خلقاً، أو إيجاداً، أو إعداماً وإتلافاً. ولكن الذي حمل المؤلف - رحمه الله - على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يقال: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي إيجاد شيء وخلقه، أو إعدامه.

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٣.

وقد يعتذر عن المؤلف فيقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾<sup>(١)</sup> مع أن الموت عدم وفنا، والأمر في هذا سهل، قال: ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿كُن﴾ هنا الظاهر أنها تامة، فإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلاً. يعني ﴿كُن﴾ أي: أن يوجد ويكون، أو (كن كذا) أي بأن يكون الطويل قصيراً، والقصير طويلاً وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل ﴿فَيَكُونُ﴾<sup>(٣)</sup> قال المؤلف: يقول: [ فهو يكون ، وفي قراءة بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾] قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المؤلف - رحمه الله - إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قرىء). في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾<sup>(٤)</sup> على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبدأ ممحض، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أن يقول﴾ للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعليق، يعني أن الشيء يكون فوراً بدون تأخير، وقد بين الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَجَهَدَ كَلَمْبَعْ بِالْبَصَرِ﴾<sup>(٥)</sup> ولمح البصر ليس شيء أسرع

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

منه، وأمر الله عز وجل واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله و شأن الله فهل إذا قال للعظام الرمية: كوني إنساناً سوياً هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال في هذه السورة: ﴿إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُم جَمِيعٌ لَدِينَ امْحُضُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.
  - ٢ - ومن فوائدها أيضاً: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يضاهيها، ولا يقاربها قدرة، لأنه إذا أراد شيئاً لم يتكلف لإحضار المواد، أو غيرها مما يتكون به هذا الشيء، وإنما يقول: ﴿كُن﴾ فيكون.
  - ٣ - ومن فوائدها: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾ وإرادة الله سبحانه وتعالى كما قال أهل العلم تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكonneية.
- فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة.
- والكونية: هي التي بمعنى المشيئة.
- والفرق بينهما من حيث الأثر:
- (١) أن الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد.
  - (٢) أن المراد فيها قد يكون محبوباً لله، وقد يكون غير محبوب لله.

(١) سورة النازعات، الآيات: ١٤ - ١٣.

أما الإرادة الشرعية: فقد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً لله.

إذا قال لك قائل: هل الله يريد الكفر؟  
فقل له: أما شرعاً، فلا، وأما كوناً، فنعم.

ولو قال لك قائل: هل الله يريد الإيمان؟

فقل: نعم يريد شرعاً، وقدراً إن وقع، لأنه إذا وقع فقد أراده قدرأً، وإذا لم يقع فلا نعلم هل أراده قدرأً أو لا؟ بل نقول: إنه الآن لم يرده قدرأً.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢).

٥ - ومن فوائدها: أن كلام الله غز وجل يكون بحرف؛  
لقوله: ﴿كُن﴾ فإن «كن» كلمة مكونة من حرفين، وإثبات أنه بصوت لقوله: ﴿أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) وهذا الخطاب موجه لما أراده الله، وهو يتضمن أن يكون هذا المراد ساماً لهذا القول، ولا سماع إلا بصوت.

فيكون في الآية رد على قول الأشاعرة في كلام الله عز وجل حيث يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يسمع من الأصوات والحرروف وهو عبارة عن كلام الله، ويررون أن هذا المسموع مخلوق، ولهذا قال بعض المحققين منهم، أو المنصفين منهم: إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتري المصحف فهو مخلوق. فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون

خيراً من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إن ما بين دفتري المصحف كلام الله. فكلهم يقولون: إنه مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون: إنه عبارة عن كلام الله، فإذا صافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة، وعلى كل حال في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، وحقيقة الأمر أنهم لا يثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الله عز وجل إذا وجه لشيء فإن هذا الشيء يكون كما أمر؛ لقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي فيكون على ما أمر الله به، في العين، والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿كُنْ﴾ فكان على حسب ما أراده الله عز وجل.

\* \* \*

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَرِيدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَلِيَنْهَا تُرْجَعُونَ﴾.

(سبحان) بمعنى تنزيهاً، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائماً، وملازمة أيضاً للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظاً فهي مضافة تقديرأ. و(سبحان) معناها: التنزية أي أن الله متبرأ عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلاً يتراء أن يكون وجهه كوجه المخلوق، ويتراء أن يعترى صفات نقص بأي وجه، فمثلاً: العلم، علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولاً، ابتداءً؛ لأنه مسبوق

بالجهل، وانتهاء؛ لأنَّه ملحوظ بالنسیان، وشمولاً ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(١)</sup> لكنَّ عِلمَ الله عزَّ وجلَّ كاملٌ من هذه الوجوه كلها ابتداءً، وانتهاءً، وشمولاً، فهو سبحانه وتعالى عالمٌ بعلمه الذي هو موصوف به أَزلاً وأَبداً، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام، ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّهِ وَلَا يَنْسَى﴾<sup>(٢)</sup> وعلمه شاملٌ لكلِّ شيءٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿لَنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّ أحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾<sup>(٤)</sup>.

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاتِه الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مشابهة والفرق واضح:

**أولاً:** أنَّ المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٥)</sup> ولم يقل: «ليس كشببه شيء» وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾<sup>(٦)</sup>.

**ثانياً:** أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولو لا ذلك ما فهمنا من صفاتِ الله شيئاً.

**فمثلاً:** الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٦) سورة التحل، الآية: ٧٤.

أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مطلقاً فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثاً: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفياً للصفات؛ لأن كثيراً من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه من ثلاثة أوجه.

فتنتزية الله عن كل نقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رمية؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رمية نقص ينافي التنزية، فإذا ثبت أن الله عز وجل منزه عن كل نقص، لزم من ذلك تنتزية الله عن العجز عن إعادة هذه العظام.

﴿بِيَدِهِ﴾ أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾<sup>(١)</sup> وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله عز وجل، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنَا﴾<sup>(٢)</sup> بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله عز وجل حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن ثبت اليد، أما إذا قلت

(١) سورة الملك، الآية: ١.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

بيده بتصريفه وتدبيره مع ثبوت اليد فهذا هو المراد .

﴿ مَلْكُوتُ ﴾ كما قال المؤلف في أصل ﴿ مَلْكُوتُ ﴾ [ملك]  
لكن زيدت الواو والتاء للمبالغة ] أي : زيدت للمبالغة في ملك الله  
لكل شيء ، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعده ، ولا  
يلحق بزواله ، بينما ملك غيره ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا  
الشيء ثم ملكه بعد ، ومع ملكه إيه فإن هذا الملك قابل للزوال ،  
ثم إن ملكه إيه ليس ملكاً مطلقاً يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك  
مقيد ، أما ملك الله فهو تام . ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة  
﴿ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي ملك كل شيء .

وقوله : ﴿ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ دليل على قدرته على  
إحياء العظام وهي رميم ؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكاً مطلقاً  
- مبالغأ فيه بالواو والتاء - قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما  
شاء ، ولهذا فسر المؤلف - رحمه الله - الملكية هنا بالقدرة ،  
فقال : [أي : القدرة على كل شيء] ، ولكن هذا الكلام فيه نظر ،  
بل نقول : مالك لكل شيء ، وإذا ملكه ملكاً مطلقاً فهو قادر على  
أن يتصرف فيه كما شاء .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قال المؤلف : [تردون في الآخرة] أي :  
إليه لا إلى غيره ليجازيكم ، ووجه الدلالة من هذه الجملة على  
القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة  
إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم ، ولو قلنا : بعدم القدرة لانتفى  
الرجوع إلى الله عز وجل ، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار  
وجود الدنيا كلها عبثاً ولعباً ، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله عز

وجل، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأننا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثاً، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيء قادر، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> لكان كافياً في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيوب، ويؤخذ من قوله: ﴿فَسُبْحَنَ﴾ ومر علينا في التفسير أن الذي ينزع الله عنه أمران:

- الأول: النقص في صفاته.
- الثاني: مماثلة المخلوقين.

فعلمه عز وجل لا يناله نقص، لا من حيث الشمول، ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللحق، ولا يماثل علم المخلوقين، وهكذا بقية الصفات.

٢ - ومن فوائدها: أن ملوك السماوات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿الَّذِي يَرِيدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ بِمُثْقَلَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ إِلَهٍ مُّنَاهٍ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

**ظهير** ﴿٢٢﴾ **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾<sup>(١)</sup> .**

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن مرجع الخلائق إلى الله لقوله: **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٨٣﴾ وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله يوم القيمة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية، والشرعية، كما قال تعالى: **وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَيَّ اللَّهِ** ﴿٢﴾ وقال تعالى: **فَإِنْ تَنْزَعُمْ فِي شَيْءٍ فَرْجُوْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴿٩﴾<sup>(٣)</sup> .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى وذلك بكون الرجوع إليه، وأنه لابد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لو لا هذا الرجوع لكان خلق الخلق عبثاً لا فائدة منه، إذ إنه لو لا هذا الرجوع والمجازاة على هذا العمل في هذا الرجوع ل كانت الخليقة خلقت ليفسد في الأرض من يفسد، ويحصل الفتن والشرور وال نهاية لا شيء.

٥ - في هذه الآيات كلها: **قُلْ يُحِسِّنَهَا الَّذِي أَشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً** إلى قوله: **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿١٠﴾ .

إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم وذلك من عشرة أوجه:

الأول: قوله: **قُلْ يُحِسِّنَهَا الَّذِي أَشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً** ﴿١٠﴾ فإنه فيه استدلالاً بالأشد على الأخف.

(١) سورة سباء، الآياتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الثاني : قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(٧)</sup> وعلمه بكل خلق يقتضي أنه سبحانه وتعالى قادر على إحياء العظام وهي رميم .

الثالث : قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ أَخْضَرَ نَارًا ﴾ فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب ناراً وهي يابسة محرق قادر على أن يعيد الخلق ؛ لأن جعل النار من الشجر الأخضر أبلغ في القدرة .

الرابع : قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ فقدرته على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم ؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى ﴾ .

الخامس والسادس : قوله : ﴿ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ <sup>(٨)</sup> والخلق صفة لازمة له ، وكونه خلافاً يشمل أن يخلق كل شيء ، وكونه علیماً يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه .

السابع : أنه لا يستعصي عليه شيء ، بل إذا أمر بشيء كان في الحال ؛ لقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ <sup>(٩)</sup> .

الثامن : تنزيه الله عز وجل عن كل نقص ، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص ، فإذا كان الله تعالى منزهاً عن كل نقص ، كان ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم واقعاً .

التاسع : قوله : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ومن بيده ملوك كل شيء فإنه مالك لكل شيء ، والمالك لكل شيء قادر على أن يوجد المعدوم ، ويعدم الموجود .

العاشر: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾<sup>٨٢</sup> فإن هذا هو نتيجة الخلق  
أن يبعث الخلق ويرجعون إلى الله ليحازيمهم بما عملوا.  
وإلى هنا انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، والله أعلم  
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رَفِعُ

بِعْدَ الرَّحْمَنِ (الْجَنَّى)  
أَسْلَمَ لِلَّهِ الْفَرْوَانُ

رَفِعٌ

بِعْدَ الرَّحْمَنِ الْجَنْوِيِّ  
أَسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورُكَسِ

الفهرس

رَفِعٌ

بِنْ الرَّحْمَنِ الْجَنْوَيِّ  
أُسْكَنَ لِلَّهِ الْفَرْوَانَ

الصفحة	العنوان عن <b>الترجمة التجريبية لأبي البراء الغوثي</b>	الموضوع
١ .....	المقدمة .....	
٣ .....	هل سورة يس مكية أو مدنية .....	
٤ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِهِ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْجَحَّافُ﴾ .....	
٨ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿يَسَ﴾ .....	
٩ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْفَرْمَانُ الْعَظِيمُ﴾ .....	
١٢ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .....	
١٤ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ .....	
١٦ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿تَزَبَّلَ الْعَرَبِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .....	
٢٠ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿لِشَذِرَ قَوْمًا مَا أَنْذَرَ إِبْرَاهِيمَ فَهُمْ عَيْلُونَ﴾ .....	
٢٤ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .....	
٢٦ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهُنَّ إِلَى الْأَذْفَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ .....	
٢٨ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ .....	
٢٩ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْنَاهُمْ أَوْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .....	
٣٣ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْذِرْنَا مِنْ أَقْبَعِ الْكَرْكَرِ وَحَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْعَيْضِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ .....	
٤١ .....	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْكِي الْمُوْقَدَ وَنَحْكِي مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ .....	

- تفسير قوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » ..... ٥٣
- تفسير قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمَا فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ » ..... ٥٦
- تفسير قوله تعالى : « قَالُوا مَا أَنْتُم إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ » ..... ٥٨
- تفسير قوله تعالى : « قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ » ..... ٥٩
- تفسير قوله تعالى : « وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُيْتُ » ..... ٦٠
- تفسير قوله تعالى : « قَالُوا إِنَّا نَطَّرْنَا يَكُمْ لِئَنْ لَمْ تَنْهَاوْ لِرَجْمَنْكُمْ وَلَيَسْمَنْكُمْ مَنَاعَدَابُ أَلِيْرُ » ..... ٦٤
- تفسير قوله تعالى : « قَالُوا طَرَكْمُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ دُكْرَقْ بَلْ أَنْتُرْ قَوْمُ مُسْرَفُونَ » ..... ٦٦
- تفسير قوله تعالى : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَقُولُ أَتَبْعِيُوا الْمُرْسَلِيْنَ » ..... ٧١
- تفسير قوله تعالى : « أَتَبْيَعُونَمْ لَأَيْسَنْكُمْ أَجَرًا وَهُمْ مُهَدْدُونَ » ..... ٧٣
- تفسير قوله تعالى : « وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَ فِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ » ..... ٧٥
- تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَنْ دُونِيَّهُ الْهَكَةَ إِنْ يُرِدْنَ الْرَّحْمَنُ بِضُرِّ لَا تُغَنِّ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ » ..... ٨٠
- تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّيْمَنِ » ..... ٨٨
- تفسير قوله تعالى : « إِذْتَ اَمَنْتَ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ » ..... ٨٩
- تفسير قوله تعالى : « قَيْلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ » ..... ٩٠

- تفسير قوله تعالى: ﴿ يَمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ ﴾ ..... ٩٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُدِنَا مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ ﴾ ..... ٩٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتِ الْأَصْيَحَةُ وَيَدْهَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ ﴾ ..... ٩٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ يَهْسِرَةً عَلَى الْعَبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا يُهْسِرُونَ ﴾ ..... ١٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّمَرِيرُوا كَمْ أَهْلَكَنَا بَلَّهُمْ مِنَ الْقَرُونِ أَنَّهُمْ لَيَرَجِعُونَ ﴾ ..... ١١١
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَنِ كُلُّ لَمَّا جَيَّعَ لَدَنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ..... ١١٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاهُمُ الْأَرْضُ الْمَيَّتَةُ أَحْيَنَاهَا وَأَخْرَجَنَا مِنْهَا حَبَّا فِيمَنْ يَأْكُلُونَ ﴾ ..... ١١٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتِ مِنْ تَخْيِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ ﴾ ..... ١١٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ لِيَاكُلُوا مِنْ شَرْرِهِ وَمَا عَمِلْنَاهُ إِلَيْهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ..... ١٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ سُبْحَنَ اللَّذِي خَلَقَ الْأَرْجَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتَ أَلْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ..... ١٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاهُمُ أَتَيْلُ نَسْلَحُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ ..... ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقْرِرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ..... ١٣٥

١٤١ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرُ قَدْرُنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُجُونِ الْقَدِيرِ﴾
١٤٥ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيَّلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبُحُونَ﴾
١٥٠ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِيمَانُهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذِرِيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَسْحُونِ﴾
١٥٤ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَخَلَقْنَاهُم مِّنْ مِثْلِهِ مَا يَرَكُونَ﴾
١٥٦ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ دَشَأْ نُفَرِّقُهُمْ فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُفَدُّونَ ﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَعًا إِلَى حِينِ﴾
١٥٨ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْقُوا مَا يَنْيَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلَفُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
١٦٣ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ إِيمَانِكُمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾
١٦٥ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ مِّنْ لَوْيَاهَ اللَّهِ أَطْعَمُهُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
١٧٥ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
١٧٦ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِهَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ بِخَصْمَوْنَ﴾
١٧٩ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَا يَسْتَطِعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَّا أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾
١٨٠ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجَدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾
١٨٤ .....	تفسير قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ يُؤْتَنَّا مِنْ بَعْنَانَ مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾
١٩١ .....	فوائد قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِهَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

- تفسير قوله تعالى: ﴿فَآتَيْلَمَ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُحِرِّزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ..... ١٩١
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهُونَ﴾ ..... ١٩٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي طَلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِفُونَ﴾ ..... ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَعُونَ﴾ ..... ٢٠٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ فَوَلَا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ..... ٢٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمُتَنَزِّلُوا الْيَوْمَ أَيْمَانًا أَمْجُرُهُمْ﴾ ..... ٢١٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْقَى إِادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّمَا لَكُمْ عَذَّابٌ مُّبِينٌ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ..... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلَالًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ..... ٢٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ..... ٢٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَصْلُوهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكُفُّرُونَ﴾ ..... ٢٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَلَشَهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ..... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسَنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّ يُبَصِّرُونَ﴾ ..... ٢٣٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخَنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا أَسْتَطَعُو مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ..... ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ..... ٢٣٩

- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يُبَغِّي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقَرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ..... ٢٤٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَدِرَّ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحْقِّقُ الْقَوْلُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ ..... ٢٥٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا عَمِلْتُ أَنِّي أَنْعَكِمَافَهُمْ لَهَا مَنِلِكُونَ ﴾ ..... ٢٥٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَنَّهَا لَهُمْ فِيمَنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ..... ٢٧١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ..... ٢٧٧
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْخَنْدُولُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَعْنَاهُمْ يُنَصَّرُونَ ﴾ ..... ٢٧٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصَرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ مُّخْضَرُونَ ﴾ ..... ٢٨٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرِرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ ﴾ ..... ٢٨٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْلَئِرِ إِلَيْسَنْ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ..... ٢٨٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَسَيَخْلُقُهُ قَالَ مَنْ يُحِبِّي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ..... ٢٩٢
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحِبِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَلَّ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ..... ٢٩٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الشَّجَرِ الْأَحْصَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَمْتُمْهُ تُوْقُدُونَ ﴾ ..... ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْلَئِسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بِلَى وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ ﴾ ..... ٣٠١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ..... ٣٠٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَاءٍ وَلِيَهُ تُرْجَعُونَ ﴾ ..... ٣١٠
- الفهرس ..... ٣١٩

رَفِعٌ

بِنْ الرَّحْمَنِ الْجَنْوَيِّ  
أُسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورِيِّ

رَفِعٌ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْسُّلْطَنِ الْفَزُورِ

# إصدارات دار الثريا

من مؤلفات فضيلة الشيخ

العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى

جمع وإعداد فهد بن ناصر السليمان - وفقه الله

- |  |                            |
|--|----------------------------|
| ١- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ٢٠ مجلداً | ٢- شرح كشف الشبهات         |
| مجلد   | ٣- شرح ثلاثة الأصول        |
| مجلد   | ٤- شرح العقيدة الواسطية    |
| مجلد   | ٥- كتاب العلم              |
| مجلد   | ٦- فتاوى أركان الإسلام     |
| مجلد   | ٧- فتاوى حول أحكام الجنائز |
| مجلد   | ٨- فتاوى حول أحكام الزكاة  |
| مجلد   | ٩- فتاوى حول أحكام الصيام  |

رَفِعٌ

عَيْنُ الْرَّمَحَنِ (الْجَنِي)  
أَسْكَنَهُ اللَّهُ الْفِرْدَوْسَ

رَفِعٌ

عَنْ الْرَّحْمَنِ الْخَيْرِيِّ  
الْكِتَابُ الْفَرَوْكِيِّ